سوار الياسمين

سوار الياسمين

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ -٢٠٢٠م
جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

رقم الإيداع: ٢٦٦٨/ ٢٠٢٠
الترقيم الدولي: ٢-٩٦-٦٦٣٧-٩٧٧٩-٩٧٨

مفكرون الدولية للنشر والتوزيع

القاهرة : +201022332041
+201110117447
السعودية : +966541297982
المغرب : +212522452084
MofakrounINT
info@mofakroun.com
www.mofakroun.com

روائية

سوار الياسمين

عزة عبد الجواد

مفكرون
الدولية للنشر والتوزيع

إهداء

إلى كل من ذاق الألم

إلى كل من فقد حبيبا

إلى كل من تعرض للأذى

إلى الصامدين رغم قسوة الأيام

إلى الثابتين رغم الشكوك

الفصل الأول

وقفتْ أمام شاهد القبر، تحاول أن تخترق التراب بعينيها علها ترى وجه ساكنه للمرة الأخيرة، ولكن الدموع الغزيرة التي ظللت أهدابها وغشَتْ عينيها حجبت عنها الرؤية بينما راحت جموع المشيعين تنفضُّ من حول القبر وقد تناثرت حولها عبارات التعازي، بعضها اخترق سمعها والآخر مَرَّ بدون أن يمَسها، تسمرت عيناها على اللوحة الرخامية التي حملت اسم الرجل الذي دفع حياته ثمنًا لفرارها، تأملها رجل أشيب الفودين يقف بجوار سيدة أنيقة تبدو في أواخر الأربعينيات من عمرها، مال على السيدة هامسًا: يدهشني حزنها العميق عليه.

قالت السيدة باستخفاف: هل تصدق دموع التماسيح هذه، لاريب أن قلبها يرقص طربًا لما سيرثه زوجها من ثروة «عبدالحكيم بك».

هز الرجل كتفيه في لامبالاة في حين اتجه نحوها كهلٌ آخر مقدمًا لها التعازي التي استقبلتها بنصف وعي، استردته كاملًا وسؤال الرجل يخترق حُجُبَ حزنها وهو يقول في خفوت: هل علم «خالد بك» بالأمر؟

أومأت برأسها بإيماءات لا معنى لها قبل أن تستدير إلى حيث القبر الذي ضم أمانها بداخله.

***

سارت على غير هدى، قادتها قدماها إلى حيث كانت تقبع عيادة أبيها القديمة، شعرت بالحنين وهي تجلس على سورٍ صغير يحيط ببيت قديم، تحسست السور في شوق فلطالما جلست عليه وهي طفلة صغيرة بجوار أخيها الوحيد الذي لا تعلم عنه شيئًا الآن، راحت تتطلع إلى الناس يروحون ويجيئون من حولها، ورغمًا عنها تَحَوّل بصرها إلى بقعة بعينها، تبعد عن عيادة والدها بأمتارٍ قليلة، راح الناس يطؤونها بأقدامهم، تسلطت عيناها عليها تتمنى لو ألقت بنفسها تحتضنها كما احتضنت جسد أبيها في لحظاته الأخيرة بعد أن صدمته تلك السيارة المجنونة، لتسيل دماؤه الطاهرة تعطر تلك البقعة، اخترقت عيناها حاجز الزمن وهي ترى نفسها تجلس بجوار جثمان أبيها منهارةً في ذلك المكان، بينما وقف كابوسها بجوارها يشد من أزرها ويربت على جراح روحها ويصب كلماته الباردة على قلبها المحترق بنار الفقد، غرقت في ذكرياتها فلم تشعر كم مر عليها من وقت، حتى انتبهت على صوت إغلاق أحد المحال التجارية مما جعلها تنهض من مكانها منكسة الرأس، لم تنتبه إلى الرجل المار بجوارها فاصطدمت به، تمتمت بعبارات اعتذار متقطعة، ولكن اسمها الذي خرج من بين شفتي الرجل مصحوبًا بعبارات الترحيب جعلها ترفع رأسها لتستقبلها تلك الابتسامة الحنون التي رافقتها فرحة أطلت من عينيه واضحة.. تهللت أساريرها وهي تهتف في سعادة: عم «سليمان»!!

هتف العجوز باسمها في فرحة مماثلة، اقتادها إلى مطعم شعبي قريب، جلس قبالتها ينظر إليها في حنين يتذكر أباها الذي كان بمثابة أخٍ له،لم يُعامله يومًا كرجلٍ يعمل لديه بل كان دومًا يُعامله كصديقٍ، ابتدرته

في لهفة: أين أنت الآن؟

أجابها في هدوء: لم أحتمل دخول العيادة بعد وفاة أبيك، جلست في بيتي حتى أتى أحد أقاربي وعرض عليَّ العمل في مزرعة من تلك المزارع الجديدة على الطريق الصحراوي.

صمت لحظات وهو يقول في بطء: وأنت يا ابنتي؟

تراجعت في مقعدها وعبرت وجهها سحابة من الحزن، بدا على ملامحها التردد قبل أن تحسم أمرها وهي تتنهد كمن يلقى عن كتفيه حملًا ثقيلًا: سأخبرك.

***

خطا «عاصم» خطوات واسعة، عَبَرَ بها قاعة الانتظار المؤدية إلى مكتبه، ألقى نظرةً عابرةً على هذا العدد من النساء اللواتي أتين للحصول على الوظيفة التي أعلنت عنها شركته، تبعه مدير مكتبه في سرعة، جلس خلف مكتبه الفخم هاتفًا في ضيق: ما كل هذا؟ هل تعتقد أننا بحاجة إلى مدبرة منزل حقًّا؟

ابتسم «حمدي» وهو ينحني نحوه قائلًا في مكر: يجب أن يكون الأمر منطقيًّا حتى لا نثير الشكوك، قم بمقابلة واحدة أو اثنتين على الأقل وأنا سأتولى الباقي.

رمقه «عاصم» بنظرة حادة أسرع على إثرها يستدعي أول القائمة.

***

ألقى ذلك الرجل الأشقر الذي ارتدى زيًّا عسكريًّا أمريكيًّا نظرةً على قائمة الوصول قبل أن يرسم على شفتيه ابتسامةً مهنيةً وهو يستقبل قائد

البعثة المصرية.. أنهوا اجراءاتهم وراح بعض الضباط الشباب يمازحون بعضهم البعض بينما خطا ذلك الضابط الثلاثيني العمر خطوات صارمةً وقد ارتسمت على وجهه أقسى أمارات الضيق أيدتها تلك الزفرات الحانقة التي انطلقت تشق طريقها عبر صدره حاملةً ترجمةً صوتيةً لمشاعره الداخلية.

تأمله أحد الشباب في توتر وهو يميل على زميله هامسًا: ترى ما الذي حدث ليحضر المقدم «خالد»دورة تدريبية كهذه؟

طارت بعض الكلمات إلى سمعه لتقف على عتبة أذنه مفشيةً سر صاحبها الذي ارتجفت أوصاله وهو يتلقى تلك النظرة الساخطة التي سددها نحوه، قبل أن يمضى في طريقه حاملاً معه كل سخطه ومرارته، فهو لم يسبق له أن تلقى هزيمةً واحدةً في حياته، وها هو يتلقى الطعنة من أحب الناس إليه في هذا العالم.

***

تطلع «عاصم»إلى تلك السيدة التي بدت في أوائل الأربعينيات من عمرها، وقد ارتدت نظارةً طبيةً سميكةً زادت من عمرها وارتسمت على ملامحها أمارات الجدية والصرامة وهي تدخل بخطوات جادة، هم بأن يفتح فمه ليسألها عن بياناتها ولكنها لم تمهله فقد انطلقت كالبرق تدلى ببياناتٍ تفصيلية عن نفسها، استمع اليها حتى انتهت ثم قال في حذر: لقد عملتِ لدى الكثيرين في فترة قصيرة، لمَ لم تستمري في العمل لدى أي منهم؟

أجابت في جدية: كانوا غير منضبطين على الإطلاق، على قدرٍ عالٍ من السطحية، لا يشغلهم طوال اليوم سوى التفاهات.

كتم «حمدي» ضحكةً كادت تفلت من بين شفتيه وهو يسأل في اهتمام: والأطفال؟

صاحت في حدة أجفلته: الأطفال تلك الكائنات المزعجة غير المنضبطة على الإطلاق.. لا تخبرني أن البيت الذي سأعمل به يحوي في داخله ظلًا لطفل.

قال «عاصم»وهو يهدئ من روعها: البيت ليس به أطفال.

تنفست الصعداء قائلةً: هكذا اتفقنا..ثم اتجهت نحو باب المكتب، توقفت لحظة قبل أن تستدير لتقول كمن يوجه إنذارًا قانونيًا: إن مر على هذه المقابلة أربع وعشرون ساعة ولم أتلق ردًا منكم سأعتبركم أناسٌ غير منضبطين ولن أعمل معكم.

انطلقت ضحكة «حمدي» هذه المرة مصحوبةً بكلماته الساخرة: ولمَ تحرميننا من كل هذا الانضباط الذي أحاط بنا من لحظة دخولك؟

رمقته بنظرة حادة: ربما سأكون سعيدةً وأنا أعلمك الانضباط.

تطلع إلى الباب الذي خرجت منه لحظات في دهشة ثم انفجر ضاحكًا وهو ينظر إلى «عاصم»الذي امتلأ سخطًا وحنقًا فقال مازحًا: أول القصيدة!!

***

انتهت من روايتها، عقد «سليمان» حاجبيه وهو يقول في تفكير عميق: هذا يعني أنك في خطر داهم.

هزت «ياسمين» كتفيها في استسلام: يجب أن أغادر البلاد في أقرب وقت، ولكنني بحاجة إلى استخراج أوراق جديدة، فقد كانت أوراقي الثبوتية

داخل الخزينة التي سُرِقت محتوياتها بالكامل أثناء وجودي بالمقابر.. المشكلة الآن أنني بحاجة إلى مأوى حتى أستطيع تدبير بعض المال واستخراج أوراق جديدة قبل أن تتعقد الأمور ويتم العثور عليّ.

حمل حقيبتها وهو ينهض قائلًا في حزم: أنا لديَّ هذا المكان.

تطلعت إليه في أمل فتابع: سنبيت الليلة عند أختي؛ إنها تسكن قريبًا من هنا وفى الصباح سنذهب إلى المزرعة التي أعمل بها فصاحبها يبحث عن.. عن.....

حار في استدعاء الوظيفة التي يبحث عنها البك صاحب المزرعة قبل أن يهتف: إنه يريد «هوس كير»

حدقت في وجهه لحظات قبل أن تبتسم قائلةً: «Housekeeper»

هز رأسه مؤيدًا كلامها، حز في نفسها أن يصل بها الحال إلى القبول بعملٍ كهذا، قبل أن تعود لتعنف نفسها بأن هذا أفضل حتمًا مما ستصل إليه إن لم تحصل على هذا العمل.

***

ألقى «عاصم» نظرةً سريعةً على تلك السيدة الأنيقة التي تخطت الخمسين من عمرها، تدل سيمها وثيابها على أنها تنحدر من بيت عز، يحمل وجهها حزنًا دفينًا تشي به خطواتها المنكسرة وهي تجلس على المقعد المواجه له في بطء..جعله يقول في هدوء: ما اسمك؟ وأين كنتِ تعملين من قبل؟

أجابته في ألم: اسمي «سعاد».. كنت أعمل في بيتي.

– ولم تركتِ بيتك؟

تنهدت السيدة في أسًى وهي تقول في مرارة: لأنه لم يعد بيتي فقد طُردت منه..طردني ابني إرضاءً لزوجته بعد أن أفنيت عمري عليه ومنحته كل شيء وتنازلت له عن كل ما أملك.. قالتها ثم أجهشت بالبكاء مما حدا بـ «حمدي» أن يسرع لإحضار كوبٍ من عصير الليمون قدمه لها.. تناولته بيدٍ مرتجفة وهي تعتذر بشدة لعدم سيطرتها على نفسها، لكن «عاصم» هوَّن عليها قائلًا: لا عليكِ.. اعتبرينا مثل أولادك.

ثم طلب من «حمدي» أن يجعلها تستقر في استراحة الشركة حتى ينظر في أمرها.. تبعته السيدة في استسلام من لا يملك من أمره شيئًا.. تنعي أمومةً سُرقت منها في زمن العقوق.. يمزقها غدرًا من جزء منها، تأسى على حالها وما آل إليه، تأسف على فلذة كبدها الذي كان لها كل شيء، كانت شمس حياتها تشرق من عينيه ليطفئ بعقوقه نور الحياة داخلها ويتركها جثةً تمشى على قدمين، تتوسل للموت أن يصطحبها حيث أخذ أحبتها ولكن يبدو أن الموت لا يأخذ الموتى.

***

دار «خالد» في غرفته كليثٍ حبيس، نظر إلى هاتفه في غضب، عاد ليطلب نفس الرقم مراتٍ عدة قبل أن يطيح بالهاتف وهو يضرب سطح المائدة بقبضته متمتمًا: الحيوان لم يبلغني حتى الآن بالخبر.. ماذا عليَّ أن أفعل الآن، يجب أن أعود بأسرع وقت.

تأمل زهور الياسمين التي ملأ بها غرفته،اقترب من إحداها قائلًا في غل: لن أتركك تفلتين من يدى.. أقسم أن أجعلك تدفعين ثمن جريمتك.

***

تأملت تلك الحديقة الغناء، الشاسعة المساحة التي خلبت لبها وتسللت إلى داخلها بعض من مشاعر الراحة التي لم تعرفها منذ سنوات، سارت خلف «سليمان» على ممر صغير معبد بالحصى يفضي إلى قصر رائع صُمم على الطراز الحديث، عكست جدرانه البيضاء الملساء أشعة الشمس ليتألق كحجر القمر، بينما اخترقت أشعة الشمس نوافذه الخشبية العريضة المطعمة بزجاج صافٍ لينهل القصر من أشعة الشمس كما يشاء، على اليمين من القصر صُممت تكعيبة خشبية مظللة بالأشجار التي تتعانق في السماء صانعة ما يشبه القبة بحيث تؤمِّن لصاحبها العزلة، استقرت تحتها عدة أرائك باللون العاجي توسطتها مائدة خشبية حملت مزهريةً نحاسيةً رائعة التصميم، حوت زهورًا طبيعيةً خلابةً توسطتهم زهرة ياسمين وقفت بينهم باعتزاز، صعدت الدرجات الرخامية المؤدية إلى بهو القصر الواسع الذي عكس مزاج صاحبه وأبرز رغبته في العزلة، تبعته إلى حجرة مكتب تتميز بالفخامة والذوق الرفيع، جلس خلف مكتبها الوحيد رجل يبدو في منتصف الثلاثينات من العمر، أسود الشعر، عريض المنكبين، برزت عضلاته من تحت قميصه الأسود معلنةً بوضوح عن قوة صاحبها الذي انهمك في مراجعة بعض الأوراق أمامه قبل أن يرفع رأسه ببطء ليتأملها بعينين أبنوسيتين ذات نظراتٍ حادة، تشعر أنها تنفذ إلى داخل النفوس لتهتك سترها وتسبر أغوارها، وتفتح صندوقها الأسود مالم تسارع بتأمينها وبناء سياج حولها يحميها من اختراق تلك العينين اللتين استقرتا داخل عظام منحوتة التقاسيم بروعة بالغة، يتوسطها أنف روماني يشرف على فك صارم، نبتت أسفله بعض الشعيرات في غفلة من

صاحبها، شعرت برجفةٍ داخلها وصاحب القصر يتأملها بنظراتٍ متفحصة، كانت أمامه شابة في أواخر العشرينيات من عمرها، متوسطة الطول، بيضاء البشرة مشربة بحمرةٍ طبيعية، ذات عينين سوداوين واسعتين كعيون المها، تألقتا كليلٍ مظلم، ظللتهما أهداب طويلة كثيفة كحراس على جوهرتيها الغاليتين، أسبلت جفنيها في حياء حين رأته يتفحصها فتألقت أمام ناظريه بذلك الحياء الفطري، ترتدي حجابًا أنيقًا يتناسب مع أناقة ثيابها وبساطتها التي دلت على ذوقٍ راق، قال في بطء: أين كنتِ تعملين من قبل؟

أجابته في حذر: لم أعمل من قبل؟

سارع «سليمان» قائلًا: الست «ياسمين» كانت في كلية الهندسة.

نظرت للرجل مؤنبةً على إفشائه لهذا السر بينما تراجع في مقعده وهو يقول في اهتمام: هل أنت مهندسة؟

أومأت برأسها إيجابًا فتابع فى شك: ولمَ لم تعملي في مجال الهندسة أو في شركة على الأقل؟

أجابته في توتر: أنا لا أحب مجال الهندسة كثيرًا.. لقد دخلت الكلية إرضاءً لوالدي.

قال في تهكم لاذع: وهل عملك كمدبرة منزل يُرضى والدك؟!!

احتقن وجهها وغامت الرؤية أمام عينيها وبعض قطرات الماء المالح تتجمع داخل حدقتيها منذرةً بهطول الدموع، إلا أنها سيطرت عليها بإرادة فولاذية وهي تلتقط نفسًا عميقًا بدد غصة حلقها لتنطلق الكلمات حادة

قاطعة: أعتقد أنه مناسب الآن فأنا بحاجة إلى عمل يوفر لي المسكن أيضًا خاصة بعد وفاة والدي.

أطرق برأسه لحظات قبل أن يقول في خفوت: آسف.

تطلعت في دهشة إلى ذلك الصارم الساخر وتلك الرقة المفاجئة التي ألجمتها، نهض من خلف مكتبه ليدور ويقف أمامها مباشرةً كان يناهز المترين طولاً عريض المنكبين مفتول العضلات، اتكأ على حافة مكتبه في تراخٍ وهو يقول في جدية تناقضت مع وقفته: أنا لا أحب أن أستخدم الكثيرين في بيتي، مهام عملك ستعرفينها لاحقًا، لكن أهمها هو رعاية الحيوانات والاهتمام بها، والأهم هو ألا تسمحي لأى غريب بالولوج إلى المنزل في غيابي.

هتف «سليمان» في سرعة: الست «ياسمين» أمينة ومحترمة.

رمقه بنظرة جانبية وهو يعود ليجلس خلف مكتبه منهيًا المقابلة في برود: يمكنك استلام العمل من الآن، اتركي بطاقتك الشخصية.

كادت تسقط مغشيًّا عليها، أخذ القلق يعصف بجنبات نفسها، حارت في البحث عن جواب قبل أن تأتيها النجدة على لسان «سليمان» الذي قال في سرعة: أنا سأحضرها لك سيدى. ثم أشار لها نحو الباب متابعًا: تفضلي يا ابنتي.

تنفست الصعداء وهي تنظر بامتنان للعجوز قبل أن تسرع الخطى لتفر من المكان.

***

فتح «سليمان» باب ذلك الكوخ الصغير الذي يقبع في حديقة القصر قائلًا: المكان هنا غرفتين بملحقاتهم.. فالبك لا يسمح بمبيت أحد داخل القصر.

تطلعت الى محتويات الغرف.. كانت تتمتع بالبساطة والأناقة في آنٍ واحد، فعلى اليمين استقرت حجرة نوم رائعة بسيطة التصميم من الخشب الطبيعي، وعلى اليسار انسابت أشعة الشمس تملأ حجرة المعيشة التى طليت جدرانها بلون الشمس فعكست أشعتها فى سخاء، ضمت عدة أرائك بُنية اللون توسطتها مائدة خشبية من اللون ذاته، استقرت مدفأة حجرية في منتصف الحائط المواجه للشرفة فأضفت على المكان جوًّا من الراحة والدفء، تطل شرفتها العريضة على تلك الأرجوحة الخشبية التي استقرت على يسار تكعيبة البك وقد حظيت بظل شجرة البونسيانا خيمية التفريع ذات الأزهار الحمراء القرمزية، بينما نبتت أسفل الشرفة بعض الشجيرات الصغيرة، وعلى يمين الشرفة وقفت إحدى أشجار المانجو كحارس أمين، بينما تناثرت حوله أشجار السرو حتى كادت أن تخفيه، شعرت براحة كبيرة داخله، ولكن تلك الراحة تبددت وهي تتذكر أمر البطاقة فالتفتت للعجوز تسأله، أجابها الرجل في بساطة: سأخبره أني أضعتها.

همست في توتر: وهل تعتقد أنه سيصدق؟

ابتسم الرجل ابتسامةً صغيرةً حاول أن يخفى بها توتره: لا تقلقي، إنه يثق بي، فقط حافظي على ثباتك أمامه ولا تجعليه يلحظ شيئًا وإلا فإنه لن يكتفى بطردك وطردي حينها، بل قد يودعنا السجن فهو ليس سهلًا على الإطلاق.

ارتجفت أوصالها وهي تتخيل نفسها تُساق إلى السجن، قال العجوز في سرعة: هيا بدلي ثيابك واستعدى لأعرفك مهام عملك حتى يرى أنك كفء للعمل.

أومأت برأسها في طاعة والرجل يغلق الباب تاركًا إياها في دوامة من القلق جعلتها تنهار على أقرب مقعد لها تاركةً لدموعها العنان.. تنعى قلبها الذي أعلن موته على قيد الحياة..جرح وراء آخر جعل روحها تنزف ألمـًا..خيبة وراء أخرى جعلتها تحبس نفسها داخل أسوار الوحدة العالية، تملؤها الوحدة حتى وهي بين الناس، كل شيء تفعله صار بلا معنى، تشعر بروحها تنتحر ببطء كمن يتجرع سمًا على مهل.

***

جلس «خالد» يستمع إلى تلك المحاضرة في تأفف.. بدا كلام المحاضر بالنسبة له مجرد فلسفة فارغة، كان دائمًا يكره المحاضرات، يعتقد أنها مجرد كلام أجوف لا يسمن ولا يُغني من جوع، نظر إلى ساعته التي أخبرته أنه قد مضى نصف الساعة فقط من وقت المحاضرة.. تململ في جلسته، راح عقله يعمل في سرعة للبحث عن وسيلة للهروب من هذا الملل، تلفت حوله لتصطدم عيناه بتلك الشقراء التي ترقبه عن كثب.. منحته ابتسامةً مشجعة، بادلها إياها بابتسامة فاترة، ورغمًا عنه راح يتذكر تلك الخائنة التي مرغت كرامته في التراب ومضت غير عابئة به، كان يتوقع الخيانة من الجميع إلا هي، كان يصادق الذئاب ولكنه كان دائمًا مستعدًا.. أما هي فقد ارتدت ثياب الحملان قبل أن تنقضَّ عليه كذئب شرس، بدت هادئةً كسطح بحر في يومٍ صاف قبل أن تغرقه في وحل خيانتها كبحر

هائج.. حقًا البحر أقل غدرًا من المرأة.

***

سارت بجوار «سليمان» تتأمل تلك الحيوانات التي قبعت في أقفاصها، لا تدري لمَ أتت إلى هذا المكان ولا تدري ما الذي سيحدث لها، شعرت أن حالها من حالهم فها هي غريبة وحيدة بعيدة عن أحبتها، بعضهم يبعد عنها أيامًا والآخر يبعد عنها حياةً كاملة، والأقربون منها يبعدون فراسخ تحت الأرض التي ضمتهم وحدهم، ورفضت أن تحتويها معهم، وتركتها تسير فوقها جثةً بلا مأوى تنتظر موعدها لتستقر بينهم، قطع شرودها إشارة عم «سليمان» إلى أقفاص بعينها مفضلة لدى البك، أوصاها بضرورة العناية بها، جاوبته بضحكة رقيقة وهي تقول: حتى التمييز في الحيوانات؟!! لن أفعل هذا كلهم من الآن سواسية.. لا يمكننا أن نفسد على الحيوانات حياتهم البريئة بما أفسدنا به حياتنا من غش ونفاق ومحسوبيات.

طارت كلماتها إلى سمعه وهو يجلس تحت تلك الشجرة الضخمة التي تظل مساحةً واسعةً من الأرض بظلالها الوارفة، زوى ما بين حاجبيه، أطل برأسه ليتابعها وهي تكمل سيرها بجوار «سليمان» الذى اقتادها إلى مبنًى صغير يقع في الجهة الشرقية من القصر، تبين لها حين خطت داخله أنه المطبخ، راح «سليمان» يُعرفها بالعاملين فيه، كانوا أربعة أفراد فقط، «حنفي» الطاهي وزوجته وابنهم الصغير «أحمد» وأخت زوجته «أحلام» التي قالت في استياء: ما الذي ينقص القصر ليحتاج إلى من يديره؟

ارتفع صوتٌ صارم من خلف «ياسمين» التي انتفضت في مكانها

وصاحبه يقول: ليس لكِ شأن بم يحتاجه القصر، أنتِ هنا لتنفيذ أوامري فقط.

امتقع وجه «أحلام» وعلا الارتباك ملامحها واحتبس صوتها وشفتيها تتحركان بكلمات متعثرة حبيسة دون أن تجرؤ إحداها على العبور خارج شفتيها، التفت إليها قائلًا بنفس اللهجة الصارمة: وأنتِ متى ستقومين بعملك؟

ارتبكت «ياسمين» وتصاعدت دماء الحرج إلى وجهها وهي تجيب في توتر: أعتقد أن تَعرُّفي على المكان والعاملين فيه هو جزء من مهام عملي.

قال في سخرية: وهل ستتعرفين على المكان الواحد بالساعات؟!.

احتقن وجهها في حين تابع وهو ينصرف: اتبعيني فليس لديَّ اليوم بطوله.

تبعته في استسلام، جلس واضعًا ساقًا فوق الأخرى بينما وقفت هي و «سليمان» أمامه في احترام، ساد الصمت لحظات عربد فيها القلق بداخلها قبل أن يلتفت لـ «سليمان» قائلًا في تهكم: هل تغيرت وظيفتك فتركت حراسة البوابة وأصبحت حارسًا شخصيًا للآنسة؟!

امتقع وجه الرجل العجوز، فأسرع يستأذن بالانصراف في حرج، تابعته ببصرها في توتر ثم عادت إلى ذلك الجالس أمامها وهي تتظاهر بالثبات والهدوء، تأملها لحظات احترقت فيها أعصابها قبل أن يقول: مهام عملك هي الإشراف على كل شيء بما فيها صرف رواتب العاملين وسأمنحك حق إعطاء مكافأة لمن يستحق إذا أثبتِّ جدارتك في إدارة المنزل.. هل هناك شيء آخر تريدين الاستفسار عنه؟

- ماذا عن الزائرين والتليفون؟

- التليفون هنا لا يستعمله سواكِ من أجل العمل، والعمل فقط.. أما بالنسبة للزوار فلا أحد يدخل في غيابي.

قالت لتستوثق من صواب ما فهمت: أي أنني لن أسمح لأى شخص بالدخول في غيابك.

هز رأسه موافقًا ثم قال في برود: لم تسألي عن راتبك حتى الآن..هل تتظاهرين بأن المال لا يعنيكِ؟

أجابته في هدوء: أنا سأعمل هنا وأستحق راتبًا عن عملي كل ما في الأمر أنني تركت الأمر لتقدير سيادتك.

لم يرد عليها بل أشار لها بالانصراف في غطرسة، جعلتها تنصرف وداخلها يحترق سخطًا على هذا المتعجرف.

***

ظلام دامس يحيط بها، تحاول الحركة فلا تستطيع، تحاول رفع يدها لتجد أنها مقيدة بأصفاد إلى الحائط خلفها، انتابتها حالة من الذعر جعلتها تتحرك فى مكانها بصورة عصبية،ظهر من قلب الظلام كأنما خُلق منه، جلس أمامها واضعًا ساقًا فوق الأخرى وابتسامته تعلو وجهه، ألقى نحوها بثعبانٍ التف حول جسدها بسرعة البرق يعتصر روحها، استيقظت فزعةً من نومها، تدافعت دموعها للانهمار من عينيها في غزارة، ها هو نفس الكابوس يعاودها مرةً أخرى غير أن أصفادها قد ازدادت قوة، حركت يدها فأسعدها أن تجدها حرة، نظرت إلى يدها كأنما سترى أثرها عليها، تنهدت في راحة.. ألقت نظرة على الساعة الأنيقة المعلقة على

الجدار المقابل لتخبرها أن وقت الفجر قد حان، رفعت إلى السماء عينين دامعتين تائبتين، لهج لسانها بالاستغفار، فتحت ذلك المصحف الصغير الذي لم يفارق حقيبتها منذ الحادث، أخذت تقرأ الآيات التي نزلت على قلبها الميت كإكسير حياة، مرت كلمات الله على جراح روحها فشفتها، تنفست نسيم الفجر العليل بعمق، أشرق داخلها الأمل في النجاة، وقفت ترقب شروق الشمس يبدد الظلام برفق.. تعشق مراقبة الشروق فعندما تشرق الشمس، ليس هناك من مشكلة لا يمكن تجاوزها. لطالما حمل لها الشروق الأمل حتى في أحلك أيامها وأسوئها على الإطلاق، أدركت منذ زمن أن الشمس لا تشرق في اليوم مرتين، والحياة لا تعطي مرتين، فلتتشبث بقوة ببقايا حياتها ولتنقذها وإلا فلتترك نفسها تسقط في الجب، شدت قامتها وهي تخرج إلى الحديقة تتنفس هواءها الذي يحمل رائحة النقاء والصفاء، تحبس داخل صدرها أريج زهورها اليانعة، اتجهت نحو المطبخ، طرقت على بابه المفتوح في أدب، استقبلتها «أم أحمد» بابتسامة ترحاب كبيرة وهي تعيد تعريفها بكل منهم ومهام عمله في القصر، ربتت على رأس الصغير قائلة في مرح: وما هو عملك استاذ «أحمد»؟

ضحك «حنفي» قائلًا: إنه همزة الوصل بيننا وبين «سليمان».

ابتسمت «ياسمين» في حين علا صوت «أحلام» وهي تقول في برود: وما هو عمل المديرة الجديدة؟

أجابتها في بساطة: سأتلقى التوبيخ نيابةً عنكم.

قالت «أحلام» في ضيق: نحن نقوم بعملنا على أكمل وجه لذا لا نتلقى توبيخًا من أحد.

رمقتها «أم أحمد» بنظرة غاضبة بينما ارتفع صوت «سليمان» الذي رمى «أحلام» بنظرة مؤنبة قائلًا في حزم: كلنا هنا رهن إشارتك.

أشاحت «أحلام» بوجهها فى ضيق بينما شعرت هى بثقل وجودها بينهم فانسحبت فى هدوء.

***

غاص «عاصم» داخل مقعده، الأفكار تتصارع في رأسه، يرفض عقله تصديق أن امرأةً مثلها حاصلةً على بكالوريوس في الهندسة وابنة طبيب ثم توافق على العمل في وظيفة كهذه؟! يثق أنها هاربة من شيء ما، أو أن وراءها سر كبير، جزء منه يرى أنها مناسبة تمامًا لما يريد بينما يرفض عقله تمامًا تلك الظروف التي قد تعرض مهمته لخطرٍ كبير، قطع «حمدي» شروده وهو يتساءل عن سبب إلغائه لكل المقابلات.

أجابه «عاصم» فى اقتضاب: لقد عثرت على بغيتي فقط أحتاج إلى بعض التحريات عنها، أعتقد أنها هاربة من شيء ما.

قال «حمدي» في سرعة: ولم نُدخل أنفسنا في متاهات؟ فلنبحث عن غيرها، فقد تجر علينا المتاعب وتؤدي إلى كشف أمرنا.

عقد «عاصم» حاجبيه في تفكير عميق وهو يقول: لذا أحتاج لبعض التحريات عنها.. «سليمان» أثنى عليها كثيرًا كما أنه يعرفها ويعرف أهلها منذ زمن بعيد، لقد وظفتها مؤقتًا وستكون تحت عيني حتى نتحرى عنها جيدًا.. إذا لم يكن وراءها شيء وكانت حقًّا بحاجة إلى عمل يوفر لها المسكن كما قالت، فهي في هذه الحالة أفضل من غيرها.

قالها بينما القلق ينهش داخله.. لأول مرة في حياته يقف مترددًا، كان

يكره التردد، فهو بالنسبة له المذبح الذي تنزف عليه القرارات، لقد اعتاد أن يتخذ قراراته بحزم وسرعة وثقة بعد تفكير ناضج، أما هذه المرة فقراره يتوقف عليه المستقبل بأكمله، لم يكن المستقبل يعنيه لولا وجودها فيه.. يشعر أنه كغريق يخشى على نفسه من البلل.

الفصل الثاني

خطت إلى داخل القصر المفتوح.. وقفت للحظات ترقب «أحلام» التي انهمكت في تنظيف البهو.. رمقتها «أحلام» شذرًا فقالت متجاهلةً نظرتها المتحفزة: ما رأيك أن نقوم بإحداث بعض التغييرات ثم نقوم بتنظيفه؟

أجابتها في حدة: لم يأمر البك بعمل تغييرات.

قالت في برود وهي تشير إلى الهاتف الأرضي الذى استقر على مائدة صغيرة مستديرة: يمكنكِ الاتصال بالبك وسؤاله عما إذا كان قد أمر بهذا أم لا؟

امتقع وجه «أحلام» وأسقط في يدها فوقفت صامتة، عادت «ياسمين» تقول بنفس البرود: أم تفضلين أن أخبره أنكِ ترفضين القيام بعملك؟!

ملأ الرعب نفس «أحلام» وعقد الخوف لسانها فلزمت الصمت، تابعت «ياسمين» في صرامة مخيفة: أوامري تُنفذ بعد الآن بدون نقاش.

جاوبتها «أحلام» بنظرة حاقدة لم تلقِ لها بالًا وهى تتابع بنفس اللهجة: تذكري جيدًا أنتِ منِ أردتِ أن أعاملك هكذا.. ثم خفتت لهجتها قليلا وهي تتابع: ولكن إن أردتِ أن أعاملك كأختٍ لي فهذا قرارك.

رددت «أحلام» في دهشة: أختك؟!!

أجابتها في سرعة: لم أحظ يومًا بأختٍ لي.

شعرت «أحلام» بالخجل من نفسها حين سعت لعدواتها لمجرد رفضها لأن تتسيد عليها إمرأة غريبة، ولكن يبدو أن «ياسمين» مختلفة حقًا عن صورة المديرة التي رسمتها لها في خيالها

همست في توتر: هذا شرفٌ لي.

احتضنتها في قوة وهي ترسلها قائلة: هيا ننه عملنا.

***

سار بخطواتٍ بطيئة إلى داخل حديقة القصر، علت الدهشة ملامحه لخلو البوابة من حارسها، قادته قدماه إلى باب القصر الداخلي الذي وجده مفتوحًا، اتسعت حدقتاه في دهشة وهو يرى تلك الغريبة واقفةً توليه ظهرها بينما تشير بيدها إلى العاملين بالقصر لينقلوا بعض قطع الأثاث من أماكنها إلى أماكن أخرى أشارت هي إليها، وقف لحظات يحاول أن يفهم ما يحدث قبل أن تتراجع المرأة فجأة لتصطدم به، استدارت في سرعة لتطلق شهقة فزعٍ قصيرة تلاها سؤالها المتوتر: من أنت؟ وكيف دخلت إلى هنا؟

أجابها «حنفي» وهو يتجه نحو الرجل مرحبًا به في حفاوة مقدمًا إياه لها: المهندس «علاء» المسؤول عن المزرعة.. صمت «حنفي » لحظة ثم تابع وهو يشير إليها: الست «ياسمين» مديرة القصر.

أومأ «علاء» برأسه مرحبًا وهو يتأملها في هدوء، كانت تتمتع بجمال هادئ وقسمات مريحة، عيناها كليل أسود تألقتا وسط بشرة بيضاء ناعمة كالحليب، شفتيها كحبتي كرز أُغلقتا على صفين من اللؤلؤ، علاهما أنف

دقيق، ترتدي حجابًا يخفي أي أثر لشعرها ولكنَّ حاجبيها الأسودين الكثيفين يشيان بشعرٍ أسود ناعم، حملت بين يديها مزهريةً خاليةً من الزهور وشمعدانًا فضِّيًّا.. قطعت نظرته المتأملة حين قالت في حدة: «البك» ليس هنا يمكنك الحضور عندما يأتي.. ثم أغلقت باب القصر في وجهه.

تطلع إليها «حنفي» في دهشة، أجابت على سؤاله الصامت المطل من عينيه: أوامر البك.. غير مسموح لأحد بالدخول في غيابه.

أسرع «حنفي» يفتح الباب ليلحق بالرجل قائلًا: تلك الأوامر لا تشمل المهندس «علاء» بكل تأكيد.

زفرت في ضيق فقال «سليمان» في سرعة: لا تقلقي، لن يغضب البك.

غمغمت في توتر: ليست المسألة غضب البك فقط، لا أريد أن يراني أحد.

همس مطمئنًا: لا تقلقي.. المهندس «علاء» لا خوف منه.

تمنت لو كفت عن ذلك الخوف الذي لم تعرفه طيلة عمرها إلا في السنوات الأخيرة من حياتها، ما عاد بإمكانها أن تحدد مصدر مخاوفها.. أهو الخوف من العودة لذلك السجن الذي فرت منه بصعوبة، أم هو الخوف من الاستمرار على قيد الخوف؟

***

أمسكت «ياسمين» بالهاتف في توتر وصوت «عاصم» الحاد يخترق أذنها معترضًا على سماحها للمهندس «علاء» بالدخول في غيابه، سارعت بنفي الأمر موضحةً أنها لم تسمح له بالدخول وأنه لازال في حديقة القصر برفقة «حنفي» ويرغب بمهاتفته.

قال وقد هدأت نفسه قليلًا: حسنًا.. إئذني له بالدخول وليرافقه

«حنفي» ويخرج من القصر فور إنتهاء المكالمة.

أذنت بالدخول لـ «علاء» الذي تبادل حوارًا قصيرًا مع «عاصم» بشأن ماكينة الري التي كان قد طلب إرسالها له وأخبره «عاصم» أنه قد نسيها في غمرة انشغاله ووعده بإرسالها له في الغد.

غادر «علاء» القصر ولكنه توقف في الحديقة يتحدث مع «حنفي» وهو يرنو ببصره إليها كأنما يتحدث عنها مما أثار داخلها أسوأ مخاوفها.

***

جلسوا في الحديقة يتناولون الطعام، أخذوا يتبادلون الضحكات والنكات التي تبارى فيها كل من «حنفي» و«سليمان»، تأملتهم «ياسمين» في راحة، لم يمض الكثير على وجودها بينهم ولكنها تآلفت معهم سريعًا فهم يتمتعون بطيبة فطرية ونقاء لا حدود له.. ترى السعادة متجسدةً بهم برافديها الأزليين البساطة والطيبة، إنهم يذكرونها بأحبتها الذين رحلوا وتركوها وحدها، أخرجها من شرودها صوت «أم أحمد» وهي تقول: يبدو أن طعام «حنفي» لم يعجبك!

هزت رأسها نفيًا قائلةً بابتسامة كبيرة: لم أحظ بجلسة رائعة وطعامٍ كهذا منذ سنوات.

ربتت «أم أحمد» على كتفها في حنان: بالهناء والشفاء.. يعلم الله كم نزلت محبتك في قلوبنا.

تمتمت بعبارات الشكر والامتنان وهي تنسحب من بينهم في هدوء، وقفت أمام أقفاص الحيوانات.. صار كل منهم صديقًا لها تحكي له ويحكي لها، أعطوها أسرارهم ومنحوها ثقتهم فأصبحت على علم بما

يبهجهم وما يسعدهم.

***

مر الأسبوع بطوله ولم يأتِ «البك»، كان يتصل من آن لآخر ليطمئن على القصر، تشعر حياله بالقلق الدائم، يصيبها التوتر عندما تعبر نبراته الحادة أسلاك الهاتف، لم تشغل بالها كثيراً بالتفكير فيه، فقد أراحها في اليومين الماضيين من اتصاله، فتحت ذلك الكتاب الذي عثرت عليه في مكتبته الضخمة، جلست في الحديقة تتنسم هواءها النقي، هنا تجد متعتها الحقيقية حيث الهواء النقي واللون الأخضر الذي يريح أعصابها المتوترة على الدوام، والكتاب الذي يصحب عقلها في جولة ممتعة يجعله يستعيد صفاءه ويعيده أكثر انفتاحًا وعلمًا، استغرقت في الكتاب فلم تنتبه إلا على صوت اختراق السيارة للبوابة ويده تشير لها أن تتبعه إلى الداخل.. لحقت به فى سرعة، جلس على كرسيه المفضل واضعًا ساقًا فوق الأخرى وهو يقول: قُصِّي عليَّ كل ما حدث أثناء غيابي.

أجابت في هدوء: لا شيء مهم يُذكر، كل شيء سار على ما يُرام.

مال نحوها قائلًا في صرامة: عندما أقول قصِّي عليَّ ما حدث فإن عليكِ أن تخبريني بكل التفاصيل مهما بدت صغيرةً وتافهة، وأنا فقط من يحدد ما هو المهم من عدمه.

- لقد أحدثنا بعض التغييرات في البهو، وقمت برعاية الحيوانات والإشراف على المنزل، ولم يحدث أي شيء جديد طوال الاسبوع الماضي.

- كم مرة أتى المهندس «علاء» إلى هنا؟

- لقد أتى مرةً واحدةً.

قال بلهجة تجمد الدم في العروق: أنا لا أسامح قط من يكذب عليَّ، خاصةً إذا كان يعمل عندي.

شعرت بالإهانة فصاحت في حدة: أنا لا أكذب قط.

نهض من مكانه، ضغط زرًّا في الحائط، لم تمض لحظات حتى أتى «سليمان» يلهث فابتدره قائلاً في صرامة: كم مرةً أتى المهندس «علاء» هنا؟

أجابه بأنفاسٍ متقطعة: مرتين.

امتقع وجهها حتى حاكى بياض الموتى ولكن «سليمان» تابع وهو يلتقط أنفاسه: ولكنه في المرة الثانية لم يدخل القصر، بل أخبرني على البوابة أنه قد تسلم ماكينة الري وانصرف.

تنفست الصعداء وهي تتمتم في سرها بكلمات الحمد في حين قال هو في حزم: يمكنك الانصراف ولا تترك البوابة مرةً ثانيةً فترتيب البهو ليس عملك.

هم «سليمان» بالحديث، لكن «عاصم» استطرد في حزم أكبر: سأعتبر الأمر كأن لم يكن.. لكن لو تكرر ثانيةً فسيكون حسابي عسيراً.

غادر «سليمان» والقلق يصول ويجول بداخله، بينما وقفت هي في ثباتٍ مصطنع قائلةً: أي أوامر أخرى؟

أجابها في سخرية: وهل أمرت بشيء أول حتى يكون هناك آخر؟ ما هي مهام عملك بالضبط يا آنسة؟

- الإشراف على كل شيء في المنزل.

- أي أنكِ المسئولة عن كل ما يتعلق بى أثناء وجودى هنا..لم أر أنكِ قد أعددتِ لي شيئًا حتى الآن!

تمتمت بارتباك: لحظات ويكون كل شيء كما تريد.

اختفت من أمامه لحظات ثم عادت حاملةً كوبًا من عصير الليمون، غابت لدقائق أخرى ثم عادت لتخبره أن كل شيء مُعد، لم يعلق بكلمة على التغيير الذي حدث في البهو وإن ظهر من نظرات عينيه التي أجالها فيه أنه قد راق له.

***

استرخى في فراشه وقد ساعدته رائحة الزهور التي وضعتها بجانبه على ذلك، انبعث ذلك الرنين الخافت من هاتف صغير بجوار سريره، امتدت يده ليلتقط سماعته التي عَبرَها صوتها قائلةً فى تهذيب: هل تود تناول طعام الغداء الآن أم ترغب في أخذ قسط من الرحة أولًا؟

قال في سرعة: من قام بعمل دائرة الاتصال الداخلية هذه؟

أجابته فى توتر: أنا..

قاطعها في حزم: انتظريني بالأسفل.

وقفت في انتظاره والقلق ينهشها، تلوم نفسها لأنها صنعت شيئًا بدون أن تستأذنه، لم تظن أن الأمر سيغضبه هكذا، لقد صنعت دائرة الاتصال الداخلية هذه حتى لا تصعد إلى غرفة نومه حين يكون بداخلها، أرادت أن تتواصل معه بشكل آمن، دون أن تخترق خصوصيته، أو تعرض نفسها لموقف يزعجها، صحيح أن عم «سليمان» يمدح في أخلاقه ويصفه دائمًا بالرجل المحترم، ولكنها ما عادت تثق بأحد، لقد كانت تثق بالناس ثقةً عمياء حتى بكت على سذاجتها كثيرًا، فالثقة كالشجرة تحتاج سنوات

كي تكبر ولكنها تموت في ثوان معدودة حين يتم اجتثاثها وخيانتها.

***

فركت كفيها في توتر وهي تراقب نزوله عبر السلم الداخلي للقصر، بدا مهيبًا مسيطرًا، ملامحه الجامدة لم تشى بشيء، جلس على مقعده العالي واضعًا ساقًا فوق الأخرى مشيرًا لها بالجلوس وهو يقول: ما هو تخصصك بالضبط؟

أجابت في توتر أكبر: مدني.

عاد يسأل في اهتمام: كيف تعلمت صنع تلك الدائرة الداخلية؟

- كان خطيبي السابق معيدًا بكلية الهندسة قسم كهرباء وكان عبقريًّا في مجاله وتعلمت منه بعض الأشياء.

- من الواضح أنه كان يحبك كثيرًا وإلا لما أرهق نفسه بتعليمك؟ فلم افترقتما؟

- لقد توفى في حادث قبل الزواج بشهورٍ قليلة.

تمتم في خفوت: رحمه الله.. صمت لحظات ثم مال نحوها قائلًا بصورة مباغتة: ممَ أنتِ هاربة؟

انتفضت في ذعر وهي تهتف: لمَ تظن ذلك؟

أجاب في ثقة: أتريدين إقناعي أن مهندسةً وابنة طبيب كبير وخطيبة سابقة لمعيد بكلية الهندسة تعمل «housekeeper» لمجرد أنها تحتاج إلى عمل يوفر لها مسكن؟ مالم تكن هاربةً من شيء ما؟!!

قالت بلهجة حاولت أن تجعلها عادية: أنا بالفعل بحاجة لعمل يوفر

لي المسكن وإن كنت لا تثق بي يمكنني الانسحاب من العمل.

تراجع في مقعده وهو يقول: إن كنتِ متورطةً في شيء ما فأخبريني ربما استطعت المساعدة، ولكني لا أريد أي مشاكل هنا.

قالت فى توتر: لا شيء؛ فقط لدي بعض المشاكل الخاصة واحتجت للابتعاد.

تفرس في وجهها لحظات كأنما يحاول سبر غورها قبل أن يشير لها بالانصراف.

فرت من أمامه كظبية تفر من سهام الصياد.. يُربكها دائمًا بحضوره الطاغي وأسئلته المتشككة، تشعر بعينيه تخترق داخلها تنبش ماضيها، يتجول فى أروقة نفسها كمحققٍ بارعٍ يبحث عن أدلة إدانتها، تحترق أعصابها لتحمى سرها أمامه، ولكن إلى متى يمكنها ستر سرها؟

***

لساعاتٍ ظل يراقبها ويتابع حركتها داخل قصره، راقه كثيرًا ذلك الانسجام بينها وبين العاملين في القصر كما راقه عنايتها بالحيوانات وذلك التناغم بينها وبين حيواناته الأثيرة عنده.. تلك المرأة تثير حيرته، يحيط بها الغموض، لا يمكنه أن يُكون رأيًا عنها، تبدو أمامه مثاليةً في كل شيء، ولكنه يشعر أنها تخفي عنه أمرًا عظيمًا، يثق أنها هاربة من شيء ما.. لم تخنه فراسته يومًا ولكنه حتى الآن عاجز عن كشف أي شيء، أكثر ما يحنقه أن الوقت ليس في صالحه فموعد التسليم قد اقترب وهو لم يحدد بعد هل تصلح هي لمهمته أم لا؟

***

«ليس هناك من يصلح لأداء المهمة سواك».. تذكر«خالد» تلك العبارة التي بدأ بها كل شيء.. والتي جعلته لا يقهره شيء حتى قهرته هي.. تلك التي سلمها قلبه ووضع فيها ثقته.. تلك التي دهست قلبه تحت قدميها وخانت ثقته، سيجعلها تدفع ثمن خيانتها غاليًا، سيجعلها تندم على تلك اللحظة التي نفذت فيها جريمتها، هو لا يترك ثأره أبدًا، رغم قلبه الذي لازالت تتربع على عرشه.. لكن انتقامه منها سيكون مختلفًا، جذب إحدى زهور الياسمين التي يملأ بها غرفته، تنسم أريجها بعمق وهو يتمتم: كم اشتقت إليكِ ياسمينتي؟ سنلتقي قريبًا.. قالها وهو يُلقى بالزهرة المسكينة تحت حذائه ويسحقها سحقًا.

***

خرج «علاء» من مكتب «عاصم» بعد أن سلمه إيراد المزرعة، كان يشعر ببهجة لأنه طلب منه أن يُحضر عاملاً من المزرعة ليقوم بتهذيب حديقة القصر ولكن تحت إشرافه هو.. أي أنه سيأتي إلى القصر بانتظام حتى لو على فترات متباعدة، لا يدري لمَ أبهجه هذا الأمر، ألأنَّ هذا سيجعله يراها ويتحدث معها.. يشعر بانجذابٍ شديدٍ نحوها، لا يدري ما الذي جذبه إليها أهو حياؤها أم قوتها؟ أهو غموضها أم صراحتها؟ أهي رقتها الفطرية أم صلابتها؟ يشعر بالبهجة كلما وقعت عيناه عليها.. حوارها القصير معه في حضور «عاصم» أربكه كأنما يتحدث إلى امرأة لأول مرة في حياته.. يبدو أنه على وشك أن يجد ماظل يبحث عنه لسنواتٍ طويلة.

***

جلس «عاصم» في مكتبه، يتأمل الأشجار المواجهة لشرفة مكتبه، استقرت عيناه على شجرة الياسمين، التي ذكرته بها فالتفت نحوها وهو

يشير لها بالجلوس، جلست مرتبكة تفرك كفيها في توتر، تراجع في مقعده وهو يتفحصها في إمعان، طال صمته حتى احترقت أعصابها ولكنها التزمت الصمت حتى قال في بطء: هل تجيدين لغات؟

- أجيد الإنجليزية وقليل من الفرنسية درستها في الثانوية.

- قصى عليَّ تاريخك منذ ولادتك.

همت أن تصرخ في وجهه ليكف عن استجوابها طيلة الوقت، تمنت لو كان بمقدورها ترك هذا العمل الذي يستنفذ أعصابها، ولكنها تدرك استحالة ذلك في الوقت الراهن، فقالت في توتر: توفيت والدتي وأنا صغيرة، رفض أبى الزواج بعد وفاتها وتفرغ لتربيتي أنا وأخي الذي يصغرني بعامين والذي سافر للخارج عقب وفاة أبي رحمه الله.. وليس لي أقارب سوى أخوالي الذين يعيشون بإيطاليا.

- ما الذي حدث لمسكنكم؟

- لقد باعه أخي قبل سفره ليحصل على تكاليف السفر.

هتف فى استنكار: وأنتِ؟ ألم يفكر أين ستعيشين؟ أم أنه كان باسمه؟

- كلا لقد استأذنني وأنا وافقت، فقد كنت أعيش في بيت زوجي قبل طلاقي.

اتسعت عيناه في دهشة، لم يتخيلها امرأة رجل من قبل، فقال في فضول: هل لي أن أعرف أسباب الطلاق؟

أجابته في تحفظ: لم نتوافق مع بعضنا البعض.

- هل يحاول الرجوع إليكِ؟

أومأت برأسها إيجابًا، فتابع هو: لذا أردتِ أن تبتعدي عن ضغوطه

حتى تتخذي قرارك بحرية؟

تمتمت في إرهاق: تقريبًا.

أشار لها بالانصراف حين علا رنين الهاتف.. التقط سماعة هاتفه وهو يستمع لـ «حمدي» الذي راح يدلى ببيانات تفصيلية عنها وعن أسرتها تطابقت مع ما أخبرته هي به منذ قليل وإن أضاف إليها ثناء الجيران عليها وعلى أسرتها وإشادتهم بأخلاقها، كما أخبره عن خلو صحيفتها من أى سابقة جنائية.

***

كانت الشمس قد مالت للمغيب حين خرج يتجول في حديقته، طاف على حيواناته وقد راقه تلك العناية البالغة التي يلقونها، جلس في تكعيبته المفضلة، استرخى على تلك الأرجوحة الخشبية..أغمض عينيه للحظات يحاول أن يستجلب شيئًا من الراحة المفقودة في حياته، يأمل أن تنتهى أيامه الصعبة ولكن يبدو أنها بلا نهاية..فها هو على أعتاب أصعب أيام حياته على الإطلاق.

حانت منه التفاتة نحو كوخها، كانت واقفةً تتنسم هواء الليل العليل.. تفتح ذراعيها للهواء كأنما هي طائر صغير يحاول الطيران، اقترب منها «أحمد» وهو يحمل في يده شيئًا لم يتبينه، جثت على ركبتيها بجواره ثم امتدت يدها تربت على رأسه لينطلق الصبى في سعادة.. استوقفه، فشحب وجه الصغير وهو يقترب منه في وجل.. ازداد هلعه حين طلب منه أن يرى ما بيده.. ارتعشت يد الصبى وهو يمدها بتلك الكراسة المتهالكة، كاد يسقط مغشيًّا عليه و«عاصم» يسأله: ما هذا؟

أجابه في خوف: الست «ياسمين» تعلمني القراءة والكتابة.

قال في دهشة: وهل وافق أبوك؟

أجاب الصبى في تردد: لقد رفض أبى في البداية ولكن الست «ياسمين» أقنعته بأن التعليم لن يعطلني عن العمل مثل المهندس «علاء»، فشهادته هي ما أهلته لتولي شؤون المزرعة بالكامل.

تغير وجه «عاصم» وامتلأت نفسه بضيق لا مبرر له وهو يطلب منه استدعاءها، أقبلت تمشي على استحياء، وقفت أمامه في تهذُّب تنتظر أوامره فصاح في حدة: ألا تأتين إلا عندما أطلبك؟! هذا هو العيب في أن تستخدم شخصًا يعمل لأول مرة.. لا يفهم حدود وظيفته.

قالت في حيرة: ما الذي قصرت فيه؟ هل طلبت منى شيئًا ولم أفعله؟

هتف في ضيق: أرأيتِ؟!! يجب أن أطلب.. المديرة الناجحة لا تنتظر أن يُطلب منها.. هي تعرف ما عليها فعله بالضبط.

شدت قامتها في اعتداد وهي ترد: إذا كنت ترى أنني غير كفؤ للعمل فإنني أتقدم إليك باستقالتي.

أشاح بيده قائلًا: هل ستتقدمين باستقالتك كلما وجهتُ إليكِ نقدًا.. لا تعجبني طريقة العمل تلك. صمت لحظةً ثم لانت لهجته وهو يتابع: سأسامحك لأنها المرة الأولى لكِ التي تقومين فيها بعملٍ كهذا.. هيا اطلبي من «حنفي» أن يُحضر لي العشاء هنا.

غابت للحظات ثم عادت برفقة «حنفي» الذي حمل طبقًا كبيرًا من الفاكهة وكوبًا من الحليب وضعه أمام «عاصم» باحترام، شكره بعبارات مقتضبة وهو يشير له بالانصراف ويأمرها بالجلوس، جلست على مضض

وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة.

قال في اهتمام: هل تحبين القراءة؟

أومأت برأسها إيجابًا في دهشة، جال برأسها عشرات الخواطر التي أثارت قلقها، ربما أغضبه أن يدها امتدت إلى مكتبته بدون إذن منه، تعلم أنها أخطأت لأنها لم تستأذنه ولكنها تضعف أمام الكتب.. فالكتاب رفيقها الوحيد الذي لم يخذلها، هو أنيس وحدتها الذي تفضى إليه بمكنون نفسها ومشاعرها وتفرغ فيه شحنات غضبها وخوفها وقلقها وتجده في النهاية يحتويها ويحنو عليها ويربت على جراح روحها، انتزعها من خواطرها وهو يقول: لمن تحبين أن تقرأي؟

لم تجد مبررًا منطقيًا لاهتمامه بكُتابها المفضلين فأجابت في توتر: أحب القراءة للكثيرين في مجالاتٍ عدة.

عاد يسأل في اهتمام: تفضلين الأدب العربي أم الغربي؟

خفتت حدة توترها وهي تجيب: اللغة العربية لغة ساحرة وأدباؤها متميزون بالطبع، وهناك أيضًا كُتاب غربيون رائعون مثل تولستوي وشكسبير و دستوفسكي ورائعته الإخوة كرامازوف.

قال في ألم: هل هذه أكثر ما أعجبك؟

همست في حذر: ألا تعجبك؟

تمتم في مرارة: كيف وأنا أحد أبطالها!! صمت لحظةً ثم اعتدل وهو يقول في اهتمام أكبر: والقرآن؟ هل تحفظين منه شيئًا؟

تصارعت عشرات الأسئلة في عقلها وهي تومئ برأسها إيجابًا فتابع في سرعة: كم تحفظين؟

- لم كل هذه الأسئلة؟

قال في صرامة مرعبة: أجيبي على أسئلتي عندما أسألك.

انتفضت في توتر وهي تتظاهر بالتماسك: أحفظ عدة أجزاء من القرآن.

تراجع في مقعده، شبك كفيه أمام وجهه قائلًا في ارتياح: جيد.. غدًا لدينا ضيوف.. أريد أفضل ضيافة وترحيب.

أشار لها بالانصراف، فانصرفت تحمد الله و تتنفس الصعداء أنها أفلتت من جلسة الاستجواب هذه.

***

هل تستجوبني؟! صاح الضابط المسؤول عن البعثة بتلك العبارة في استنكار ولكنَّ «خالدًا» استقبل صياحه بمزيج من المكر والسخرية وهو يقول في استخفاف: لست أدري لم أثارك سؤالي إلى هذا الحد؟ لم أسأل سؤالًا مُحرِجًا.. كل ما أريد معرفته هو من رشحني لهذه الدورة التدريبية؟ صمت لحظةً ثم تابع بلهجةٍ ذات مغزى: حتى أقوم بشكره كما ينبغي.

قال الضابط في صرامة وهو يغادر: لا وقت لدي فالتدريب سيبدأ بعد قليل، استعد لقفز الحواجز..

تابعه «خالد» بعيني ذئب، غمغم في مكر: ثق بأنني سأتخطى كل الحواجز.

الفصل الثالث

على أعتاب الفجر وقفت تصلى في خشوع، لحظات تخطفها من فكى الزمن تحيى موات روحها، تحس بالنقاء والصفاء، تشعر أنها قد تحررت من أغلالها كعصفور طليق تحرر من سجنه للتو،تعشق وقت الفجر.. يأتى بعد أن تموت الحياة ويغشاها الظلام فينفخ فيها الروح، للفجر رائحة شهية.. رائحة الأمل، على سجادة صلاتها انهمرت دموعها، وارتفعت دعواتها إلى السماء تسأل الله أن يفرج كربها وينقذها مما هي فيه، وقفت في الحديقة تتنفس بعمق هواءها المنعش، اتجهت نحو المطبخ، راحت تحدد مع «حنفي» الأطباق الرئيسة للغداء ثم اصطحبت أحلام لتنظيف البهو وترتيبه استعدادًا لاستقبال الضيوف.. ما إن دقت الساعة الثامنة حتى همست: ألن نوقظ البك؟

أجابتها «أحلام» ضاحكةً: لقد خرج باكرًا فهذه عادته، يمتطي حصانه مع نسمات الصباح الأولى ويطوف به على المزرعة.

قالت في مرح متوتر: سيأتي الآن يوبخني ويقول أنني لا أقوم بعملي جيدًا حيث استيقظ قبلي ولم يجد إفطاره معدًّا.

همت «أحلام» بالرد ولكن الجواب أتى على لسان «عاصم» الذى دخل

مجال رؤيتها قائلًا: أليس هذا صحيحًا؟

كتمت «أحلام» صرخة فزع كادت تفلت من بين شفتيها بينما امتقع وجهها وهي تجيب في سرعة: صباح الخير.. سيكون الإفطار جاهزًا في غضون دقائق قليلة.

قال وهو يتجه إلى حجرة مكتبه: لقد تناولت إفطاري في المزرعة.. استعدوا لاستقبال الضيوف فهم على وصول.

انتهت «ياسمين» و«أحلام» من ترتيب البهو وتنسيقه، أضفت الزهور التي جمعتها ووضعتها في مزهرية من الكريستال بهجةً عليه، نثرت الزهور أريجها داخله فبعثت شيئًا من الراحة إلى جنبات المكان وتسلل شيء يسير منها إلى نفوسهم المرهقة.

***

أشارت عقارب الساعة إلى الحادية عشرة حين عبرت سيارة رياضية صغيرة بوابة القصر الخارجية، تقودها شابة صغيرة لا تتجاوز العشرين من عمرها، جلست إلى جوارها سيدة أنيقة يصعب تمييز سنها.. تعجبت من جرأة الفتاة التى قفزت من سيارتها وتعلقت بعنق «عاصم» الذي احتواها في حب وهي تغمر وجهه بالقبلات.. اصطحبهم للداخل، تبعتهم فى صمت وتساؤلات عدة تدور داخلها حول هوية ضيوفه وعلاقته بهم.. انتظرت حتى استقر بهم المقام، أشارت لأحلام بوضع ثلاثة أكواب من عصير البرتقال بناءً على طلبه، وقفت ترحب بهم، بادلتها السيدة الترحيب بذوقٍ عال بينما لم تلتفت لها الشابة الصغيرة التي بدا أنها لا يشغلها سواه، وقد جلست على حافة كرسيه وأحاطت عنقه بذراعيها في حين منحها هو اهتمامه الكامل.. أثار الأمر

فضولها فانتظرت حتى اختلت بـ «أحلام» التي نزلت لتوها من الأعلى بعد أن وضعت الحقائب في غرفهم المعدة سلفًا، لتسألها عن هوية الفتاة؟

أجابتها «أحلام»: إنها الآنسة «سارة» والسيدة الأكبر سنًا هى السيدة «جيهان».. لا أحد يدري على وجه الدقة طبيعة علاقتهما بالبك، ولكن ما أعرفه أنهما بغاية الأهمية لديه.. أعتقد أن الفتاة الشابة خطيبته.

شعرت بشيء من الضيق حين تذكرت عناق الفتاة وقبلاتها لوجهه ثم عادت إلى عملها وهي تعنف نفسها على رغبتها الدائمة في فهم كل ما يدور حولها.

تابعتها «جيهان» ببصرها لحظات حتى غابت عن عينيها، يُدهشها حاجة«عاصم» لمساعدته في تقييمها، تعلم مدى خطورة المهمة، وتعرف جيدًا كيف يعربد القلق بداخله في حال فشله، فالفشل في هذه المهمة يساوي روحه نفسها.

مالت عليه هامسة: هل ستخبر سارة؟ أم تفضل أن...

قطعت «سارة» حديثه وهي تقفز درجات السلم في مرح هاتفةً: ما الذي تخفونه عني هنا؟

تبادل نظرةً سريعةً مع «جيهان» قبل أن يقول في حسم: سأخبرك ولكن عديني أن يبقى سرًّا بيننا

قالت في مرح: سرك في بئر.

أجابها في مرح مماثل: أنا لا أثق في هذا.. فالبئر يسقي كل أهل القرية.

أطلقت ضحكةً عاليةً: اطمئن سأضعه في بئرٍ جاف.

بادلها الضحك وهو يصطحبها إلى مكتبه ليخبرها بسرِّه.

***

انتهى من كلامه فقالت «ساره» في قلق: ولكن الأمر خطير بحق،إن فشلت العملية فقد يلقون القبض عليك..ألا يوجد حل آخر؟

هز رأسه نفيًا فتابعت في حذر: و«ياسمين» هي من ستقوم بالتنفيذ؟

أومأ برأسه إيجابًا وهو يقول: بنًاء على رأيكم.

هتفت فى مرح: اطمئن سأضعها تحت المراقبة أربعًا وعشرين ساعة.. لا بل خمسًا وعشرين ساعة من أجلك.

قالتها وهي تطبع على وجنته قبلة سريعة قبل أن تقفز مغادرةً الحجرة.

***

وقفت أمام «عاصم» في ثبات تنتظر أوامره..علق بصره بوجهها لحظات قبل أن يقول في بطء: الغداء في الساعة الثانية.. ستقومين بملازمة مدام «جيهان» والآنسة «سارة» طوال فترة تواجدهم.. أريد أن يستمتعوا بإقامتهم هنا.

غلبها فضولها فقالت في سرعة: أهم أقاربك؟

قال في برود: لا تتدخلي فيما لا يعنيك.. ثم أشار لها بالانصراف.

انصرفت وداخلها يحترق حرجًا وغضبًا من نفسها لأن رغبتها الدائمة في فهم مايدور حولها وضعتها في هذا الموقف، سيقتلها هذا يومًا ما كما كاد يقتلها من قبل، كل ما تعانيه الآن هو بسبب فضولها، كان والدها يشجعها على فهم كل ما يحيط بها ويسعى دائمًا لإرضاء فضولها للمعرفة، بينما كان أخوها يتهمها دائمًا بالفضول، لم تكن يومًا شخصيةً فضوليةً

فيما لا يخصها فهي لم تتدخل يومًا في أمرٍ لا يعنيها، ولكنها دائمًا حريصة على فهم كل ما يدور حولها ويتقاطع مع حياتها، لم تكن تعلم أن فضولها سيتسبب في محنتها، وأن سعيها خلف المعرفة سيدمر حياتها، ولكن يبدو أن هذا قدر من خرج يبحثُ عن الحقيقة.. فإن قدره أن يبقى دائمًا في الطريق.

***

أشارت عقارب الساعة إلى الثانية إلا عشر دقائق عندما وضعت هي اللمسات الأخيرة على المائدة.. لم تكن ترغب في مواجهته، فطلبت من «حنفي» أن يطرق باب المكتب ليخبره أن الغداء جاهز بينما صعدت هي لتدعو الضيوف إلى المائدة، حين عادت أخبرها في عجالة أنه قد طرق باب المكتب عدة مرات ولكن يبدو أن البك ليس بالداخل.. رسمت على وجهها ابتسامة مهنية وهي تستقبل «جيهان» و«سارة» التي تلفتت حولها باحثةً عنه قبل أن تتجه نحو المكتب، فتحت الباب لتجده جالسًا في مقعده مولِّيًا ظهره للباب وهو يحدق في حديقة قصره في شرود، سارت على قدميها في خفة حتى وضعت يديها على كتفيه هاتفةً: فيم أنت شارد؟

التفت إليها قائلًا: هل يكون هناك قمر مثلك في البيت وأشرد في سواه؟!

انحنت بحركة مسرحية: أخجلتم تواضعنا.. ثم جذبته من يده وهي تستطرد: هيا فأنا أتضور جوعًا.

التفوا حول مائدة الطعام بينما تحاشت «ياسمين» النظر إليه وهي تنسحب بهدوء.

على سلم القصر الخارجى اتكأت على أحد أعمدة مدخل القصر الرخامية

ورغمًا عنها سالت الدموع من عينيها وهي تتحسر على نفسها وما آل إليه حالها، ها هي تقف بجوار المائدة تنتظر أوامر سادتها، كلماته القاطعة التي ذكرتها بأنها لا تعدو خادمةً في قصره،ألجمتها بلجام القهر، دموعها تساقطت داخلها بطعم المر، لمحها «أحمد» فأسرع يسألها عما يبكيها، كفكفت دمعها في سرعة وهي تلتفت إليه قائلةً بصوتٍ تفوح منه رائحة بكائها: هل أنهيت واجباتك؟

أومأ الصغير برأسه إيجابًا وهو يحتضنها في حب: لم كنتِ تبكين؟ أنا أحبك كثيرًا ولا أريد أن أراكِ حزينةً.

احتضنته هامسةً بصوتٍ مبحوح: أنا أيضًا أحبك كثيرًا و..

بتر عبارتها صوت «عاصم» الذي ارتفع قائلًا: ما شاء الله.. أنا أدفع لكِ مرتبك حتى تجلسي هنا لتلاعبي «سي أحمد».

رفعت إليه عينين مبللتين بالدموع، سارعت لمحوها بيديها، بحثت عن نبرة قوية تخفى بها أثر البكاء في صوتها فقالت في حدة: أنا أجلس هنا حتى ينتهى الغداء ثم أدخل لأقوم بعملي الذي أتقاضى راتبًا من أجله.

لانت ملامحه عندما رآها باكية سائلًا فى خفوت عن سبب بكائها.

لم تجب؛ وإنما أطرقت برأسها أرضًا وهي تمسح وجهها بيديها، فقال في سرعة: يمكنك الذهاب إلى حجرتك.

- أنا بخير؛ وسأقوم بعملي حتى أستحق راتبي.

أنهى الحوار في صرامة: أوامري تنفذ بدون نقاش.. اذهبي إلى حجرتك وسأنتظرك في مكتبي بعد ساعة.

***

ألقى بنفسه على أول مقعد صادفه وهو يزفر في توتر جعل «جيهان» تسأله عما يسوؤه.

أجابها فى ضيق: كانت تبكي.

همست في عطف: تبدو من عائلة محترمة، ويبدو أن عملها هنا يحز في نفسها، كما أنك تعاملها بشدة.

قال في توتر: أريد أن أرى مدى قدرتها على الاحتمال.. المهمة المطلوبة منها ليست سهلةً على الإطلاق.

ربتت على كتفه وهي تقول: اطمئن سيكون كل شيء على ما يرام.

أطلق تنهيدةً حارةً وقد أصبح هذا منتهى أمله، أن يكون كل شيء على ما يرام، يشعر بنفسه كمن أشرف على الموت عطشًا في الصحراء وهو يتبع السراب، يبدو أن الأحلام في أيام جفافه لن تلد إلا سرابًا.

***

جلست «جيهان» في الحديقة، استرخت في تكعيبة «عاصم» تنتظر قدوم «ياسمين» بعد أن أرسلت في طلبها.

أشارت لــها بالجلوس جوارها،وقفت بارتباك فجذبتها من يدها قائلةً: «عاصم» أخبرني أنكِ كنتِ تبكين.. هل أغضبناكِ في شيء؟

هزت رأسها نفيًا فتابعت فى حذر: ما الذي دفعكِ للعمل هنا؟ لمَ لم تبحثي عن عملٍ يناسب شهادتك؟

- ظروف.

- هل بإمكاني معرفتها؟

- كنت متزوجةً وحصلت على الطلاق بأعجوبة ولم يكن لدى مسكن بعد طلاقي.

- هل يحاول الرجوع إليكِ رغمًا عنك؟

أومأت برأسها إيجابًا، بدا أنها ستلتزم الصمت قبل أن تتمتم: كل أملى أن يتركني وشأني.

- أليس لكِ أقارب؟

تنهدت في شوق وهي تجيب: لي خالان يعيشان في إيطاليا منذ ثلاثين عامًا.

سألتها في حذر: ولمَ لم تفكري بالسفر إليهما؟

تنهدت في مرارة: منذ بيعت شقتنا وقد انقطعت أخبارهم عني، آخر ما أعرفه أنهما كانا يعتزمان أخذ فيلا جديدة.. ولا أعرف عنوانها كما أنى لا أملك المال اللازم للسفر.. وأخي منذ سفره إليهم لم أتلق منه أية خطابات وأغلب الظن عندي أنه كان يرسلها ولكنها لم تكن تصل إليّ.

هتفت فى استنكار: هل كان زوجك يمنع عنك رسائله؟ كان يحاصرك إذن؟!

-أعتقد ذلك.

- أليس لدى أخوالك أولاد؟ ألم يفكر أحد منهم في زيارة مصر؟

تنهدت في حزن: خالي «حسام» لم يتزوج، كان يحب سيدةً هنا قبل سفره وكانت من عائلة ثرية للغاية ورفضه أهلُها وقاموا بتزويجها لأحد أقاربها، لم يحتمل أن يتواجد معها في بلد واحد دون أن يراها وقد وعدها أن لا يحاول رؤيتها ثانية، أما خالي الأصغر فهو من تزوج وأنجب ولكن

أخبارهم انقطعت عني تمامًا.

توترت عضلات وجهها، همست فى خفوت: ما اسم والدتك؟

تطلعت اليها «ياسمين» في دهشة، فتابعت «جيهان» في ارتباك: كان لي صديقة منذ زمن بعيد تشبهك كثيرًا.. هل كان اسمها «عفاف»؟

تطلعت اليها «ياسمين» بدهشة أكبر قائلةً: صحيح! عفاف سليمان المنشاوي.

نزل الاسم على «جيهان» كالصاعقة رغم توقعها له نظريًّا، هتفت «ياسمين» في أمل: كنتِ تعرفينها؟

أجابتها في شرود: تمام المعرفة.. كانت صديقةً وفية، وأختًا ممتازة.

همست في سرور: شكرًا لكِ!

وقفت «جيهان» في ضعف، شعرت بأن قدميها ما عادتا تقويان على حملها، دب الوهن فى جسدها كدبيب جيش من النمل، استندت إلى ذراع «ياسمين» قبل أن تسقط مغشيًّا عليها.

هتفت «ياسمين» باسمها في ذعر وانطلقت تنادي كل من بالقصر.. كان هو أسبقهم، انحني نحوها متفحصًا إياها في لهفة حقيقية وهو يهتف في قلق: ماذا حدث؟

أجابته في توتر: لست أدرى كنا نتحدث، ثم فقدت وعيها فجأة.. لم تتم جملتها حتى كان يحمل «جيهان» وينطلق بها صوب القصر.

وضعها في فراشها برفق وهو يقول في لهجة آمرة: سأستدعي طبيبًا.. ابقِ بجوارها.

لم يبدو عليها أنها قد سمعته وهي تتجاوزه بسرعة لتجمع عدة

وسائد رفعت عليها ساقيها ثم راحت تضغط على صدرها بكل قوة، صاح بها في حدة: ماذا تفعلين؟

أجابته دون أن تنظر إليه: أساعدها على الإفاقة..

لم تكد تنهى عبارتها حتى تأوهت «جيهان»، انكب عليها في لهفة ومودة هامسًا: هل أنتِ بخير؟

أسرعت «ياسمين» تحضر كوبًا من عصير الليمون في حين همست «جيهان» في ضعف: إنها رائعة.. لا تفرط فيها.

ربت على كفها في حنان قائلًا: استريحي الآن.. صحتك أهم.

عادت «ياسمين» حاملةً كوب العصير، التقطه منها وهو يشير لها بالانصراف، راح يساعد «جيهان» على ارتشاف بعضًا منه.

اعتدلت «جيهان» في فراشها وهي تقول بصوتٍ خفيض: أنا أعرف أهلها جيدًا إنها من عائلة محترمة، فوالدتها رحمها الله كانت من أعز صديقاتي، وهي تشبه والدتها كثيرًا، ومافهمته منها أنها لا تملك المال اللازم للسفر، كما أنها قد حصلت على الطلاق بأعجوبة وتريد الابتعاد عن زوجها السابق بأي وسيلة حتى ينسى أمرها ويبتعد عنها.

شرد للحظات وهو يفيق على صوت «سارة» الملهوفة على والدتها واعتراضها على إصرارها على الرحيل.. شاركها اعتراضها فقالت «جيهان» في هدوء: «فريدة» ستذهب لشراء الفيلا الجديدة غدًا، وإن لم أذهب معها ستقلب الدنيا رأسًا على عقب، ولا ينبغي أن تعلم أننا كنا هنا.

هزت «سارة» رأسها موافقةً ثم التفتت إلى «عاصم» قائلة: ماذا ستفعل؟

أجابها في حيرة: «جيهان» طمأنتني من ناحيتها ولكن أخشى ألا توافق.

قالت «سارة» في حماسة: اجعلها تحبك.. فالمرأة عندما تحب قد تضحي بنفسها من أجل حبيبها وأنت وسيم وجذاب للغاية كما..

قاطعتها «جيهان» في غضب: هل جننتِ؟ هل ترضين بأن يستغل أحد مشاعرك لأجل مصلحته؟

تمتمت «سارة» في حرج: لم أكن أقصد.. كنت فقط..

قاطعتها «جيهان» في صرامة وهي تلتفت إليه: من الواضح أنها قد تعرضت لأذى كبير من زوجها السابق، كما أن الطرق الملتوية لا تؤدى لنتائج طيبة.. فما يدريك أنها لن تنتقم منك بعد أن تكتشف خدعتك؟!

قال «عاصم» في سرعة: سارةكانت تمزح فحسب..وهذه ليست أخلاقي، كما أنها ليست من هذا النوع أبدًا.

تنهدت «جيهان» في ارتياح طالبةً منه إرسالها لتتحدث معها قبل رحيلها.

***

لم تمض دقائق حتى ارتفعت طرقاتها الهادئة على باب الغرفة، أذنت لها «جيهان» بالدخول، أشارت لها بالاقتراب ثم احتضنتها في حنان بالغ، أرسلتها وهي تقول في ود: أنتِ من الآن في منزلة ابنتي.. إذا احتجت لشيء فأنا بجوارك.

تمتمت بعبارات الشكر، ساد الصمت لحظات قبل أن تقطعه «ياسمين» في تردد: أيمكنني أن أعرف ما هي صلة القرابة بينك وبين «عاصم» بك؟

- أنا زوجة أبيه.

علت الدهشة وجه «ياسمين» فتابعت «جيهان»: وأحبه كابن لي.. و«سارة» أخته الصغرى.

هزت «ياسمين» كتفيها و إن بدا على قسماتها الراحة فتابعت «جيهان»: «عاصم» رجل رائع رغم أنه يمر بفترة عصيبة من حياته إلا أنه رجلٌ بحق.. صمتت لحظةً ثم ربتت على كتفها قائلةً: لا أريدك أن تكوني مستاءةً من عملك هنا فهو الأنسب لظروفك الحالية، كما أنكِ هنا سيدة المنزل و«عاصم» لا يتواجد هنا كثيراً، والعاملون هنا طيبون، وأرى أنك قد تآلفتِ معهم بسرعة.

هزت «ياسمين» رأسها موافقة فتابعت «جيهان»: وتذكري أني سأكون دائماً بجوارك.

شكرتها في حرارة وهي تنصرف وقد شعرت أنها قد حصلت على داعمٍ حقيقي منذ وفاة الرجل الذي كان أمانَها بعد وفاة والدها ورحيل أخيها، «عبد الحكيم بك» الذي أنقذها من السجن، هو نفسه الرجل الذي دفع حياته ثمن هروبها.

***

وقفت بجواره تودعهم، احتضنتها «جيهان» بمودة شديدة، وصافحتها «سارة» في حرارة، ظلا واقفين حتي غابت السيارة عن عيونهم، جلس فى تكعيبته، أحضرت له فنجاناً من القهوة ثم وقفت تنتظر أوامره، أشار لها بالجلوس، فجلست على كرسي من الخوص، أدارته قليلاً حتى لا تكون في مواجهته، ظلت صامتةً مطرقةً أرضًا، سدد إليها نظراتٍ قوية وهو يقول ببطء: هل كان زواجك عن حب؟

انتفضت مكانها لحظات وعقد الخجل لسانها فتابع في حزم: أخبرتك من قبل أنني أحب دائمًا أن أتلقى إجابات عن أسئلتي.

تمنت لو صرخت في وجهه وطلبت منه عدم استجوابها طوال الوقت كمتهمة.. تمنت لو أبعدته عن طريقها وطلبت منه عدم التدخل في شؤونها ولكنها عادت أمام نظرته الصارمة ولهجته الآمرة تجيب في استسلام: كان زواجًا عاديًّا.. تقدم لخطبتي ثلاث مرات رغم رفضي المتكرر له، سلك كل السبل وفعل كل شيء حتى حصل عليّ.

- ولم تركته وهو من الواضح أنه كان يحبك كثيرًا، وأنتِ تبدين سيدةً محترمةً ومن عائلة، كما أنكِ شخصية مرنة فكيف وصلتما للطلاق؟

اشتعلت مقلتيها بغضب مكتوم وندت المرارة من صوتها وهي تقول: عندما يتحول أقرب الناس إليك إلى ألد أعدائك فلا يمكنك الاستمرار.

قال في حذر: كيف؟

أشاحت بوجهها في قهر وهي تجيب: لا أحب الحديث عن ماضٍ ألقيت به خلف ظهري.

ساءه ألا ترضى فضوله ولكنه لم يشأ أن يضغط عليها أكثر فقد بدا من المرارة التي رافقت كلماتها أن الحديث عن الأمر يؤلمها، فقال سالكًا بالحديث منحًى مغايرًا: لقد اعتدت أن أقيم حفلًا سنويًا هنا.. وأريدك أن تقومي بالإعداد له بشكلٍ جيد.

توترت عضلات وجهها، لم يخف عليه توترها فقال بصورة مباغتة: تخشين أن يراكِ أحد من معارفه فيصل إليكِ؟

تطلعت إليه في ذهول، لم تظن أنه قادر على قراءة أفكارها إلى هذا الحد، أطرقت برأسها أرضًا في ارتباك، فتابع بهدوء: يمكنكِ الإعداد للحفل دون الظهور فيه.

نظرت إليه في امتنان وهي تتمتم بعبارات الشكر، استقبل نظرتها بنظرة طويلة وهو يقول في غموض: يعنيني أمانك وراحتك.

شعرت بالحرج إزاء نظراته القوية فخفضت عيناها أرضًا وهي تستأذن في الانصراف.

تابعها ببصره حتى اختفت عن ناظريه، يعقد عليها آمالًا كبيرةً ويخشى من خذلانها، لم يسبق له أن اعتمد على أحد في شيء يتعلق به، يرى أن الاعتماد على الآخرين ضعف، ولكنه هذه المرة مضطر، فلا وقت لديه.. إما أن ينجح وإما أن ينتهي إلى الأبد.

الفصل الرابع

رقد عاصم في فراشه، عشرات الأفكار تتدافع داخل عقله، يحاصره ماضيه، يسعى للهروب للأمام لكن ذكرياته تجذبه إلى هوة سحيقة، مشاهد عدة تنساب إلى رأسه، توقفت كلها عندما احتلت صورة «رستم باشا» رأسه، ولمَ لا! فهو سبب مأساته ومصدر تعاسته.. «جده» الذي أذاقه ألوان العذاب وحاربه بكل الطرق وأغلق أمامه كل المنافذ.. «جده» الذي حمَّله خطيئةً لم يرتكبها، حمَّله ذنب خروج ابنه عن سلطته ووقوعه في الحب دون إرادته، فجده لم يكن رجلًا عاديًا لقد كوَّن ثروته بنفسه فتحول من ابن تاجر قماش بسيط إلى أحد كبار الأثرياء، ولم يكتفِ بذلك بل كافح حتى حصل على لقب «بك»، ولكن هذا لم يكن كافيًا بالنسبة له حتى ينخرط في الطبقة المخملية ويصبح أحد أفرادها فارتبط بابنة أحد الباشوات وضم ثروتها إلى ثروته وعمل على توسيع رقعة أملاكه حتى حصل على لقب «باشا» وأنجبت له ابنه الوحيد «أكرم بك» الذي تعرف على والدته المرضة حين أتت برفقة الطبيب لعلاج «جدته» التي لمست بنفسها رقي أخلاق المرأة التي خلبت لب وحيدها فوافقت على زواجه منها وطلبت منه أن ينتظر حتى تسترد عافيتها وتتمكن من مؤازرته أمام «رستم باشا»

ولكن القدر لم يمهلها.. حزن الجميع لأجلها كثيراً، وانطلقت الأيام تطوى الجميع، وعاد أبوه يسعى للزواج من محبوبته التي رفضت الزواج منه لفارق المستوى بينهما ومعرفتها أن «رستم باشا» لن يقبل بزيجةٍ كهذه، ولكن إصرار أبيه جعلها ترضخ في النهاية، ليقيم لها حفل زفاف بسيط وسط أهلها وأهل حيها، أسكنها بشقة كبيرة في وسط البلد وعاشا معًا في سعادة كانت نتيجتها «هو»، جاء بعد عامين كاملين من زواجهما.. عندما وضعته والدته كاد أبوه يطير من الفرحة خاصةً أن صغيره قد جاء قريب الشبه بأبيه «رستم باشا»، وذهب إلى والده على جناح السرعة ليخبره بأمر مولوده، لكن «رستم باشا» كان رجلًا بلا قلب.. لا شيء يقف أمام رغباته، فثار على ابنه وأنكر نسب حفيده وأصر على طلاق ابنه من زوجته وأن يعتبر زواجه منها نزوة، وقام بتزويجه من «جيهان» ابنة عمه وهدده أنه إذا لم يمتثل لأوامره فستكون عاقبة أمره خسرا.. كان قلق والده عليه وعلى زوجته كبيراً، فهو خير من يعرف «رستم باشا» فقام بنقل زوجته وطفله إلى شقة أخرى، وأخبرها أنه سيمتنع عن زيارتها حتى يجد حلًّا ويستطيع حمايتهم من بطش والده، غاب لمدة طويلة، تحملتها والدته بصبر، تزوج أبوه فيها من «جيهان» وأنجب «آسر» و «فريدة» في وقت قصير، حاول والده أن يستعطف «رستم» باشا ليسمح بتربيته مع إخوته داخل القصر، ولكنه رفض انضمام حفيده إلى أسرته رفضًا قاطعًا وقال إن أقصى ما يمكنه السماح به هو أن يقبله كخادم في قصره.. وعاد يهدد ابنه أنه لو اكتشف أنه لازال على علاقة بأسرته الصغيرة فسيمحو هذا الخطأ من الوجود،كان يعتبر وجود حفيدٍ له من امرأة بسيطة مجرد خطأ، كان أبوه

يأتي إليهم خلسة.. وفي بعض الأحيان كان يأتي متنكرًا، فقد كان يخشى عليهم بشدة من بطش «رستم باشا»، كانت لحظات وجوده معهم هي ما يمد أمه بالصبر على فراقه لشهورٍ طويلة، هو أيضًا كان ينتظر قدومه إليهم، فقد كان يأتي محملاً بالهدايا واللعب، كان يلاعبه ويضمه ويمنحه حبًا وحنانًا يكفيه لسنوات، وجوده كان يضفى على البيت البهجة، أمه تستعيد بريقها والبيت تعود إليه الحياة، كان كالمطر يمر على الأرض الجدباء فيحييها.. كان يعشق زوجته، يرى ذلك في عينيه ويرى سعادة أمه بنظراته العاشقة ولمساته المحبة وكلماته الحنونة.. فيهون ذلك عليه فراقه حتى مرض والده وكاد شوقه إلى زوجته يقتله، فثار على «رستم باشا» وقال له إنه يفضل الموت بجوارها على الحياة معه، لا زال يذكر ذلك اليوم الذي اختلطت فرحة أمه بحضوره إليها بذعرها من الشحوب الذي بدا واضحًا عليه، قامت على خدمته خير قيام وضحت في سبيل شفائه بالغالي والنفيس، حتى لم يعد لديهم شيء يُذكر.. ثم ذهبت لـ «رستم» باشا تتوسل إليه أن يساعدها في علاجه وألا يسلمه للموت، لكنه صمم أن يأتيه ابنه راكعًا متذللاً حتى يصفح عنه، عادت إلى زوجها تطلب منه العودة إلى أبيه، فرفض بشدة وأخبرها أنه يفضل الموت بجوارها على أن يحيا بعيدًا عنها، ولقد نال ما تمنى فقد انتقل إلى جوار ربه بعد أيامٍ قليلة، ليترك أرملةً كسيرة الفؤاد ويتيمًا سيواجه غضب «جده» وحده، فقد حمَّلهم «رستم باشا» مسئولية وفاته، واتهمهم بأنهم السبب في حرمانه من ابنه الوحيد وحرمان أحفاده من أبيهم، ولم يكتف برميهم بهذا الاتهام الظالم بل حاربهم بكل الطرق، وازداد الأمر سوءًا حين أراد حرمان والدته

من ابنها وحرمانه منها، فأخذه إلى قصره، وهناك رأي كيف يرتعد الجميع أمامه،لكنه كان مختلفًا فلم يخش بأسه، بل وقف أمامه وتحدي سلطانه، فرفع «رستم باشا» يده ليصفعه ولكنه أوقف يده في منتصف الطريق، رغم أنه لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره بعد، وترك قصره وعاد إلى أمه التي كادت تسقط مغشيًا عليها من الفرحة والخوف في آنٍ واحد، ولم ينس له «رستم باشا» ذلك.. بل زاد من عداوته له وحافظ على تلك العداوة ورعاها وروى شجرتها حتى أتت بثمارها في قلوب إخوته فحصد كراهيتهم له، ولكن وسط هذا الظلام الدامس كان هناك شعاع من النور.. «جيهان» التي مدت يد المساعدة إلى والدته ووقفت بجوارهما، كانت تترك لأمه الكثير من المال في كل مرة تزورهما فيها ولم تكف عن مساعدتها رغم أنها من المفروض أنها «ضرتها»، المرة الوحيدة التي تحدثت فيها قالت: إن هذا حقهما في مال «أكرم» وهي لن تساعد في ظلمهما.. ووعدتهما أنها ستقف بجوارهما ولقد برت بوعدها وساعدته على دخول الكلية ودفعت مصاريفها كاملة، وعندما كانت تخشى من كشف «رستم باشا» لأمرها كانت ترسل إحدى قريباتها، وفرت له فرصة عمل في شركة لدى أحد معارفها، وهناك تعلم الكثير عن سوق العمل وحاز ثقة صاحب الشركة في أشهرٍ قليلة.. ولكن نجاحه في العمل وصل إلى «جده» الذي هاج وماج وجعل صاحب الشركة يقيله من عمله، ولم يكتف بذلك بل قام بحبس «جيهان» في قصره ولم يسمح لها بالخروج عقابًا لها على مساعدتها له، يذكر كم كانت تلك فترةً صعبةً في حياته فقد كان مرض والدته الذي ألّمَ بها في الفترة الأخيرة يلتهم كل مدخراته، حار في البحث عن عمل في أي

شركة أخرى ولكن «رستم باشا» بنفوذه الواسع أغلق في وجهه كل الأبواب..فعمل في كل شيء حتى وصل به الحال أن عمل كعامل في مجال البناء..كان يحمل الرمل والإسمنت على كتفيه ويصعد بهما الأدوار المرتفعة، توفيت والدته ليجد نفسه وحيدًا بلا أهل ولا عائلة فلم يكن لديه إلا بضعة أقارب من طرف والدته من بينهم «حمدي» الذي كان يمت بصلة قرابة بعيدة ولكن جمعتهم مدرسة ثانوية واحدة ثم ترافقا في نفس الكلية حتى صارا صديقين مقربين، بعد وفاة والدته ضاقت عليه الأرض بما رحبت حتى ظهرت «جيهان» مرةً أخرى وساعدته في السفر للخارج ليعمل هناك لدى أحد معارفها.. وهناك التقى بـ«أنجيلا» تلك الفتاة الألمانية الرائعة الجمال، كانت زميلةً له في العمل، اهتمت به منذ اللحظة الأولى ومنحته قلبها بعد أيامٍ قلائل من تعارفهما وتزوجا بعد مضى عامٍ كامل على وصوله لألمانيا رغم المعارضة الشرسة لأهلها ورفضهم التام لزواج ابنتهم من عربي مسلم، ولكنها تحدت إرادة الجميع وتزوجته.. وأنجبا بعد بضعة أعوام ابنته الجميلة وزهرة حياته «سيليا»، تلك الصغيرة التي جعلت لحياته معنى، وأعادت له دفء العائلة الذي فقده بوفاة والدته، عمل الليل والنهار ليوفر لهما حياةً كريمة.. حتى استطاع تدبير مبلغ من المال ليبدأ مشروعه الخاص الذي ازدهر في وقت قصير، فأصبح في غضون سنوات قلائل صاحب شركة ناجحة.. لكن لم تكن حياته لتصفو هكذا، كيف وقد وُلد ملازمًا للصعاب، فبدأت أسرة زوجته يتواصلون معها بعد انقطاع في العلاقات دام عدة سنوات، فرحت زوجته كثيرًا في البداية وقد ظنت أنها قد نالت عفو أسرتها.. أما هو فقد أسعده

سعادة زوجته ولم يشأ أن تنشأ ابنته محرومة من دفء العائلة، دقت أجراس الخطر في داخله حين التقى والدة زوجته، لا يدرى لمَ تذكر «رستم باشا».. شيء ما فيها ذكره به، ربما حديثها المتعجرف عن انتمائها وأسرتها للجنس الآري وضرورة الحفاظ على نقاء السلالات، أو ربما هي نظرتها له التي لم تُرِحُه قط، لم تكن نظرة استياء أو حتى نفور بل كانت نظرةً متوعدةً استقبلها باستخفافٍ ظاهر دفع ثمنه غاليًا، فقد بدأت حماته المصون الحرب مبكرًا.. فلعبت بعقل ابنتها واستغلت حبها الشديد لزوجها، فأوهمتها بوجود علاقة بينه وبين سكرتيرته في العمل وأن هناك من شاهدها معه في أماكن عامة وبثت في نفسها الشكوك وزرعت بذور الفتنة في البيت، فانقلب البيت الهادئ إلى فتنة مشتعلة لا تنطفئ.. حاول في البداية استيعاب زوجته التي تنهشها الشكوك، سلك كل السبل لبث الطمأنينة في نفسها ولكن عبثًا فقد ملأ الشك نفسها وتعاظم بداخلها واشتعلت نيران الغيرة بقلبها ساعد على ذلك حبها الكبير له وحطب الكذب الذي راحت والدتها تغذيها به.. ومرت أيام صعبة على بيته الصغير احتمل فيها جنون زوجته بصبر، كان شغله الشاغل هو حماية ابنته من نوبات الجنون التي أخذت تصيب زوجته حتى راحت تطيح بكل شيء أمامها، صرف سكرتيرته من العمل إرضاءً لها ولكن بلا فائدة،اصطحبها للعديد من الأطباء النفسيين ولكن كل المحاولات باءت بالفشل، حتى وصل الأمر لإدمان زوجته للمهدئات، ولم تنتبه حماته في غمرة حقدها عليه إلى أنه ليس المتضرر الوحيد من هذا الحقد، بل إن ابنتها ستدفع ثمنه غاليًا.. ومرت أيام، بذل فيها قصارى جهده لمساعدة زوجته على تخطى محنتها

وإعادة الأمور لسابق عهدها والحفاظ على بيته وكاد أن ينجح لولا تدخل أهلها مرةً أخرى بدون علمه بعد أن منعهم من زيارة بيته، وانتهى تدخلهم هذه المرة بكارثة أكبر دفعت بزوجته إلى إدمان المخدرات.

انتزعه من ذكرياته رنين الهاتف بجواره..كان رقمًا خاطئًا ولكنه أتى في الوقت المناسب، على الأقل أخرجه من ذكريات بطعم المر، ذكريات تعلم كيف يدفنها، إلَّا أنها كانت دائمًا تجد طريق عودتها.

***

كعادتها مع الفجر وقفت تؤدي صلاتها وتقرأ آيات القرآن التي تربت على جراح روحها وتهدهد قلبها وتمحو ألمها وتبث في نفسها الطمأنينة والسكينة.. خرجت إلى الحديقة، تتنسم نسمات الفجر.. تستقبل الشمس وقت شروقها.. تداعب أشعتها، تحتضنها.. تعدو خلف الفراشات.. تقبل الزهور وتختزن أريجها في صدرها.

تأملها وهو يمتطى ظهر حصانه.. لم يتخيلها قط بهذه الانطلاقة، هو لا يراها إلا جادةً أو مرتبكةً.. أما تلك المرأة المشرقة، المتناغمة مع الطبيعة، الجالسة على أرجوحته تحلق بها نحو السماء، فهي بالنسبة له اكتشاف.

أجفلت حين صهل جواده، حاولت إيقاف الأرجوحة والقفز منها قبل أن يضبطها متلبسة باحتلال أرجوحته، يمم وجهه شطر بوابة الخروج حتى لا تدرك أنه رآها، لهج لسانها بالحمد لأن الفارس فوق الحصان لم ينتبه لها.. وإن تنامى داخلها شعور بالإعجاب بفروسيته وهو ينطلق بحصانه في مهارة وتناغم تشف عن فارسٍ حقيقي.

***

اعتلى صهوة الجواد في غرور وهو يتهيأ لقفز الحواجز.. تابعته تلك الشقراء التي ارتدت زي الشرطة الأمريكية في إعجاب، كان طويلًا وسيمًا، ذا نظرات حادة صارمة، شعره البُنِّي الكثيف يتناغم مع عينيه البندقيتين، عضلاته القوية المتناسقة تضفى على جسده الممشوق جاذبيةً خطرةً تخطف الأنفاس، راح بعض الضباط الشباب يتهامسون في خوف من أن تطير حواراتهم الهامسة إلى سمعه رغم بُعد المسافة.. أما هو فقد استوى على ظهر الحصان في سعادة لم تزره منذ وطئت قدماه الولايات المتحدة. فسيعود إلى مصر في غضون أيامٍ قلائل، سيعود ليعثر على طائره الذي غادر عشه، سيعود ليعيدها مرةً أخرى كما كانت، لا يدري هل سيحاسبها على ما فعلته.. أم سيسامحها ما إن يراها، لو تعلم كم اشتاق إليها ما فعلت فعلتها الدنيئة تلك، لو تعلم كم أحبها ما جرؤت قط على خيانة حبه.

***

وقفت ترتب مكتبه، حانت منها التفاتة الى الشرفة حيث يجلس دائمًا، بهرها جمال المنظر الذي تطل عليه، يبدو ساحرًا بأشجار الياسمين التي تنثر أريجها ويتألق بياضها فيمنح النفس شعورًا بالصفاء والنقاء، تناثرت على جانبي اللوحة الطبيعية بعض أشجار الفاكهة بالإضافة إلى بعض الزهور الرائعة التي أضفت على المشهد سحر الألوان.

سحبت عينيها من تلك الجنة الصغيرة حين سمعت صهيل حصانه، وقفت تستقبله في بهو القصر، ألقى عليها تحية الصباح وهو يصعد السلم الداخلي للقصر.. غاب لدقائق قبل أن يعود ثانية وقد بدّل ثيابه واستعد للمغادرة قائلًا: لم نقم بعمل الترتيبات اللازمة للحفل.. الحفل سيحضره

خمسون شخصًا على الأقل.. جال ببصره في البهو الفسيح وهو يتابع: أعتقد أن المكان هنا سيكفى.. أليس كذلك؟

أجابته فى تحفظ: ربما لو أقمناه في الحديقة أو حول حوض السباحة فسيعطى حريةً أكبر فى الحركة، كما أن المكان المفتوح يمنح إحساسًا بالراحة.

- فكرة رائعة.. سأطلب من «علاء» أن يرسل بعض العمال ليقوموا بتنفيذ المطلوب، أعدى قائمة بكل ما يلزم واتصلي بي في الشركة وسأرسلها لكِ.

هزت رأسها فى طاعة، تابعته بعيناها وهو ينطلق بسيارته ويقف بجوار البوابة ملقيًا لــ «سليمان» ببعض التعليمات.

***

انتهى الطبيب من إلقاء تعليماته لتلك الممرضة الشقراء التي وقفت بجوار فراشه، لم يستمع لبقية تعليمات الطبيب راح عقله يسترجع ما حدث.. لكن لا شيء يبدو واضحًا، آخر ما يذكره هو قفزة حصانه واصطدامه بذلك الحاجز الخشبي في عنف.. وجسده يسقط مع تعثر الحصان، وزهرة الياسمين تطير بعيدًا لتتركه يسقط وحيدًا.. لم يشعر بعدها بشيء إلا والدنيا تُظلم أمام عينيه، تطلع حوله وقد أطلت عليه وجوه عدة ليس من بينها وجهها، تلك التي أسقطته سقوطًا حقيقيًا قبل أن يسقط من فوق الحصان، ولكنها لا تعلم أن قوته تكمن في قدرته على النهوض بسرعة من كبوته، وهو لن يسقط ثانيةً، راح الكل يطمئنه على سلامة جسده، لكن أحدًا لم يطمئنه على سلامة قلبه.

***

أيام قصيرة مرت كحلم هادئ، حظيت فيها بشئ من الراحة، تنفست فيها بحرية، مارست فيها هواياتها المفضلة، تحررت من همومها ولو لفترة قصيرة من الزمن، تجاهلتها لأيام.. حتى جاء صباح الأربعاء، حضر المهندس «علاء» وعمَّاله لتهذيب الأشجار حول حوض السباحة وتنظيف الحوض، وقف يبحث بعينيه عنها، ولما فشل فى العثور على بغيته طلب من «حنفي» استدعائها حتى ينتهي من عمله باكرًا.

أقبلت تمشي مسرعة، استقبلها «علاء» بترحاب ظاهر ولكنها ردت عليه بلهجةٍ عملية وهي تشرح له ما تريد بالضبط بدقةٍ متناهية.

تابع إشاراتها بعينيه وهو يدون أفكارها في ورقة صغيرة باهتمام بالغ.. همت بالانصراف وهي تطلب من «حنفي» إعداد إفطار للعمال، ولكن «علاء» رفض واستبدله بطلب الشاي لعماله.. استوقفها وهو يقول بارتباك: كنت أريد أن أسألك عن تخصصك؟ صمت لحظةً ثم أردف في مرحٍ مرتبك: ربما كنا زملاء في الكلية.

قالت في لهجة جافة:أنت تخرجت من كلية الزراعة.. أليس كذلك؟

أومأ برأسه إيجابًا فتابعت في سرعة: إذن لم نكن زملاء لأني لم أدخل كلية الزراعة من الأساس.

- ولكن لديك خبرة كبيرة بالأشجار وطريقة قصها!

- هذه مجرد هواية وليس لدي خبرة أصلًا في هذا المجال.. قالتها وهي تنصرف في سرعة لتقطع عليه الاسترسال في الحديث.

تابعها ببصره لحظات قبل أن يستدير ليلقى بتعليماته للعمال الذين

راحوا يعملون في همة ونشاط.

***

ألقى «خالد» نظرةً مستاءةً على قدمه التي اختفت داخل جبيرة من الجبس.. زفر في ضيق حين أقبلت تلك الشرطية الشقراء، ابتسمت في سعادة وهي تراه جالسًا، قالت في سرعة: لقد تحسنت كثيرًا، لقد كدت أموت من القلق عندما سقطت من فوق الحصان، لست أدري كيف حدث ذلك لقد كنت تقفز الحواجز بمهارة حتى اصطدمت بذلك الحاجز الخشبي، ولكني اطمأننت حين قال الأطباء إن بنيتك قوية وستساعدك على التماثل للشفاء بسرعة.. قالتها وهي تتحسس عضلات ذراعيه القوية بشغف.

لم تخف عليه نظرتها فقال في برود: شكرًا لكِ.

قالت في فضول: عندما كنت تحت تأثير المخدر ظللت تردد كلمة واحدة فقط؟ انها تشبه اسم زهرة لدينا ولكنك كنت تنطقها بشكلٍ مختلف.. كنت تقول «ياسمين».

غمغم في غضب: لي ثأر مع زهرة ياسمين.

***

تطلعت «ياسمين» الي الشجر وحوض السباحة في انبهار وهي تهتف: رائع.. سلمت أيديكم.

قال «علاء» في ابتهاج: ألديكِ أي ملاحظات أخرى؟

أشارت إلي بعض الأشجار البعيدة قائلة: هذه الأشجار بعيدة لكنها ستظهر بوضوح عند وضع وحدات الإضاءة.

غطَّى صوت محرك سيارة «البك» الذي اخترق الحديقة على الجزء الأخير من عبارتها.. التفتت خلفها لتجد سيارة «عاصم» تتوقف عند الباب الداخلي للقصر، هتفت في سرعة: أرجو أن يكون السائق قد أحضر وحدات الإضاءة.. ثم أشارت إلى بعض الأشجار وقالت سنضع الوحدات هنا في ثنايا الشجر حتى تبدو الإضاءة مجهولة المصدر.

استدارت لتنصرف لكنها اصطدمت بقامته المديدة ونظراته الغاضبة التي سددها إليها، آمرًا إياها بانتظاره فى مكتبه قبل أن يلتفت لـ «علاء» قائلًا: ألم أطلب منك إحضار عامل واحد فقط.. لم أحضرت ثلاثة؟

أجابه في سرعة: لدينا الكثير من العمل في المزرعة ولا يمكنني تركها فترةً طويلة.

تلفت حوله وقد راقه شكل الحديقة وحوض السباحة وهو يقول في بطء: أهذه أفكارك؟

أجاب في توتر: إنها اقتراحات الآنسة «ياسمين».

قال وهو يغادر: أتموا عملكم.

ثم انصرف كعاصفة تركت خلفها زوبعةً من القلق والتوتر.

***

وقفت تنتظره في بهو القصر بثبات بينما وقف «حنفي» بجوارها يبسمل ويحوقل رافضًا تركها وحدها في مواجهة هذا الإعصار الغاضب.. ولكن شجاعته تبخرت مع أول أمر من «عاصم» له بالانصراف ليستقبل سائق النقل ويساعده في إدخال لوازم الحفل إلى القصر.

أسرع حنفي ينصرف في حين قال هو في غضب مكتوم: هل

استأذنتني قبل إحضار المهندس «علاء» إلى هنا؟ ألم آمرك بعدم الوقوف مع العمال؟

أجابته في ثبات: لقد أخبرتني أن موعد الحفل الخميس، كما أخبرتني أن المهندس «علاء» سيحضر العمال لإعداد الحديقة، وكل ما فعلته أن طلبت من عم «سليمان» استدعاءه فلم يعد هناك وقت.. ولقد أخبرت عم «حنفي» بالمطلوب ولكنه لم يستطع أن يشرح لهم ما أريد.. فأخبرت المهندس «علاء» بما في خيالي وبعد أن انتهى استدعاني.

قال في حدة: هناك أمور لا أحب أن تحدث في بيتي..وأريد ممن يعملون عندي أن يحترموا البيت الذي هم فيه، هل فهمتِ؟

أجابته في غضب وقد ساءها تلميحه: لا لم أفهم، ما الخطأ الذي ارتكبته حتى تتفوه بهذه التلميحات الجارحة؟ ثانيًا: أنا لا أسمح لأي أحد مهما كان أن يتحدث معي بهذا الشكل! ثالثًا: أنا أحترم نفسي جيدًا لذا لا يناسبني العمل في مكان كهذا.

استدارت لتنصرف ولكنه استوقفها في صرامة: أنا لم آذن لكِ بالانصراف.. ثم إن هذه ليست طريقةً جيدةً للعمل.

ظلت جامدةً مكانها فتابع وقد لانت لهجته قليلًا: أنا لم أقصد إهانتك لقد فهمت الأمر بشكل خاطئ.. اجلسي فأنا أحتاج لمناقشة بعض الأمور معك.

استدارت إليه والغضب لازال يملأ ملامحها وقد سالت دموعها رغمًا عنها.. مسحتها خفية، لمحها فهمس في رقة: هل ضايقتك إلى هذا الحد؟

خفضت رأسها ولم تجب فتابع في حنان لم يعهده في نفسه: اذهبي

إلى غرفتك الآن، وسنتحدث لاحقًا.

انصرفت دون أن ترد بكلمة واحدة، تابعها من النافذة، لمح «علاء» وقد وقف يتهيأ للحديث معها، ولكنه لم يلبث أن تراجع وهو يتجه نحو «حنفي»، تبادلا كلمات قليلة قبل أن يهتف «حنفي» كالملسوع: كلا يا بني.. أخبره أنت.. إنه غاضب جدًّا ولقد صب غضبه على الست «ياسمين»

غمغم في ضيق: لمَ؟ ما الذي فعلته! إنها آنسة محترمة، كما أنها تفهم عملها جيدًا.. تبدو من عائلة طيبة و..

قاطعه «حنفي» وهو يقول في أسًى: أنت محق كان أبوها طبيبًا كبيرًا.. أسفي على أولاد الأصول عندما يجور عليهم الزمن.

قال «علاء» في فضول: ألا تعرف ما الذي جعلها تعمل هنا؟

أجابه فى سرعة: أكل العيش يا ولدي.. كان الله في عونها.. صمت لحظة ثم تابع في قلق كمن يقدم على مجازفة كبرى: سأذهب لأخبره.

مضى «حنفي» تاركًا إياه يتخبط في حيرته، لا يدري ما الذي يجذبه إليها ويجعله يهتم لأمرها، أهو ذلك الحزن الساكن في عينيها، أم هي ابتسامتها الهادئة التي تبدو كقمر سطع في سماء حياته، أم هو ذلك الغموض الذي يحيط بها فيمنحها هالةً من الرهبة، أم هو حياؤها الذي يضفى عليها هالةً قدسية، لا يمكنه أن يُحدد بالضبط ولكن هناك ما يجذبه إليها دون أن يدرى كنهه.

***

تأمل «عاصم» الأشجار ووحدات الإضاءة التي أُخفيت وسط الشجر وحوض السباحة الذي يتلألأ تحت أشعة الشمس بعد تنظيفه، راق له

العمل وشعر بالضيق لأنه أساء إليها رغم جهدها، أشار إلي شجرة قُصت بعناية ممتدحًا شكلها فأخبره «علاء» أنها من أفكارها.

ابتسم في إعجاب.. أبدى بعض الملاحظات، ثم التفت لـ «حنفي» آمرًا إياه باستدعائها، غاب «حنفي» لدقائق ثم عاد برفقتها، استقبلها «عاصم» قائلًا في هدوء: «حنفي» والعمال معكِ.. أخبريهم كيف ترغبين بترتيب الموائد وأي تعديلات أخرى قد ترغبين فيها حتى أنهي مع المهندس «علاء» بعض الأمور.

ألقي عليها «علاء» نظرةً مشفقة، تمنى لو وقف يمسح الألم البادي على وجهها ولكن «عاصم» لم يمهله وهو يشير له أن يتبعه.

هدأت نفس «علاء» قليلًا مع البشاشة التي أبداها معه في الحديث خاصةً عندما عرض عليه أمر شراء خمسين فدانًا متاخمة لمزرعته ليقوموا بتوسعة رقعتها.

فى طريقه إلى الخروج، عرَّج عليها بينما كانت هي قد انتهت من إلقاء تعليماتها بشأن الموائد.

قال في أسف: أعتذر إن كنت قد تسببت لكِ بأية مشكلة.. أتمنى ألا يكون «البك» قد ضايقك، من المفترض أن لا شأن لنا بمشاكله في القاهرة.

أجابته بابتسامة باهتة وهي تقول في تهكم مرير: المفروض!

تحركت من أمامه مستأذنة إياه بالانصراف، تابعها بعينيه وقد ارتسم فيها الكثير من المعاني.

***

زفر «خالد» في ضيق.. لم يكن ينقصه إلا هذا، لقد عرقله هذا الكسر كثيراً، لا يدري ماذا عليه أن يفعل الآن، يجب أن يعود بأقصى سرعة،

صحيح أنه أحكم سيطرته عليها فرجاله في المطارات والموانئ سيخبرونه إن حاولت الخروج من البلد ولكن بقاءه هنا ليس في مصلحته، أخرجه من تفكيره صوت طرقات يعرف صاحبتها.. لا ريب أنها تلك الشرطية الشقراء التي لا تكف عن محاولاتها لاستمالته بابتسامتها اللزجة التي تزيد نفوره.. هي آخر شخص الآن يريد رؤيته، التقط واحدة من زهور الياسمين التي لا تفارق غرفته.. ضمها إلى كفيه ثم أسرع ينزلق في فراشه متظاهرًا بالنوم.

***

امتطى حصانه مع نسمات الفجر الأولى وانطلق خارج الحديقة.. سمعت صوت الجواد العربي، فخرجت من غرفتها لتجده يلوي عنان فرسه باتجاه المزرعة.

اتجهت نحو المطبخ لتجد الجميع على أهبة الاستعداد فقالت في مرح: ما هذا النشاط؟

أجابتها «أم أحمد»: اليوم هو يوم الحفل وما أدراكِ ما يوم الحفل؟

هتفت في دهشة: لمَ؟ لقد قال «البك» إنه سيحضر طاقمًا ليقوم بالخدمة في الحفل.

قالت «أحلام» في سخرية: نعم الطاقم يقوم بالخدمة في الحفل ونحن نقوم بخدمة الطاقم.

ضحكت «ياسمين» قائلة: هذا لن يحدث، الطاقم سيخدم نفسه بنفسه، مهمتنا هي إعداد المكان فقط، ثم التفتت لـ «أحلام» طالبةً منها الانتهاء من كي المفارش التي ستوضع على الموائد.

أشارت عقارب الساعة إلى تمام الثامنة عندما عاد من الخارج على

صهوة فرسه، ألقى نظرةً على «ياسمين» و«أحلام» وهما تنتهيان من إعداد الموائد، كان التنسيق بديعًا وأنيقًا وبسيطًا، تجلت نظرات الإعجاب فى عينيه وهو يهتف: رائع

قالت «ياسمين» في اهتمام: هل هناك أي ملاحظات؟

هز رأسه نفيًا.. فتابعت: متى سيصل الطاقم الذي سيقوم بالخدمة في الحفل؟

أجابها وهو يجيل بصره في الحديقة: في العاشرة.. وسيبدأ الحفل في الثامنة ولكن قد يأتي بعضهم مبكرًا

- سيكون كل شيء جاهزًا بحلول الساعة السادسة.. صمتت لحظة ثم قالت في تردد: ولكن هناك شيء أريد أن..

صمت يستحثها فتابعت في حذر: الطاقم القادم من المفترض أن يخدم نفسه بنفسه، وأن يقوموا بإعداد كل شيء من الألف للياء.. لكنهم في الحقيقة يرهقون العاملين هنا كثيرًا، اقترح أن يأخذ العاملون هنا إجازةً حتى يصبحوا قادرين على تنظيف مكان الحفل.

قال فى حسم: اليوم إجازة لهم والطاقم سينظف مكان الحفل أيضًا، هل تريدين شيئًا آخر؟

تهللت أساريرها كطفلة حصلت على هدية للتو، تمتمت بعبارات الشكر وهى تنطلق صوب المطبخ تخبر الجميع.

***

تهللت أساريرهم حين أخبرتهم بقرار «البك»، راح كل منهم يُعد لليوم بطريقته.. «حنفي» رأى أنه سينام اليوم بطوله بينما اعترضت زوجته

واقترحت نزهةً في المزرعة، لاقى اقتراحها قبول الجميع، وتم إرغام «حنفي» على الذهاب للبك والاستئذان منه وسط تشجيع «ياسمين» التي عللت عدم ذهابها معهم بأنه ليس من اللائق ترك «البك» وحده في يوم كهذا.. كما أن الطاقم قد يحتاج شيئًا لذا وجب أن يبقى أحدهم حتى لا يبقى «سليمان» بمفرده أيضًا.. أيدوها على مضض، وانطلق «حنفي» ليحصل على موافقته.

***

«لا أوافق بالطبع» نطق خالد بهذه العبارة في سخرية، فصاحت الشرطية الشقراء في دهشة: أي أنه لو عُرض عليك الالتحاق بالمباحث الفيدرالية سترفض؟!!

قال في سرعة: بالطبع.

هتفت في دهشة أكبر: لمَ؟

أجابها في سخرية: لن تفهمي.. صمت لحظةً بدا فيها أنه لن يتكلم قبل أن يضيف في استهجان: أنتم هنا مجرد موظفون تتقاضون رواتبكم من أموال دافعي الضرائب.. بإمكان أي شخص عادي أن ينال منكم، أما نحن في بلادنا فباشوات، نملك ما لا تملكونه، نملك السلطة والنفوذ التي هي أكثر ما يجلب المال.. السلطة الحقيقية.

بدت على وجهها أمارات عدم الفهم فتابع في سخرية: ألم أقل لكِ لن تفهمي!

***

وقفوا جميعًا على بوابة القصر وراحوا يتمازحون ويتضاحكون قبل ذهابهم إلى المزرعة.. تابعتهم ببصرها لحظات، تفرس «سليمان» في

وجهها وهو يقول: كيف حالك الآن مع البك؟ من الواضح أنه قد منحك بعضًا من ثقته.

أجابته في حيرة: لست أدري.. إنه غامض كالبحر.. فتارةً هو هادئ، وتارةً أخرى يهيج ويصرخ في وجهي دون سبب واضح. صمتت لحظةً ثم هزت كتفيها وهي تتابع: عمومًا هذا عملي ويجب عليَّ أن أتحمله.

جلست على مقعد خشبي مواجه له تتأمل حوض الزهور القريب من بوابة القصر، هتفت فجأةً: لقد ارتكبت خطأً كبيرًا.. لقد انصرف كل العاملين ولم يخطر ببالي أنه قد يتعرف عليَّ أحد من الطاقم

قال «سليمان»: يمكننا أن نطلب من البك إحضارهم من المزرعة.

هزت رأسها رفضًا للفكرة: لا يمكنني إفساد سعادتهم بيومٍ كهذا.. لا يمكنني أبدًا.

وكيف يمكنها أن تهدم سعادتهم البسيطة؟ وهي أكثر من يدرك معنى الحرمان من السعادة بعد أن تصل إليها، يشبه هذا فقدان يتيم لثيابه الجديدة يوم العيد.. تدرك هذا الشعور، فقد حُرمت من السعادة حين فقدت كل أحبتها وبقيت وحدها.. تعيش مرارة الفقد، وتذوق يُتم الروح، تحاول أن تبتسم لتوهم الحزن أنها سعيدة عله يفارقها، لكنه أبدًا لا يتركها، فهو ما إن يحط رحاله حولك ويُولد داخلك حتى تجده يحيط بك كأنما خرجت من رَحِمَه، كل آلامك ما هي إلا مخاضه لإنجابك حاملاً صفاته، متشحًا بسواده، يحفر على وجهك علاماته، ويرسم في عينيك ظلاله، فترى الدنيا من خلاله باهتة السواد.

***

أشارت عقارب الساعة إلي العاشرة. حين وصل الطاقم، راقبتهم من غرفتها وهم ينزلون واحدًا تلو الآخر، سرت في نفسها بعض الطمأنينة وهي ترى وجوهًا غريبةً عليها، ارتدت نظارةً شمسيةً كبيرةً أخفت نصف وجهها، ألقت إليهم ببعض عبارات الترحيب السريعة قبل أن تبدأ في إلقاء تعليماتها وإرشادهم إلي مكان كل شيء، وختمت كلامها معهم بالتنبيه على ضرورة جودة الخدمة، دعتهم إلى الإفطار الذى أعده «حنفى» ليتناولوه قبل البدء في عملهم.. شكرها الجميع وانهمكوا في الإعداد للحفل بينما اتجهت للحديقة تجمع الزهور التي ستوضع على الموائد.. أشار لها «عاصم» من نافذة مكتبه، وقفت أسفل النافذة قائلةً في ارتباك ردًا على سؤالٍ لم يسأله: أجمع الزهور لتنسيقها على الموائد.

ابتسم ابتسامةً خفيفة: إنها المرة الأولى التي أراك ترتدين فيها نظارةً شمسية.. هل أعددتِ ثيابي التي سأرتديها في الحفل؟

أومأت برأسها في ارتباك فتابع وهو يعود بكامل جسده إلى حجرة مكتبه: أخبري الطاقم أن يعدوا لي الغداء في الثانية.

تطلعت إلى النافذة لحظات ثم تنهدت في ارتياح وهي تنصرف لتنفذ أوامره.

***

جلست في غرفتها تراقب الطاقم الذي أحضره.. كانوا ماهرين حقًّا فقد قاموا بإعداد الكثير في وقت قصير كما قاموا بتعليق خرفان الشواء في الحديقة.

في الثانية حملت الطعام برفقة إحدى المضيفات التي وقفت بجوار

المائدة وهي تمنح «عاصم» ابتسامةً مغويةً قائلةً فى دلال: أتمنى أن يروق لك الطعام.

بادلها الابتسام وهو يومئ برأسه، قطعت «ياسمين» السبيل على الفتاة للاسترسال فى الحديث وهى تسأله إن كان يريد شيئًا آخر، هز رأسه نفيًا، فالتفتت للمضيفة التى وقفت في دلال مصطنع، همست في صرامة: أعتقد أن لديكِ الكثير من العمل بالمطبخ.

رمتها المضيفة بنظرة ساخرة قبل أن تميل عليه قائلةً في إغراء: أي أوامر أخرى؟

هز رأسه شاكرًا دون أن ينظر إليها، انتظرت حتى مرت المضيفة أمامها ثم تبعتها..استوقفها قائلًا: «جيهان» في الطريق، ستشرف على الحفل عند وصولها، ويمكنك أن تلزمي غرفتك بحلول السادسة، أرسلي لي رئيس الطاقم.

تطلعت إليه في امتنان وهي تنصرف شاكرة.

لم تمض نصف الساعة حتى عبرت «جيهان» بسيارتها حديقة القصر، استقبلتها «ياسمين» في حرارة، تأملت «جيهان» تجهيزات الحفل وأثنت كثيرًا على جهدها، قدمتها إلى رئيس الطاقم على أنها سيدة الحفل ثم افترقت كلتاهما هى إلي حجرتها و«جيهان» إلى القصر.

***

أشارت عقارب الساعة إلى الخامسة مساءً حين عبرت سيارة صغيرة البوابة واتجهت نحو القصر، بدا أن صاحبها يعرف المكان جيدًا، تابعته «ياسمين» بعينيها من خلف نافذتها، كان في أوائل الثلاثينات من عمره

وإن منحته بدانته عمرًا أكبر،طويل القامة يتدلى كرشه أمامه، لم تتبين ملامحه جيدًا.. خطا إلى داخل القصر في ثقة، استقبله «عاصم» في استياء.. فقال «حمدي» في سرعة: لا تقل شيئًا لقد انتهيت لتوي من العمل.

- عند بدء الحفل عليك ألا تفارق «فريدة» و«رأفت» أبدًا.

- و«آسر» ألن يأتي؟

أجابه في تفكير: لا أعتقد.. «آسر» قد يفسد عليَّ عملًا ولكنه ليس تافهًا ليفسد حفلًا.. هذه الأشياء قد يفعلها من هم مثل «رأفت» و«فريدة».. أهم شيء ألا يروا «ياسمين».. لا أريد استفسارات حول من تكون وما وظيفتها في القصر.. «فريدة» لن تهدأ حتى تعرف أصل الأمر.

***

تجاوزت عقارب الساعة السابعة وبدأ المدعُوُّن يتوافدون على الحفل، راقبت «ياسمين» الحفل من خلف النافذة، بدا «عاصم» في حلته الأنيقة كأحد نجوم السينما وهو يتحرك برشاقة وسط مدعُوِّيه.. يُحيي بعضهم تارةً ويتحدث مع آخرين، انسابت الموسيقى ناعمةً وأضفت الإضاءة الخفية التي امتزجت بنسمات الهواء المحملة بعبق الزهور جوًا ساحرًا، تلألأ الماء في حوض السباحة فبدا كفضة مذابة تحت أقدام المدعوين، تألقت «جيهان» كسيدة راقية بأناقتها المعهودة وبساطتها في حين بدت «سارة» كفراشة رقيقة وسط الحفل، تحركت سيدة بالغة الأناقة تشبه «جيهان» إلى حدٍ ما وإن بدت أصغر عمرًا بكثير، يرافقها رجل يماثلها في العمر تقريبًا.. وقفا يتبادلان الحديث مع «عاصم» الذي بدا من استيائه الظاهر

على ملامحه وابتساماته المتهكمة أنه غير مرحب بالحوار معهما قبل أن يتركهما وينصرف في لامبالاة جعلت السيدة تتمتم من بين أسنانها: ابن الممرضة!

قال «رأفت»: اهدئي يا «فريدة» لقد أتينا لتأديبه ولن ننصرف قبل أن نفعلها.. لمَ لم يأت «آسر»؟

أجابته في استياء: «آسر» حفيد «رستم باشا» سيدمره في السوق.. ولكن كيف والسيدة ماما تقف خلفه بكل طاقتها.. لا أدري لم تفعل ذلك؟ أعجز عن فهمها.

قال في سخط: ألا يكفى خطأ والدك حين تزوج من الممرضة وأنجب لكِ أخًا كهذا؟

همست محذرة: لا تنطق هذه الكلمة مرةً أخرى..هو ليس أخي ليس لي أخ سوى «آسر».. زفرت في ضيق ثم تابعت وهي تتلفت حولها: ولكن ألم تنتبه لشيء.. إنها المرة الأولى التي يقيم فيها «عاصم» الحفل في الحديقة.

قال في تهكم: يريد أن يقلد أولاد الذوات.. لا ريب أنها فكرة والدتك، رحمه الله عمي «رستم باشا» كان دائمًا يقول: جيهان ابنة أخي تقف دائمًا في الجانب الخطأ.

تنهدت «فريدة» في مرارة: أتعلم أنا لا أرتاح مع أحد من عائلتي سوى معك أنت و«آسر».. أمي و«سارة» يقفان دائمًا في الجانب الخطأ.. زوجي لا يفهمني إنه لا ينتمي إلى طبقتنا.

شرد «رأفت» في ملامحها.. لطالما كانت هي حلم حياته رغم أنها تكبره بعامين، كان يطلق عليها «فينوس»، هي في نظره النموذج المجسم

للجمال.. عيناها اللازورديتان تسبحان وسط سحابها الأبيض في نعومة مغرية تجعل عيناك تركع في محرابهما، بشرتها البيضاء الناعمة التي تكسو وجهها المنحوت بدقة، يحمل رأسها الجميل عنق كالمرمر، يكلله شعر ذهبي براق ينساب في نعومة كسلاسل ذهبية، تضفي عليها نشأتها الأرستقراطية طلةً ملكية.. تنساب كلماتها الرشيقة مع نعومة صوتها لتضفي سحرًا أبديًّا على حديثها، لم يستطع يومًا أن يبوح لأحد بمكنون صدره فهي تعتبره أخيها الأصغر، خشي دائمًا من الإفصاح عن مشاعره حتى لا تبعده عنها، عانى بسبب مشاعره الكثير فلقد بذل جهدًا خارقًا لإخفاء هذا الأمر خاصةً عن جدها «رستم باشا» عمه الذي يكبر والده بأكثر من عشرين عامًا.. والذي كان الأكبر بين إخوته وطالما فرض سطوته عليهم، لم يعتد أن يعصي له أحد أمرًا قط، لذا لم يسامح ابنه أبدًا عندما عصى أمره وتزوج بأم «عاصم»، كان الفارق بين عمه وأبيه كبيرًا رغم انتمائهم لنفس العائلة.. فقد حصل «رستم باشا» على معظم الثروة لنفسه بحجة أنه من جمعها، رغم أن جده قد أعطاه المال الذي كفل له بدء تجارته التي كوَّن منها ثروته فيما بعد وقد أوصاه أن يستثمر المال لأجل إخوته أيضًا.. صحيح أنه أعطى إخوته نصيبهم من ميراثهم ولكن بعد أن كوَّن ثروته من استثمار نصيبهم لسنواتٍ عدة، لايمكنه أن ينكر براعة «رستم باشا» حين حفظ ثروتهم من التأميم فقد كان بارعًا في الاستفادة من الفساد في كل العصور لحماية مصالحه.. وقد سار هو على نهجه فبذل جهدًا خرافيًا ليزيد حجم ثروة أبيه حتى أصبح صاحب شركة معروفة، أفاق من شروده على يدها التي أشارت بها إلى ذلك الكوخ الذي يكاد

يختفى وسط أشجار السرو وهي تقول: ترى ما الذي يوجد هناك؟

تطلع إلى حيث أشارت، فتابعت فى شك: كان الكوخ مضاءً منذ قليل ولمحت به خيال امرأة ثم ذهب «حمدي» إلى هناك وتكلم دون أن يُفتح باب الكوخ، بعدها بدقيقة واحدة أطفئت أنواره دون أن يخرج أحد.

- ربما هي إحدى الساقطات أحضرها إلى هنا ولم يجد الوقت الكافي لصرفها قبل بدء الحفل فأخفاها هناك.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة ماكرة وهي تقول: إذن فقد جاءتنا الفرصة على طبق من ذهب.. اذهب هناك ولا تدخر وسعًا في فضح الأمر.

***

جال «رأفت» حول الكوخ، اتجه نحو بابه، هم بطرق الباب ولكن «حمدي» برز أمامه فجأة وهو يقول في برود: هل تريد شيئًا؟

أجابه في برود مماثل: سئمت من ذلك الحفل الكئيب فأردت أن أستريح قليلًا ريثما ينتهي.

قال «حمدي» وهو يقوده من يده: المكان هنا غير ملائم.. يمكنك الجلوس في الاستراحة.

جذب «رأفت» يده بقوة وهو يقول في استهزاء: الأصل غلاب.

***

عاد «حنفي» و أسرته من المزرعة، ناولوا «سليمان» التوت والأشياء التي أحضروها معهم وراحوا يقصون عليه أحداث اليوم، قاطعهم «سليمان» طالبًا منهم التسلل بعيدًا عن الحفل حتى لا يثيروا سخط البك، انسل «أحمد» من بينهم وهو يقطع المسافة إلى الكوخ ركضًا ليطرق بابها هاتفًا: أنا «أحمد».

تسلل الصبي من تلك الفرجة الصغيرة التي سمحت بها فتحة الباب، أغلقت الباب خلفه في إحكام، استدارت تربت على رأسه وهي تسأله عن يومه؟ ناولها الصغير علبة صغيرة تحوى توتًا بريًّا قائلًا في براءة: لقد أحضرنا لكِ ولعم «سليمان».. ثم ناولها لفافة ورقية ذات ألوانٍ زاهية وهو يتابع: وهذه أرسلها لكِ المهندس «علاء».. أخبرني أنها أول إنتاج من نوعه في المزرعة وأوصاني ألا يراها أحد غيرك.

امتلأت نفسها بالغضب وهي تسمح للصغير بالذهاب إلى حجرته لينال قسطًا من الراحة، همت أن تغلق الباب ولكن يدًا أوقفت الباب في منتصف الطريق وصاحبها يتأملها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، أجفلت وهي تقول في توتر: الحفل هناك أيها السيد.

همس في برود: أعرف.. ولكنى أريد أن أعرف ماذا هنا؟

هتفت في توتر أشد دون أن تكف عن محاولة إغلاق الباب: أرجوك انصرف من هنا ولا تجعلني أتصرف معك بشكل غير لائق.

قال في سخرية: يا لكِ من متوحشة.. تستهويني المرأة الشرسة.. ثم دفع الباب إلى آخره وهو يخطو للداخل، أجال بصره فى الكوخ قبل أن يتابع: من أنتِ وماذا تفعلين هنا؟

أجابت في حدة: لا شأن لك بي، وإن لم تخرج الآن ستندم.

جذبها من يدها اليسرى قائلًا بصوتٍ كالفحيح: لم يُخلق بعد من يمكنه تهديدي.

هوت على وجهه بصفعة قوية بيمناها وهي تقول: ولم يُخلق بعد من يمكنه أن يمس شعرة مني.

اشتعل الغضب في وجهه وهو يتحسس أثر الصفعة صائحًا: أنتِ مجنونة لترفعي يدك القذرة عليّ.. أتبع عبارته بأن رفع يده ليهوى بها على وجهها ولكن يدًا قويةً أمسكت بيده في منتصف الطريق وصاحبها يقول: بل أنت المجنون لترفع يدك عليها.

تطلعت إلي «عاصم» في راحة، كأنها تلتمس فيه الأمان، في حين جذب «رأفت» يده في حدة وهو يقول في تهكم لاذع: تُرى من تكون السيدة المبجلة؟

قال في برود وهو يدفعه للخارج: هذا ليس من شأنك.. والآن اخرج.

صاح في غضب: أتطردني يا ابن الخادمة؟!

لم تدر ماذا حدث في اللحظات التالية، فقد استدار «عاصم» فجأة لتقبض يده على عنق الرجل ويلصقه بالجدار وهو يقول بلهجة تُجمد الدم في العروق: إن كررتها ثانيةً سأقتلك.

استدار «رأفت» ينصرف في غضب وهو يعدل ثيابه فاستوقفه «عاصم» قائلًا في سخرية: «رأفت».. صوت الصفعة كان مدويًا.. يبدو أنه قد جذب انتباه الحاضرين.

نظر إليهما شذرًا وهو يقول: سأجعلك تدفع الثمن غاليًا.

تابعه ببصره حتى غاب عن ناظريه قبل أن يلتفت إليها قائلًا في غضب: ما الذي أخرجك من غرفتك؟

أجابته في توتر: لم أخرج.. لقد أتى «أحمد» إليَّ عند عودته من المزرعة وعندما فتحت الباب ليخرج وجدت هذا الرجل أمامي وحصل ما رأيته.

قال في صرامة: أغلقي عليك بابك وسنتحدث لاحقًا.

انصرف تاركًا إياها غارقةً في همومها، تتخبط في حيرتها، لا تدري إلى متى ستظل تحيا داخل جدران الخوف ؟ لقد هربت من سجنها لكنها وجدت نفسها سجينة خوفها، لتكتشف أن السجن داخل فقاعة الخوف أكثر عذابًا من السجن داخل جدران الجلاد.

الفصل الخامس

جلست في غرفتها القلق والتوتر يملآنها، تدافعت التساؤلات إلى عقلها.. من هذا الرجل؟ لمَ أراد أن يكشف عن هويتها.. أيكون من معارف «خالد» وقد تعرف عليها؟!! تصاعد القلق داخلها عند مرور ذلك الخاطر في ذهنها، أخذت تعتصر يديها و هي تذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، عادت تهدِّئ من نفسها وتربت على قلبها المضطرب وهي تذكره بأن أسوأ ما يمكن أن يحدث قد حدث بالفعل، وقفت تتابع الحفل بعينيها من خلف النافذة كان «عاصم» يتحرك برشاقة وسط المدعوين وابتسامة ديبلوماسية تزين شفتيه، يتنقل بين ضيوفه ويوزع عليهم وقته، بحثت بعينيها عن ذلك الرجل ولكنها لم تره ثانيةً، عادت تجلس في مقعدها، كأسيرة فى قيد وهمى، كرهينة داخل جدران القهر، بذلت دموع عينيها بسخاء لتمطر في سماء حياتها القاحلة، تحمل همومها وآلامها لتسقط على أرضها الجدباء فتنبت خوفًا من المستقبل المظلم، والمصير المجهول.

***

فرك «آسر» عينيه في إرهاق، أراح رأسه للخلف قليلاً وهو يُزيح تلك

الأوراق من أمامه، إنها المرة الرابعة التي يُراجع فيها تلك الأوراق، عليه أن يفوز بتلك الصفقة، لن يسمح لـ «عاصم» قط أن يحصل عليها، ألقى نظرةً على صورة كبيرة تحتل الجدار المقابل له، صورة ملأها صاحبها عَظَمَة، يجلس بأرستقراطية بالغة تليق بباشا مثله، يضع ساقًا فوق الأخرى في كبرياء لا ينبغي إلا لـ «رستم باشا» جده الحبيب، ذلك الذي منحه كل شيء وعلمه كل شيء في الوقت الذي هجره أبوه وراح يلهث خلف امرأة أخرى دون أن يلتفت خلفه أو يلقي نظرةً عليه في فترة كان أحوج ما يكون فيها إلى أبيه، ليجد نفسه وحيدًا حتى لو أحاط به الجميع، إنه لشعور قاسٍ أن يشعر طفل في مثل عمره أنه قد فقد أباه، إنه شعور دائم بالألم والحزن العميق، شعور لا يعرفه إلا من ذاق مرارة اليُتم، أما فهو فعاش الشعور الأسوأ، لقد عاش اليُتم مغموسًا بطعم النبذ، عاش اليُتم مكللًا برائحة الهجر، لطالما حقد على «عاصم» لأنه حصل على أبيه وتنعم بعطفه وحنانه، لطالما أضناه إحساسه بأن أباه قد فضَّل «عاصمًا» عليه واختار والدته ومنحها قلبه وهجر «جيهان» ابنة عمه المخلصة.. لكم آلمه هذا الشعور، إنه لشعورٌ قاسٍ أن تشعر أن هناك من هو أفضل منك لدى أبيك لدرجة أن يتركك من أجله، أن تشعر أنك في المرتبة الثانية لدى أهم شخص لك في العالم، بل إنك لست موجودًا في خارطة قلبه من الأساس، لطالما أخفى حزنه وألمه خلف قناع من اللامبالاة والحزم، بينما يبكى دمًا في داخله، لقد عوضه جده كثيراً ومنحه كل شيء وجلب له كل ما يحتاجه إلا أنه لم يستطع أن يجلب له أب، فالأب لا يمكن لأحد أن يجلبه فهو مثل الروح، عندما تخرج يتهاوى الجسد ولقد تهاوى كيانُه بأكمله إلا أنه ظل محافظًا على تماسكه الخارجي لأجل والدته

وإخوته وخاصةً «فريدة» التي عانت مثله وذاقت نفس مرارته، لقد تحمَّل الكثير حتى لا يخذل جده فهو خير من يعرف كم هو مؤلم شعور الخذلان خاصةً إذا كان من أقرب الناس إليك.

***

أشرقت الشمس فانتبهت «ياسمين» من نومها فزعةً، تطلعت إلى أشعة الشمس المتسللة من النافذة، نهضت من ذلك الكرسي الذي غفت عليه، ولدهشتها اكتشفت أنها أفلتت من هجوم الكوابيس عليها في ليلتها هذه، ربما أشفق عليها عقلها الباطن من شدة ما لاقته بالأمس فتركها وشأنها ليلةً كاملة، غيرت ثيابها واتجهت نحو القصر، دخلت المطبخ لتجد «حنفي» و«أم أحمد» يعملان في جد.. ألقت عليهم السلام وهي تبادر بسؤالهم عن نزهة الأمس، اندفعا يقصان عليها في آن واحد كل ما حدث، ضحكت وهي تستمع لهم في اهتمام حتى أوقفت «أم أحمد» السباق وهي تطلب منه بلهجة آمرة أن يسرع بإعداد الإفطار لـ «جيهان»، تهللت أساريرها عندما علمت بوجود «جيهان» كأنما وجدت طوق نجاتها في مواجهة غضبه، أسرعت نحو بهو القصر، ارتاحت عندما وجدتها جالسةً في البهو بأرستقراطية لا تليق إلا بها.. تلك المرأة الرائعة التي تجمع بين البساطة والأصالة.. بين الرقة والقوة،استقبلتها في بشاشة وأجلستها بجوارها، راحا يتبادلان الأحاديث حتى قصت عليها «ياسمين» ما حدث بالأمس، ارتسمت تعابير الألم على وجه «جيهان»، قطع حديثهما نزول «عاصم» من أعلى السلم وهو يرتدي ثيابًا منزليةً أنيقة.. ألقى عليهما التحية، فنهضت واقفةً لتنفيذ أوامره، أشار لها بالانصراف وهو يوجه حديثه لـ «جيهان»

قائلًا: ألا زلتِ مصرةً على الذهاب؟ أخشى أن يضايقك «آسر» خاصةً بعد أن تنقل له «فريدة» ما حدث بالأمس.

تنهدت في أسًى: «آسر» ليس سيئًا على الإطلاق.. إنه مسكين يدفع ثمن أحقاد زُرعت فيه دون ذنب جناه، لقد حمَّله «رستم» باشا فوق طاقته، وهو إلى الآن لا يستطيع أن يلقي هذا الحمل عن كاهله. صمتت لحظة وهي تدير دفة الحديث قائلة: متى ستخبر «ياسمين»؟

أجابها في توتر: يجب أن أخبرها بأسرع وقت فقد تم تحديد موعد التنفيذ نهاية الأسبوع المقبل لظروف طارئة جدت على العملية وقد أرسل لي «زيلمان» يخبرنى إما أن يتم التسليم في هذا الموعد وإما لن يتم أبدًا.

ربتت على كتفه قائلةً: لا تقلق..سيكون كل شيء على ما يرام.

زفر في توتر: أتمنى هذا.

قالها وهو يعلم في داخله أنها الآن أغلى أمنياته أن يكون كل شيء على ما يُرام، لا يدرى هل تتحقق أمنيته التي أصبحت هي مُحرك حياته الخفي أم يتدخل القدر ويُحطِّم ما تبقى له من أمل في أن يسترد روحه التي تركها هناك، حيث بقيت هي.

***

جلست «سارة» بجواره تغازله ممتدحة مظهره بالأمس، همست فى مكر:أتتذكر عندما أتيت لي في الكلية؟ صمتت لحظة ثم انفجرت ضاحكة وهي تتابع: كل البنات ظللن يسألنني من هذا؟ أهو مرتبط؟ ما مواصفات فتاة أحلامه؟ فما كان مني إلا أخبرتهم أنني سأحدد لك موعدًا بالكلية لتتحدث فيه عن نفسك.

ضحك بشدة وهو يقول: كان الله في عون «مروان».. بالمناسبة كيف

حاله؟ لمَ لم يأت إلى حفل الأمس؟

أجابته فى سرعة: إنه على وشك إنهاء الماجستير، عندما علمت بقدوم «فريدة» لم أشأ دعوته، لا أريد أن أبدأ معركتي مبكرًا.. ولا أريدها أن تذكرني بذلك النصاب. صمتت لحظةً وهي تتابع: لا أدري كيف أشكرك على أن أنقذتني من براثنه.. لولا تدخلك لكنت وافقت على خطبته.

احتواها في حنان قائلًا: هل كنتِ تظنين أنني أترك أميرة العائلة تتزوج من شخصٍ كهذا؟!

تدخلت «جيهان» قائلةً في عتاب: رغم غضبى منك وقتها لأنك لم تخبرني.. لكنني سعيدة لأنك استطعت إقناعها وكشفه أمامها.

قال في هدوء:لم يكن بإمكاني إخبارك لعدة أسباب، أولها لأني وعدت «سارة» أنني لن أخبر أحدًا، ثانيًا: لأني أعرف أنها لا تخفى عنك شيئًا، ثالثًا: لم أكن أريد أن أقلقك خاصةً أن الأمر قد انتهى.

***

«لم ينته ولن ينتهي » هتف «خالد» بهذه العبارة في غضب وهو يحدق في زهرة الياسمين التي سحقها بين يديه.. تدلت أعناق أوراقها كأنما أذعنت لغضبه وهو يواصل حديثه لتلك الزهرة المسكينة التي لا ذنب لها سوى اسمها، تابع وهو يسحق إحدى أوراقها: لا تظني أن ما بيننا قد انتهى.. بل على العكس لقد بدأ، زفر في قوة لتخرج أنفاسه الملتهبة حاملةً جزءًا من النار التي تحرق داخله، لم يتلق هزيمةً واحدةً في حياته منذ بدأ حياته العملية إلا على يديها، حتى أباه بكل فساده وخلاعته لم يستطع هزيمته، حتى بعد أن بدد أموالهم على النساء، كان يكره أباه ووالدته التي لم تكن

تكف عن الشكوى، كان يكره ضعفها وبكاءها المستمر، وشكواها التي لا تنقطع وهي ترى خيانة زوجها لها ليل نهار، لم تلتفت إليه قط، لم يكن هو ضمن حساباتها، كان كل ما يعنيها هو زوجها المنفلت، أما ابنها الصغير فلم يكن يومًا يعني لها شيئًا، لم يحزن كثيراً حين توفى والده، بل على العكس رأى أنه قد تحرر من عبء رجل لم يربطه به شيئًا سوى أنه سبب بكاء أمه المستمر، أمه التي ظن أنها ستنتبه لابنها بعد أن تخلصت من مصدر شكواها، ولكنها بدلًا عن هذا راحت تنعي نفسها لأنها أصبحت بلا زوج، مما زاده نفورًا منها وكرهًا لضعفها، بل كره الضعف برمته وعشق القوة المطلقة، القوة بكافة أشكالها، لذا سعى للالتحاق بكلية الشرطة، وسعى بعدها لجمع المال الذي يمنح القوة المطلقة والسلطة التي لا حدود لها، تلك في نظره هي المتعة الكاملة..

***

وقفت أمامه وداخلها يرتجف في حين تراجع في مقعده وهو يقول في برود: لمَ صفعتِ الرجل بالأمس؟ ألا تعلمين أنني أدعو إلى الحفل علية القوم ولا ريب أنه أحدهم؟!

أجابت في سرعة: لقد تجرأ وأمسك بيدي.

قال في اهتمام: ألم تخشي من بطشه؟

رفعت رأسها في اعتداد: أنا لا أسمح لأحد بإهانتي ولا أقبل بالذل مهما كانت العواقب.

تطلع إليها بإعجاب ظاهر، ظلت عيناه عالقة بوجهها لحظات طويلة، تسيد الصمت فيها الحجرة حتى كسرت حاجز الصمت قائلةً في ارتباك:

هل تأمر بشيء آخر؟

أطلق ضحكةً عاليةً وهو يقول: وهل طلبت أولًا حتى يكون هناك آخر؟ ألا يمكنني الحديث معك دون أن ترددي دائمًا هذه العبارة؟!!

ابتسمت هامسةً: أنا آسفة.. ظننتك أردتني لهذا الأمر فقط.

هتف في مرح: لا.. لا تبرري موقفك هذا طبع.

هزت كتفيها فى استسلام قائلة: ربما.

قال وهو يعتدل في مقعده: هل تجيدين التعامل مع الكمبيوتر؟

أومأت برأسها إيجابًا فتابع: جيد؛ فلديَّ بعض الملفات وأحتاج لمساعدتك فيها.. أتبع قوله بأن ناولها مغلفًا ورقيًّا وهو يشير لها بالجلوس ليشرح لها ما يريد.

جلست أمام حاسوب من طراز IBM JX، استقر بأجزاءه كاملة فوق منضدة خشبية صُممت خصيصًا لأجله، امتدت يدها تضئ شاشته المربعة الضخمة، استقرت أمامها لوحة مفاتيح مستطيلة برزت أزرارها بلونيها الأسود والبيج، تأملت النظام لحظات فى حيرة إنه مختلف قليلًا عن «ويندوز ١.٠»، تعتقد أنه يعمل على إصدار جديد ربما يكون «ويندوز ٢.٠»، أو ربما هو إصدار أحدث لا يمكنها أن تحدد فقد توقفت منذ زمن عن ممارسة هوايتها المفضلة في العمل على أجهزة الكمبيوتر، استغرقها الأمر بعض الوقت قبل أن تنطلق تصول وتجول داخل الجهاز كأنما تعمل عليه منذ سنوات.. راحت أصابعها تعمل في سرعة ومهارة، تابعها في صمت للحظات ثم عاد ينهمك في مراجعة بعض الأوراق أمامه، لم يدر كم مر عليه من وقت حتى أخرجه هتافها معلنة انتهائها من عملها، رفع رأسه

إليها في دهشة، دار حول مكتبه، ألقى نظرة سريعة على شاشة الحاسوب الضخمة المربعة وهي تفتح له بعض الملفات قائلةً: لقد سميت كل ملف باسمه وحفظته فى المفكرة ليكون الوصول إليه سهلًا.

انزلقت في نعومة وهي تبتعد عن الكرسي لتسمح له بالجلوس مكانها، عبثت يده بالأزرار وهو يتابع عملها في إعجاب قائلًا: أتعلمين لديَّ موظفين قد يستغرقون أيامًا لإنهاء هذه الملفات.. أنتِ رائعة بحق.

- شكرًا لك.. هل ترغب بشيء آخر؟

أجابها فى شرود: هل يمكنك أن تتعلمي لغةً في أسبوع على أقصى تقدير؟

همست في دهشة: لمَ؟

صاح في عصبية وهو يدور خلف مكتبه ليقف في مواجهتها: أنا أسأل وعليكِ أن تجيبي.

قالت في حيرة: لست أدري.

أشار بيده التي سرت فيها رعشة خفيفة إلى جانب المكتب طالبًا منها نقل بعض الملفات، تابعت بعينيها حركة يده المرتعشة وهي تقول في قلق: هل أنت بخير؟

تحرك نحو مكتبه مجيبًا في عصبية: لا شيء.. أشعر ببرودة في أطرافي، سأصعد لأستريح قليلًا.

سار في تثاقل نحو الباب.. فجأة هوى جسده على الأرض أمام عينيها، انطلقت صرختها حاملة اسمه، أسرعت تستدعي «حنفي» و«سليمان» اللذين

حملاه للأعلى، سبقتهم لتفتح غرفته وتسوي الفراش، وضعاه برفق، تحسس «سليمان» رأسه هاتفًا في قلق: حرارته مرتفعة.

أحضرت الترمومتر، أسرعت تقيس حرارته بينما راح جسده يرتعد، علا القلق ملامحها وهي تقول: درجة حرارته «٤٠».. ثم التفتت موجهةً كلامها لـ «حنفي»: استدع طبيبًا بسرعة.

أسرع «حنفي» يستدعى الطبيب بينما أخذت تبحث في تلك الصيدلية الصغيرة في حجرته عن حقن خافضة للحرارة حتى عثرت على إحداها، طلبت من «سليمان» أن يقوم بعمل كمادات باردة له، انتظرت لبعض الوقت قبل أن تحقنه وتترك السائل يسرى فى جسده، عادت تقيس حرارته التي بدأت بالانخفاض، بدت الرؤية مهتزةً أمام عينيه حين فتحهما، أحاطوا به في لهفة، تناثرت كلمات الحمد على شفاههم وعلت الراحة وجوههم، علا صوت «أم أحمد» على الجميع وهى تهتف: أبقاك الله لنا وأدام عليك الصحة.

حاول النهوض ولكن «سليمان» أعاده للفراش برفق و«حنفي» يقول: الطبيب على وصول

تمتم في اعتراض: أنا بخير.. لا حاجة للطبيب.

قالت «ياسمين» في حزم: الحرارة عرض وليست مرض.. صحيح أن الحرارة قد انخفضت، لكننا لم نعالج السبب الحقيقي ولن يدوم مفعول الحقنة التى أخذتها طويلًا، لهذا حضور الطبيب مهم.

غمغم فى ضعف: من قام بحقنى؟

أشار «سليمان» لها فتابع فى سخرية: وهل تجيدين إعطاء الحقن؟

أجابته في سرعة : هل نسيت أن أبي رحمه الله كان طبيبًا؟

قال في تهكم: هذا يعنى أن من كان أبوه مهندسًا يمكنه بناء عمارة؟!!.

ابتسمت ابتسامة خفيفة: اطمئن إنها مجرد حقنة.. لم أقم بإجراء عملية جراحية لك.. ثم التفتت إلى «حنفي» قائلةً: متى سيأتي الطبيب؟

أجابها في سرعة: المهندس «علاء» قال إنه سيحضره في أقل من ساعة.

صاح «عاصم» في غضب: من طلب منك الاتصال بـ «علاء»؟

أجابه في ارتباك: لقد تجمد عقلي من خوفي عليك.. فلم أجد أمامي غيره.

قالت في سرعة لترفع عن «حنفي» الحرج: شكرًا لك يا عم «حنفي» لقد تصرفت بشكلٍ جيد.. يحتاج «البك» الآن إلى طبق شوربة خضار من يدك، هل يمكنك أن تصنعها له؟

غمغم «حنفي» في أسف: أنا آسف، لم أقصد قط إغضابك، كنا قلقين عليك.

قال في ضيق: لا عليك..شكرًا لك.

وقفت بجواره تقيس حرارته، عقدت حاجبيها في تركيز، فقال في سخرية: هل سأعيش؟

أجابته في مرح: للأسف لن تعيش أكثر من مائة عام.

ضحك الجميع فتابعت: سنتركك لتستريح.

أغمض عينيه في إرهاق،رغم مرضه الذي أتى في وقت غير مناسب بالمرة، إلا أنه لأول مرة يشعر بالراحة لما لمسه من صدق مشاعر العاملين بقصره وخوفهم عليه وقلقهم من أجله، يبدو أن عليه أن يقترب منهم أكثر فيما بعد.

***

انتحى «سليمان» ركنًا قصيًّا منبهًا إياها لخطورة مقابلتها للطبيب القادم، وأعرب عن قلقه من أن يكون الطبيب من معارف والدها ويتعرف عليها.

أيدته فى قلقه ولكنها أوضحت له أنه لا يمكنها أن تضر «بالبك» أو تخاطر بصحته.

صمت «سليمان» في تفكير قبل أن يقول فى بطء: لديَّ حل جيد، قفى في الحمام الداخلى لحجرة «البك» وبذلك ستسمعين تعليمات الطبيب وتنفذينها بلا خطأ.

قالت مُطَمْئنةً: لا تقلق.

وإن بدت العبارة منافيةً تمامًا لحالتها الداخلية.. فقد أصبحت هي والقلق رفيقين لا يفترقان.

***

تجاهل «آسر» رنين الهاتف الذي دق للمرة العاشرة على التوالي، كان يعلم أنها «منى»، ولكنه قرر ألا يجيب عليها، لن يمنحها سببًا، عليها أن تقبل الأمر كما هو، لقد طلقها وانتهى الأمر ولن يجعل مخلوقًا يعرف ما هو السبب الحقيقي لذلك، لن يُعطى مبررًا لأحد، لطالما كان هكذا، لا يبرر

شيئًا.. لأن لا أحد يستحق أن يكشف عورات روحه أمامه حتى لو كانت هي.. صحيح أنها المرأة الوحيدة التي تفتح لها قلبه، وتربعت على عرشه، ولكنه لن ينتظر حتى تتركه هي كما تركه أبوه من قبل، سيقوم هو بالخطوة الأولى كعادته وببراعة يحسده عليها الجميع، كان دائمًا لديه القدرة على أن يقول لأحدهم: "اذهب إلى الجحيم!" بطريقة تجعله يتطلع لرحلته هناك.

***

لم يكد «سليمان» ينزل السلم الداخلي للقصر حتى هتك هدير محرك سيارة عتيقة سكون المكان، ترجل منها «علاء» برفقة رجل فى أوائل الأربعينات من عمره، يرتدى نظارة طبية كبيرة.. تفرست في وجه الطبيب، تنهدت في راحة عندما تأكدت أنها لم تره من قبل، هذه إحدى مميزاتها، لا تنسى قط وجهًا رأته من قبل، استقبلتهم في أعلى السُلَّم، قطعت على «علاء» تقديمه لها وهي تقود الدكتور إلى غرفة «عاصم» في سرعة، انحنى الطبيب يفحصه وهو يستفسر عما حدث، قصت عليه كل ما فعلوه لمساعدته، هز الطبيب رأسه معلنًا موافقته الكاملة على كل ما قاموا به من إجراءات وهو يضيف: ولكننا سنحتاج إلى بعض التحاليل والأشعة.

أومأت برأسها موافقة قبل أن تقول: حسنًا.. ولكن عندما يتمكن من الحركة فكما ترى المكان هنا بعيد عن أي معامل.

ناولها الطبيب ورقةً انتهى من كتابتها في التو: مبدئيًا..لديه نزلة شعبية، وربما يعانى من بعض الضغوط النفسية والعصبية.

ألقت نظرةً سريعةً على الورقة التي استقرت بين يديها ثم قالت:

ولكنك لم تكتب خافض للحرارة؟

أجابها الطبيب في لهجة عملية: لقد كتبت له مضادات حيوية قوية بالإضافة لاستمرار الكمادات الباردة.. هل أنتِ طبيبة؟

أجابته في ارتباك: كلا ولكني عملت في عيادة طبيب من قبل.

ابتسم ابتسامةً خفيفةً وهو يمد لها يده بكارتٍ شخصيًّ صغير قائلًا: إذا احتجت إلى عمل فعيادتى مفتوحة لكِ.

همت بالرد ولكن صوت «عاصم» المتهالك كان أسبق منها وهو يقول: نساؤنا لا تعمل في عيادات.

تمتم الطبيب بكلمات أسف متكررة، تجاهل اعتذاره وهو يسأله: لديَّ الكثير من العمل متى يمكنني مزاولة عملي؟

أجابه في لهجة روتينية: ممنوع الحركة لمدة ثلاثة أيام.

قال في عصبية: يوم واحد يكفي.

هز الطبيب كتفيه في لامبالاة: لا تلُم سوى نفسك.. أنت بحاجة إلى الراحة أكثر من العلاج.

التفت «عاصم» إليها آمرًا: أعط الطبيب حسابه واطلبي من «علاء» توصيله.

أوقفها الطبيب بإشارة من يده قائلًا: لقد تقاضيت أجري كاملًا.. لا أخرج إلى زيارة منزلية قبل أن أتقاضى أجري مقدمًا.

قال «عاصم» في تهكم: يتقاضى الطبيب أجره إذا قضى على المرض أو المريض.

شكرته «ياسمين» ورافقته إلى الباب.. ما إن فُتح الباب حتى أطلت

الوجوه المتلهفة للاطمئنان عليه، قال الطبيب بصوتٍ مرتفع كأنه يرسل الرسالة للجميع: إنه بحاجة إلى الراحة.

ثم ألقى ببعض التعليمات الخاصة بطعامه وعلاجه، وجه «علاء» حديثه لها في لهفة وهو يسير برفقة الطبيب: أيمكنني العودة للاطمئنان عليه؟

أجابته في سرعة: بالطبع، وإن كنت أرى أن تؤجلها للغد لنمنحه الفرصة للراحة.

هز رأسه موافقًا في حرج وهو يقطع درجات السلم ركضًا ليلحق بالطبيب.

***

تابع «خالد» الطبيب لحظات حتى اختفى عن ناظريه، زفر في ضيق وهو يلتقط إحدى زهور الياسمين ليسحقها بين أصابعه، تأمل الزهرة المسكينة التي ذوت تحت وطأة أصابعه حين قام بليٍّ عنقها، تدلت أوراقها كمحكومٍ بالإعدام تم شنقه للتو، ابتسم في ظفر وهو يقول: هكذا يجب أن تكون نهايتك.

نقل بصره من الزهرة المسكينة إلى ساقه التي اختفت داخل تلك الجبيرة ومنعت عودته إليها، وأجلت انتقامه منها، سيعود قريبًا وسيجعلها تندم على كل ما فعلته.

***

عادت إلى الغرفة لتجده راقدًا في تهالك وقد بدا عليه الإعياء والضعف الشديد، تأملته في إشفاق وهي تنادي على «أحلام» طالبةً منها

إحضار حساء الخضار.

همس في إعياء: لا أريد.

- لقد كتب الطبيب لك مضادات حيوية قوية.. يجب أن تأكل جيدًا.

- كُفِّي عن لعب دور الطبيبة معي.

أشارت إلى «حنفي» الذي سارع بمساعدته على الجلوس بوضع بعض الوسائد خلف ظهره.. ثم أمسك بطبق الحساء وهو يحاول إطعامه، ولكن «عاصم» أبعد يده في رفق قائلًا: يمكنكم الذهاب.

هتفت في دهشة: كيف نتركك في هذه الحالة؟

قال في إصرار: أنا بحاجة للبقاء بمفردي إن احتجت شيئًا سأستدعيكم.. الجرس بجواري.

امتثلوا لأوامره على مضض، ألقت عليه نظرةً قلقةً قبل أن تغلق الباب خلفها.

تابعها ببصره لحظات، تساءل بداخله عن إحجامه المستمر عن إبلاغها بالأمر.. شيء ما بداخله يمنعه، شيءٌ ما بداخله يخبره أن الوقت المناسب لم يحن بعد.

***

تأففت «فريدة» وهي تتطلع إلى زوجها الذي احتضن أطفاله في حب ثم نهض موجهًا كلامه لها: هل ستأتين معنا؟

أجابته في حدة: من تقصد بكلمة معنا، لن يذهب أولادي إلى تلك الأماكن الشعبية، ولن يختلطوا بهؤلاء الناس.

صرف «فكري» أولاده في رفق وهو يطلب منهم انتظاره في الحديقة،

تابع أطفاله بعينيه وهم ينطلقون صوب الحديقة ويعبرون الباب الزجاجي الواسع الذي يطل على الحديقة الصغيرة التي تفصل بين الجدار الزجاجي وبين حوض السباحة الأزرق، عاد ببصره إليها وهو يقول من بين أسنانه: هؤلاء الناس الذين ترفضين اختلاط أبنائي بهم هم أهلي، ولولاهم ما كنت أنا وما كان أبناؤك الذين تريدين منعهم من زيارة أهلهم.

صاحت في استنكار: أهل من؟ أولادي أحفاد «رستم باشا» وهم من سلالة الباشوات.

قال في برود: «رستم باشا» كان والده تاجر قماش بسيط ولم يكن سليل باشوات.. تذكري أصلك جيدًا، يبدو أن والدتك كانت محقةً حين قالت: إنك الوريثة الحقيقية والوحيدة لصفات «رستم باشا».

هتفت في زهو: هذا شرف لي.

قال في استخفاف: هل تظنين هذا؟ سأذهب الآن، وسأصحب أولادي معي ليصلوا أرحامهم، فلا أريدهم أن يرثوا صفات «رستم باشا».

تابعته ببصرها وهو يصحب أطفاله برفقته لزيارة أهله، تندم على زواجها منه، الهوة بينهما تتسع كل يوم، حين التقته في البداية بهرتها وسامته وقوة شخصيته واعتزازه بنفسه، كان شريكًا لأخيها في مشروع يعملان عليه معًا، التقته في مكتب أخيها حين مرت عليه ذات يوم في مكتبه، كان هناك ينهي بعض التفاصيل الخاصة بالمشروع، سقط صريع هواها منذ اللحظة الأولى، قاتل لأجل الفوز بها، رغم رفض «آسر» وقتها الذي أصر على أنهما غير مناسبين لبعضهما، شاركته أمها رأيه، يبدو أنهما كانا على حق وأنها كان عليها الاستماع إليهما، فها هي تدفع الثمن وحدها،

لا يمكنه أن ينسى أصله المتواضع، شجار كل جمعة لا ينتهى بسبب حرصه على أن تستمر علاقة أولاده بأهله، ألا يكفيه أنها تتركه يذهب إليهم كما يشاء، ولكنه يريد أن يفسد أولادها أيضًا، لن تسمح بذلك بعد الآن ولو كان الثمن هو طلاقها.

***

ألقى برأسه للخلف يحدق في سقف غرفته في شرود، غلبته عيناه لساعاتٍ معدودة، انتفض من نومه مذعورًا، أخذ يستغفر ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، التقط أنفاسه المتقطعة..امتدت يده دون أن يدرى يرن الجرس بلا انقطاعٍ جعلها تقطع السلم الداخلي ركضًا وهي تفتح الباب في لهفة هاتفةً: هل أنت بخير؟

لم يدرِ لمَ أسعدته لهفتها عليه فقال بابتسامة مرهقة: أنا بخير.. هل اتصلتم بـ «جيهان»؟.

هزت رأسها نفيًا فتابع: جيد؛ لا تخبروها.. صمت حائرًا ولكنها أنقذته من حيرته وهي تنظر إلى طبق الحساء الذي لازال على حاله قائلةً في عتاب: لديك مضاد حيوي قوي ستأخذه الآن.. يجب أن تتناول شيئًا لأجل صحتك.

أحضر حنفي طبقًا بديلًا، عاونه على تناوله كاملًا وسط تشجيعها له على إنهائه كأنه طفل صغير تستحثه والدته لكي يأكل طعامه، حمل حنفي الأطباق وانصرف بينما قالت هى في رضًا: سأعطيك الحقنة و تستريح بعدها.. هذا سيساعدك على التعافي.

تأملها لحظات قبل أن يهمس فى شرود: أتعلمين! منذ زمن بعيد لم

أجد من يهتم بي هكذا.. مرَّ عليَّ وقت كنت أحقد على كلاب «رستم باشا» لأنها كانت تلقى معاملةً واهتمامًا أفضل منِّي.

قالت فى فضول: من «رستم باشا» هذا؟

أسند رأسه للوسائد وهو يجيب في شرود: كان جدي..

لم يدر كيف قص عليها حكايته كاملة، لم يدر لمَ أخبرها بكل هذا، كان قد أعد روايةً مختلفةً تمامًا ليخبرها بها، لكنه وجد نفسه يخبرها الحقيقة.. صحيح هو لم يخبرها بعد بانتحار زوجته وما لاقاه بعدها، لأول مرة في عمره يقف حائرًا لا يدري ماذا عليه أن يفعل.. هل يخبرها بالحقيقة كاملةً أم يكتفي بما عرفته حتى الآن؟ استدار نحوها ليجد الدموع تسيل من عينيها فقال في دهشة: لم تبكين؟

لم تجبه، فتابع في مرح زائف: هل قصتي مؤثرة إلى هذا الحد؟

كفكفت دمعها وهي تجيب بابتسامة صغيرة: تشبه فيلمًا عربيًّا قديمًا شاهدته من قبل.

ضحك قائلًا: تُرى من أنا في الفيلم؟

- أنت البطل.

- حقًّا؟!

أجابته في صدق: من يستطيع النجاح دون أن ينحرف رغم كل ما مررت به هو حقًّا بطل.

نظر إليها نظرةً طويلةً فقالت متهربةً من نظراته: يجب أن تحصل على قسط من الراحة الآن.

أمسكت بالترمومتر تقيس حرارته وهي تقول: سأطمئن إلى انخفاض الحرارة حتى أنصرف وأنا مطمئنة.

خرج صوته على الرغم منه مرهقًا: إلى أين أنتِ ذاهبة؟ ستبيتين في الغرفة المجاورة ربما احتجت إليك.

أومأت برأسها في طاعة وهي تطفئ الأنوار وتغلق الباب خلفها.. حدَّق أمامه لحظات في الظلام الذي تسلل ضوء القمر الخافت فيه برفق، يُحاول أن يبدد شيئًا من ظلمة الكون، تأمل خيوط الضوء الفضية التي تسير أمامه مستقيمةً كأنما تتحدى وحشية الظلام باستقامتها، هو لا يكره الظلام بل على العكس يجد فيه راحته، فالظلام لديه له نكهة مختلفة، فلطالما سكب دموعه فيه، ولطالما ستر الظلام انكساراته، كان يكره أن يرى ضعفه أحد أو أن يُظهر مشاعره أمام أحد، لكنه كان إذا حل الظلام صرخ ليُحارب قهره، ويعلن عن ضعفه، ويسمح لبشريته بالظهور ويزيل ذلك الحائط الصخري الذي يواري خلفه جراح روحه.

***

أشرقت شمس الصباح وتسللت أشعتها حانيةً دافئةً إلى داخل الغرفة لتسقط على وجه «ياسمين» التي قضت ليلتها نائمةً على ذلك المقعد، نظرت إلى أشعة الشمس مذعورةً وهي تنقل بصرها إلى ساعتها لتقفز من مكانها كمن لدغه عقرب، أسرعت تغسل وجهها، انطلقت تقطع السلم ركضًا، اخترقت المطبخ كالسهم لتطلب منهم حمل طعام الإفطار والصعود للبك ومساعدته في تغيير ثيابه بينما تقوم «أم أحمد» بتنظيف حجرته وتهويتها ثم انطلقت صوب كوخها لتبدل ثيابها وتعود بسرعة البرق.

أخرجه صوت الطرقات المترددة على باب غرفته من كابوس سيئ، شعر بالامتنان لصاحبها وهو يسمح له بالدخول، أدهشه عدم وجودها

برفقتهم، فابتدرهم سائلًا: ألا زالت «ياسمين» نائمةً؟

أجابه «حنفي» وهو يضع طعام الإفطار بالقرب منه: لقد ذهبت إلى كوخها.. وطلبت منِّي مساعدتك في تغيير ثيابك.

قال في ضعف: لا أريد مساعدة.. فقط قم بإعداد الحمام.

خرج يستند إلى الجدار في ضعف، أسرع «حنفي» يساعده حتى وصل إلى الفراش الذي انتهت «أم أحمد» من ترتيبه وتغيير ملاءاته، ما إن استقر في فراشه حتى دخلت بابتسامتها الصافية وطلتها الملائكية، ارتاحت نفسه قليلًا لدى رؤيتها فأشار لها بالجلوس.

قالت في حذر وهي تنظر إلى طعامه الذي لم يمسه: لم تتناول إفطارك بعد وموعد الحقنة قد حان.

قال كطفل صغير يتهرب من علاجه: لقد رأيت كابوسًا أزعجني.. لأول مرة أرى زوجتي في الحلم.

توترت عضلات وجهها وهي تلوذ بالصمت فتابع:كانت توصيني بابنتي.. وتطلب مني أن أحميها.

همست في تردد: هل زوجتك بالمشفى؟

- لقد انتحرت زوجتي.. شهقت في ذعر، فتابع في مرارة: ظل الشك ينهشها من جهة، بينما تتمزق داخليًا مما آل إليه حالها حتى أنها في كثير من الأحيان كانت تقوم بالاعتداء على «سيليا» بالضرب، ثم تنهار باكية، كنت في الآونة الأخيرة أصحب ابنتي معي ولا أتركها بمفردها مع أمها فما عدت أأتمنها عليها حتى أقدمت على الانتحار، لم يكن هذا أسوأ ما في

الأمر.. فقد اتهمتني أسرتها بقتلها وتم إلقاء القبض عليَّ.. لولا عناية الله لكنت لازلت في السجن، نجوت بفضل الله وحده ولكنَّ أسرتها أخفت ابنتي واستغلوا فترة سجني وحصلوا على حق حضانة ابنتي ولم أتمكن من رؤيتها حتى الآن.

صاحت في غضب: كيف يحرمون أبًا من رؤية ابنته؟ وكيف يحرمون طفلةً فقدت أمها من حنان أبيها؟ كيف لأم أن تدمر ابنتها وحفيدتها؟ أي نوعٍ من البشر هؤلاء؟!

أجابها في مرارة: لأن مشاعر الكراهية والتعصب هي ما يحركها، لا مشاعر الأمومة، فعندما تمتلئ النفوسُ حقدًا وكراهية لا مبرر لها سوى اختلاف الجنس والدين، حينها يعتنق الإنسان العنصرية، فيفقد روحه ويصبح عاريًا من انسانيته مجردًا من بشريته، ويتحول إلى مسخٍ يبيح لنفسه ارتكاب كل الخطايا بحق الآخرين.

قالت في أسى: وماذا ستفعل؟ هل ستترك ابنتك بين أيديهم؟

مال نحوها قائلًا فى جدية: كلا بالطبع ولكني أحتاج إلى مساعدتك.. صمت لحظة قبل أن يتابع في حذر: لقد كلفت رجلًا هناك سيخطف ابنتي ويُحضرها إلى هنا.

حدقت في وجهه بذهول رافق كلماتها المتوترة: كيف تفعل ذلك؟.. كيف تعرض ابنتك لتجربة رهيبة كهذه؟ لم لا ترفع قضيةً وتطالب بضم ابنتك لحضانتك؟

- هل تظنين أن الأمر سهل عليَّ، ليس أمامي خيار آخر خاصةً وأنا

أعلم يقينًا أن أهل والدتها سيقومون بإخفائها حتى لو وصل بهم الأمر للتخلص منها.

- وكيف تضمن أن خاطفيها لن يؤذوا ابنتك أو يطلبوا منك فديةً كبيرةً لقاء تسليمها لك؟

أجابها فى هدوء: أنا لا أترك شيئًا للظروف لقد أمَّنتُ رحلتها بالكامل خطوةً بخطوة، كما أن من سيقوم بخطفها هو رجل مدين لي بحياته ومستعد لفعل أي شيء ليرد لي الجميل.. فالمنحة قد تأتي في ثوب المحنة أحيانًا، فلم أتخيل لحظةً أن بقائي في السجن عدة أيام كنت أظنها الأسوأ في حياتي، أنها ستكون طوق نجاتي بعد ذلك، صمت لحظةً ثم تنهد متابعًا: عندما تم احتجازي، تعرفت على «زيلمان» هناك.. هو رجل عصابات مخضرم.. يتم استئجاره من قبل رجال الأعمال للقيام بعملياتٍ قذرة لتخليصهم من أعدائهم، أراد أحد رجال الأعمال التخلص منه في السجن حتى لا يزج باسمه في أمرٍ ما، لم أكن أعلم شيئًا عن هذا فقد كان «زيلمان» يمر بوعكة صحية وحاول أحدهم قتله فقمت بحمايته دون أن أعرفه.. ولم ينسها لي «زيلمان» وأخبرني أنه مدين لي بحياته، وطلب أن أظل على تواصل معه في حال احتجت شيئًا، وعندما أخبرته بأمر ابنتي وعدني أن يُحضرها لي سالمةً إلى مصر، ولكن ينقصنا الآن شيئان، يجب أن تبقى هنا دون أن يعرف أحد أنها ابنتي على الأقل سنةً كاملة.. أكون خلالها قد وصلت لحلولٍ قانونية وأيضًا تكون قد ارتبطت بي ويمكنها الاختيار أين تريد أن تعيش؟ أما لو عُرف الأمر قبل ذلك فقد يتم الزج بى

فى السجن وأخسر ابنتي إلى الأبد.

اتسعت عيناها فى ذعر فتابع: لقد فكرت في كل شيء.. لو تم إحضار «سيليا» إلى هنا مباشرةً فستكرهني ولن تتقبل وجودها هنا وقد تحاول الهرب منى.. خاصةً وأنا لا أدري ما الذي أخبروها به عني، لذا فكرت أن يكون مكان التسليم بعيدًا عن هنا، وسيوهمها «زيلمان» أنه قد خطفها لطلب فدية مالية كبيرة من أبيها الثري في مصر، وستقومين بلعب دور امرأة قامت العصابة بخطفها هي الأخرى، وتقومين بالتقرب منها حتى لا يكون الأمر عصيبًا عليها حين تجد نفسها وحدها بين أغراب عنها.

همست في توتر: ولكننا بهذا نقوم بخداعها.

- ألديك حلٌ آخر؟ أيهما أفضل لها أن أتركها تحيا بين أيدي من دمروا عائلتها، وتسببوا في موت أمها، وحاولوا إلقاء أبيها في السجن ولا أدرى ما الذي قد يفعلونه بها هي الأخرى.. أم أحضرها إلى هنا مخطوفةً فتصدق عني ما رسموه في عقلها زيفًا وكذبًا وتظل تكرهني طيلة عمرها وفي كلا الحالتين أكون قد خسرت ابنتي للأبد؟!

هزت رأسها في استسلام وهي تتمتم: أنت محق.. متى ستصل؟

أجابها في امتنان: نهاية الأسبوع المقبل.. لست أدري كيف يمكنني أن أشكرك.

-الأمر لا يستحق كل هذا.. أي شخص غيرى سيرحب بمساعدة طفلة في ظروفها.

-لم أكن لأسلِّم ابنتي لأي أحد.. خاصةً أنني يجب أن أمارس حياتي

بشكل عادي حتى لا ألفت الأنظار، ولم أكن لأتركها مع شخصٍ لا أثق به، سأتصل بـ «حمدي» ليرسل مُدرِّسة اللغة الألمانية.. أرجو أن تبذلي قصارى جهدك لتتعلمي منها قدر المُستطاع.

- سأحاول.

اعتدل في فراشه وهو يقول بجدية: لا حاجة لي بتذكيرك بسرِّيَّة كل ما أخبرتك به.. حياة ابنتي وحياتي بين يديك الآن.

قالت في عزم: اطمئن سأحمي سرك بحياتي.

ساد الصمت لحظات شعرت فيها بالارتباك جراء نظراته المسلطة عليها، فقالت فى سرعة: لقد شدد الطبيب على ضرورة الراحة.. سأتركك الآن لتستريح.

تابعها ببصره لحظات ثم تنهد في راحة وهو يتمتم بكلمات الحمد قبل أن يسترخي في فراشه ويغرق في سبات عميق.

***

ألقت بتعليماتها للعاملين في المطبخ على ضرورة إعداد الطعام مسلوقًا بالكامل لـ «البك» في تمام الثانية ظهرًا، جلست في الحديقة شاردة.. تفكر في كل ما أخبرها به، تلوم نفسها لأنها لم تخبره بأمرها والخطر الذي يُلاحقها ولكنها خشيت أن تخبره فيظن أنها تتهرب من مساعدته، أخرجها من شرودها ذلك الظل الذي سقط عليها وحجب أشعة الشمس عنها، رفعت رأسها لتجد «علاء» واقفًا أمامها، ارتسمت على محياه ابتسامة واسعة.. ابتدرها قائلًا: كيف حال «عاصم بك» اليوم؟ هل يمكنني رؤيته؟

أجابته في ارتباك: لقد تحسن بعض الشيء.. سأطلب من عم «حنفي» أن يستأذنه فقد تركته نائمًا.

استوقفها قائلًا: كنت أود أن أعرف رأيك فيما أرسلته لكِ مع «أحمد».

قالت في صرامة: هل تقصد تلك الوردة؟ أنا لا أتلقى هدايا من أحد ولا أسمح بذلك، وأرجو ألا يتكرر ذلك مرةً أخرى.

هتف فى سرعة: لقد أسأتِ الفهم.. لم أرسلها كهدية، أنا أقوم بعمل تجربة لإنتاج زهور جديدة وهذه أول زهرة نتيجة التهجين وأردت أن أحصل على رأيك فيها.

شعرت بالحرج فهي لم تجد الوقت الكافي للنظر إليها ولا تتذكر حتى شكلها، تمتمت بارتباك: في الحقيقة لقد حدثت ظروف وقتها منعتني من رؤيتها.

قال في لهفة: يمكنني أن أرسل لكِ غيرها.. أو ربما يمكنكِ الحضور إلى المزرعة لرؤيتها في مكانها.

هزت رأسها بارتباك وهي تنصرف بخطوات حاولت أن تجعلها ثابتة، بينما يمرح القلق بداخلها فآخر ما تحتاج إليه هو أن تجد من ينضم لقائمة من يُحاولون معرفة أسرارها، والكشف عما ألقته خلف ظهرها، ولكنها لا تكشف عن أسرارها أبدًا، فالحكمة العربية تقول: "سرك من دمك فانظر أين تريقه"، ويكفيها ما أراقته من دماء.

***

حملت بعض الزهور الجميلة وكوبًا من عصير البرتقال، ابتسم حين رأى الزهور، قال فى مرح: وجدتني لا أستطيع النزول إلى الحديقة فأحضرتِ الحديقة إليّ!

بادلته الابتسام وهي تناوله كوب العصير قائلةً: شيء من هذا القبيل.. ميعاد الدواء قد حان.

شرد ببصره في باب غرفته المفتوح، يروقه حرصها على ترك باب الغرفة مفتوحًا.. منذ عملت عنده وتلك عادتها، يُطمئنه هذا إلى حُسن أخلاقها.. يطمئن إلى تربية ابنته فيما بعد، أخرجه صوتها من شروده وهي تقول: يجب أن تتناول العصير.

تطلع إلى يدها الممدودة بالكوب، تناوله شاكرًا، ساد الصمت لحظات قبل أن يقول في بطء: ما الذي جعلكِ توافقين على مساعدتي فلو تم كشف الأمر ستقعين في مشكلة كبرى؟

- أدرك شعور فتاة فقدت أمها وهي صغيرة، لقد عوضني أبي كثيراً.. لذا أجد نفسى مدفوعةً لمساعدة «سيليا» حتى يعوضها حنانك عن فقدان أمها، كما أنني أثق بأنك لن تتركني في مشكلة وحدي.

- هل يمكنني أن أسألك سؤالًا.. وأرجو أن تفهميني بشكلٍ صحيح.

أومأت برأسها مشجعًة فتابع: ألا يوجد خلفك أي مشاكل قد تؤثر على وجود «سيليا»؟

أجابته في مرارة: كل مشاكلي تتلخص في زوجي السابق.. أنا في أمان طالما أنا بعيدة عنه.

أزعجته تلك المرارة التي تقطر من حروفها فقال: ما الذي تتوقعين أن يفعله إن وصل لمكانك؟

أجابته في ألم: كل شيء.. هل أحضر لك بعضًا من الفاكهة؟

أدرك محاولتها لتغيير دفة الحديث فقال: سأجلس في التراس قليلًا.

نهضت من مكانها لتستدعي «حنفي» لمساعدته لكنه أوقفها بإشارة من يده وهو يقول: يمكنني الخروج وحدي.

سبقته تفتح له باب التراس وتهيئ له مجلسًا داخله، جلس محدِّقًا في حديقته لحظات، تنهد قائلًا: لا يشعر الإنسان بقيمة النعمة حتى يفقدها.

ساد الصمت لحظات قبل أن تقول فى تردد: كنت أريد أن أستفسر عن شيء.. عندما تأتي «سيليا» إلى هنا بم سنخبر العاملين في المنزل؟

- سأخبرهم أنها ابنة رجل قريب مني للغاية، كان يعيش في الخارج وستبقى لديَّ حتى تتحسن ظروفه.

- ألا تثق بهم؟

- أنا أثق بهم، ولكن هناك قاعدة في عالم المخابرات تقول "كلما قل ما تعرفه كلما قل ما يمكنك البوح به"، فإذا وقعوا تحت ضغط ما، فلن يتفوهوا بحرف لأنهم لا يعلمون شيئًا من الأساس.

أمنَّت على كلامه، نهض من مكانه في ضعف وهو يقول: أشعر بالبرد.

هتفت في سرعة: سأحضر لك مشروبًا ساخنًا.

تمتم في إرهاق وهو يتدثر في فراشه: ليس الآن سأرتاح قليلاً.

تابعته ببصرها حتى استقر في سريره، ثم أغلقت الباب خلفها في هدوء، أغلق عينيه وشعور بالدفء يملؤه، لم يشعر بهذا الشعور منذ سنوات، منذ وفاة والدته تحديدًا.. فقد بوفاتها كل ما أحاطته به من حب وحنان واهتمام، لم يشعر أن هناك من يهتم لأمره منذ زمن، لكم تمنى أن يجد من يهتم لأمره بصدق، من المؤلم حقًّا أن يصبح الاهتمام أمنيةً بعيدة المنال.

الفصل السادس

اقتحمت سيارة حمراء فارهة بوابة القصر الخارجية المفتوحة في سرعة، أطلت قائدتها ذات الشعر الأشقر المصبوغ من نافذة السيارة وهي تسأل «سليمان» الذي أخذ يعدو خلف سيارتها عن مكان وجود سيده، وقف بجوارها يلهث.. يحاول أن يلتقط أنفاسه بينما ترجلت هي لتكرر سؤالها بصبرٍ نافذ. أجابها من بين أنفاسه المقطوعة: سأخبره بقدومك فهو مريض و سأ...

لم تنتظر أن يكمل جملته فقد أسرعت تصعد الدرج المؤدي لباب القصر الداخلي، انطلقت في قفزات متتالية تصعد للدور العلوي قبل أن تقتحم غرفته، وتلقي بنفسها عليه هاتفةً: حبيبي.. لقد كدت أموت من الرعب حين أخبرني «سليمان» بمرضك.

هتف في دهشة: «لميس».. ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

تطلعت إلى «ياسمين» التي بدا من الواضح أنها قد انتهت للتو من إعطاءه حقنة، ظهر من خلفها «سليمان» الذي قال لاهثًا: لقد سبقتني الهانم إليك.

قال «عاصم» في هدوء: «لميس» هانم تأتي في أي وقت.

لم تدر ما سر النار التي اشتعلت في أحشائها وهي ترى تلك الابتسامة الواثقة التي علت وجه «ليس» بينما يدفعها عن صدره برفق.. تأملتها لحظات كانت تشبه الممثلات بشعرها الأشقر المصبوغ وبشرتها التي اختفى لونها الأساسي من مساحيق التجميل وعينيها الزرقاوين بلون العدسات اللاصقة التي أخفت اللون الحقيقي لبؤبؤ عينيها، رغم أن جمالها صناعي إلا أنها بدت جميلةً حقًا، لا يمكنها أن تنكر أنها تمتلك جسدًا مثاليًّا أظهره فستانها الضيق القصير الذي شف عن ثراء صاحبته بوضوح، ساعد على ذلك القطع الماسية التي تألقت في يدها، نفضت عن نفسها ما بها وهي تُقرِّب لها كرسيًّا قائلةً في ضيق: يمكنكِ أن تستريحي هنا أفضل.

تطلعت إليها «ليس» في برود قائلةً: وأنتِ من تكونين؟ الممرضة؟

تصاعد دخان تلك النار التي تشتعل في أحشائها أمام عينيها فأعماها، اندفعت تقول بغضبٍ مكتوم: لا يعنيكِ من أكون.. ما يعنيكِ أن تعرفيه هو أن هذا البيت له قواعد وأصول لا يجب أن يتخطاها أحد مهما كان.

صاحت «ليس» في غضب وهي توجه سؤالها إليه: من هذه؟ وكيف تكلمني بهذا الشكل؟!!

قال في حزم وهو يشير لـ «ليس» بالجلوس في الكرسي الذي أحضرته لها: ارتاحي هنا.

ثم التفت إلى «ياسمين» قائلًا: شكرًا لكِ يمكنكِ الانصراف الآن.

رمتها «ياسمين» بنظرة متحدية قبل أن تخرج، بينما صاحت «ليس» في ثورة: من هذه يا «عاصم»؟ وكيف تحدثني هكذا؟

قال بصبر: هل حدث شيء؟ ما الذي دفعك للقدوم؟ هل والدك بخير؟

- يبدو أنني أخطأت بقدومي إليك؟

قال في استياء: ما الداعي لهذا القول؟

قالت وهي تنهض من مكانها متجهةً نحو الباب: يبدو أنني غير مرحب بي هنا.. عمومًا إذا احتجتني أنت تعرف أين تجدني. ثم أغلقت الباب خلفها في عنف.

زفر في ضيق: هذا ما كان ينقصني.

***

«ما الذي ينقصك هنا؟» نطقت تلك الشرطية الشقراء بهذه العبارة في استنكار وهي تحدق في وجه «خالد» بدهشة، زفر في حنق: لا شيء ينقصني ولكني أريد العودة إلى بلدي.. لديَّ الكثير من الأعمال هناك.

هتفت في استنكار: ولكنك لم تتعافى بشكلٍ كامل.. أنت تحتاج لأن تظل تحت المتابعة لبعض الوقت فقد كانت إصابتك خطيرة والكسر كان مضاعفًا.

قال في ملل: سأحدد هذا مع الطبيب.

أشاح بوجهه يتأمل حركة المدينة خلال تلك النافذة الزجاجية، يعشق الحركة ويكره السكون، يكره أن يظل ساكنًا في مكانه، الحركة هي الهدوء بالنسبة له، لقد اعتاد أن يجد راحته وسط الحركة والفوضى، يستمتع حين يكون قادرًا على الثبات حين يتخبط الآخرين في خوفهم.. أما الآن وقدمه ساكنة سكونًا إجباريًا داخل تلك الجبيرة، فهو الذي يتخبط في سكونه، يجب عليه العودة قبل أن يحلق الطائر بعيدًا ولا يمكن العثور عليه.

***

راحت تذرع غرفتها جيئةً وذهابًا، كانت تغلي من الغضب، حمم ملتهبة تحرق داخلها.. لا تدري لم غضبت بهذا الشكل حين تطاولت عليها تلك المرأة، لا تدري لم اشتعلت أحشائها حين ألقت بنفسها عليه، شعرت كأنما تلقت لكمة في معدتها، ربما لأنها تأنف من الابتذال، أم أنها لم تعتد أن تره بهذا الشكل من قبل.. كل ما تعرفه الآن أنها غاضبة كما لم تغضب من قبل حتى في أحلك ظروفها.

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى أرسل في طلبها، أشار لها بالجلوس.. كان وجهها شفاف كلوح من البلور، يستطيع أن يقرأ ما يعتمل في داخلها على صفحة وجهها، حاول أن يتجاهل غضبها، ولكن شيئًا داخله دفعه لسؤالها عما يزعجها، أشعرته إجابتها المقتضبة بصدق ما استشفه من ملامحها، فعاد يقول في إصرار: هل أنتِ غاضبة لأنني لم أقدمك إليها؟

– كلا.. فهذا أفضل، هل ترغب في تناول الغداء الآن؟

– إذا أردتِ الانسحاب من موضوع «سيليا» فأخبريني.

– الأمر ليس له علاقة بـ «سيليا».. لقد ذقت مرارة اليُتم رغم رعاية والدي الكبيرة، ولا أريد لـ «سيليا» أن تعايش هذا الشعور بل سيكون زائدًا عليها شعور الغربة.. لقد حان موعد الدواء الآن.

أتبعت قولها بأن سكبت الدواء في الملعقة وناولته إياها، تعلقت عيناه بوجهها يحاول أن يستشف منه شيئًا، لكن ملامحها كانت جامدةً تمامًا، لم يشأ أن يضغط عليها أكثر فقال: يمكنك الذهاب وإذا احتجتُ شيئًا سأطلبه من «حنفي».

شعرت بالضيق من نفسها فهمست في رفق: سأبقى بالأسفل إن احتجت شيئًا سآتي على الفور.

***

فركت «فريدة» كفيها في توتر، يكاد القلق على أخيها يدمر أعصابها، لم يكن من عادته قط أن يُخفي عنها شيئًا يخصه.. لطالما كانا صديقين مقربين أكثر من كونهما أخًا وأخته، فاجأها خبر طلاقه من زوجته بعد زواج استمر عامين فقط، تعلم كم كان يُحب زوجته، هو ليس من ذلك النوع الذي يُعلن عن مشاعره ولكنها كانت واثقة من هذا، لذا أذهلها هذا الأمر وأثار داخلها العديد من التساؤلات ولكن أكثر ما أثار حنقها هو إخفاؤه لأسباب طلاقه عنها، تشعر أن خلف كتمانه هذا سر يمس كرامته ويجرح كبرياءه، لطالما كان يحمي كبرياءه ويخفي كل ما يجرحه، كان يخفي عنها أنه يتألم لهجر والدهما لهما ولكنها كانت تعلم دون أن يَبُوحَ بشيء بما يعتمل داخله، كانت تتظاهر أمامه بأنها لا تعلم شيئًا وتحرص على سؤاله عما يزعجه وتتظاهر بتصديق إجاباته المبهمة، كانت تعلم كم يتمتع بالكبرياء كأنما وُلد متسربلاً فيه حاملاً لونه.

***

مر اليوم كئيبًا بطيئًا.. لم يُخفف من وطأته إلا جلوسها للقراءة بعض الوقت، بينما رقد هو في فراشه بالأعلى مستسلمًا للقلق الذي راح ينهش داخله على ابنته.. يشفق عليها من تجربة رهيبة كهذه، لا يمكنه المخاطرة بتركها بين أيديهم، ولكن ماذا بيده أن يفعل، تذكر لقاءه بـ«علاء» وما أخبره به من لهفة والدته للاطمئنان على صحته، كم يحب هذه السيدة،

إنها تذكره بوالدته رحمها الله، لها نفس طيبتها وحنانها بل ونفس رائحتها.. أم أن الأمهات كلهن متشابهات يحملن نفس الصفات، نهض من فراشه وكأنما دبت الصحة في جسده فجأة، ارتدى ثيابه وهو ينزل السلم في بطء، وقع بصره عليها وقد جلست تقرأ في أحد الكتب.. قفزت كالملسوعة فور رؤيته في كامل ثيابه، كادت تفقد صوابها عندما أخبرها أنه سيذهب إلى المزرعة ممتطيًا حصانه.. صاحت في استنكار: وتريد ركوب الحصان أيضًا.. أنت لم تسترد عافيتك بعد؟

أجاب كتلميذ يبرر لوالدته رغبته في الخروج: والدة المهندس «علاء» سيدة قعيدة وستأتي لرؤيتي إن لم يكن اليوم فغدًا ولا أريد إرهاقها.. كما أنني سأسافر غدًا.

صاحت في جزع: تسافر؟!! هذا مستحيل.. ما زلت بحاجة إلى الراحة.. وإذا كان من الضروري أن تذهب للمزرعة فلتذهب بالسيارة ولا تركب الحصان.

قال في خضوع أذهل كلاهما: حاضر.

تطلعت إليه لحظات في صمت، وقفت تستجمع نفسها، الدهشة تتعاظم داخلها وهي تسأل نفسها كيف تعاملت معه بهذه الطريقة، لقد عاملته كأم تخشى على صحة ابنها.. أو كزوجة قلقة على زوجها، أخرجها من ذهولها صوت «سليمان» وهو يدخل معلنًا عن قدوم المهندس «علاء» ووالدته، خرج «عاصم» بنفسه لاستقبال السيدة في الحديقة، انحنى على يديها يقبلها، وهو يقودهم إلى تكعيبته المفضلة قائلًا: لقد كنت في طريقي إليكِ.. لمَ أرهقت نفسك بالقدوم؟

أجابته السيدة في صدق: أنت ابنى الذي لم أنجبه.. كيف تمرض ولا أكون بجوارك؟

تدخل «علاء» في الحوار: لقد حاولت منعها، لكنها نهرتني وارتدت ثيابها وأصرت على الحضور.. أنت تعرف كم تحبك؟

ابتسم في ود وهو يلتفت إلى «ياسمين» التي وقفت على مقربة منهم ترقب ذلك الجبل الذي انحنى يقبل يد سيدة قعيدة ابنها يعمل عنده.. يبدو أن «عاصمًا» الحقيقي مختلف تمامًا عن ذلك القاسي المتعجرف الذي التقت به في أول عملها، أخرجها من شرودها صوته يطلب منها إعداد الغداء وإحضاره في الحديقة، همت بالانصراف لتنفيذ طلبه، لكن «علاء» استوقفها وهو يقدمها إلى والدته في لهفة.. تأملتها السيدة بنظرة متفحصة ثم ابتسمت ابتسامةً واسعةً وهي تقول: كيف حالك يا ابنتي؟

صافحتها «ياسمين» في أدب متمتمة بكلمات الحمد فتابعت السيدة: لقد حدثني ابني عنكِ كثيرًا.. عن أدبك وأخلاقك ولكني أرى أنه لم يوفِك حقك.

تخضب وجهها بحمرة الخجل، بينما عبرت سحابه غضب وجه «عاصم» وهو يلتفت لـها في حدة طالبًا منها إعداد الغداء، أجفلتها حدته فانسحبت في ارتباك، غابت لدقائق معدودة ثم عادت برفقة «حنفي» و«أم أحمد» يحملون طعام الغداء، راحت تساعدهم في إعداد مائدة صغيرة في الحديقة قبل أن تدعوهم إليها في حين رحبت «أم أحمد» بالسيدة ترحيبًا بالغًا، هموا بالانصراف ولكن السيدة قبضت على يد «ياسمين» وهي تستوقفها قائلة: اجلسي معنا.. لقد انفتح لكِ قلبي.

ظهر التوتر والارتباك على وجه «ياسمين»، يممت بصرها شطر «عاصم» الذي ظهر الاستياء على وجهه وهو يقول في اقتضاب: أعتقد أن وراءها الكثير من العمل.

شعر الجميع بالحرج وهي تسارع بالاستئذان للانصراف تكاد تتعثر في مشيتها من الخجل.. ها هو «عاصم» المتعجرف القاسي يعود للظهور.

انتهوا من الطعام الذي لم يمس منه إلا لقيمات، يشعر بالضيق لأنه تسبب في إحراجها، لم يدر سببًا لتصرفه هذا سوى أن نظرات «علاء» ووالدته لها أزعجته إلى أقصى حد.. لا يدرى لمَ؟ فقط امتلأت نفسه بالضيق والقلق فجأة، قرر أن يكفر عن خطأه فأرسل يستدعيها لتتناول الشاي معهم، اعتذرت في البداية ولكنها وافقت تحت إلحاح «أم علاء» التي أجلستها بجوارها وراحت تربت على ظهرها في حنان، ارتاحت قسماتها وهي تجلس بجوار تلك السيدة، منذ سنوات عدة لم يحطها أحد بحنانه مثلما تفعل هذه المرأة، جلست بجوارها كقطة تنشد حنان صاحبتها حتى بدد «علاء» سحر ذلك الشعور وهو يسألها عن تاريخ تخرجها من كلية الهندسة؟ توترت عضلات وجهها وعلا القلق ملامحها، فتابع بلهجة عادية: لي الكثير من أصدقائي ارتادوا كلية الهندسة وأردت أن أرى هل كان أيًا منهم في دفعتك؟

أخرجها «عاصم» من حيرتها حين قال فى برود: وما علاقة «ياسمين» بأصدقائك؟ أم تُراك أحضرت لها عملًا في مكانٍ آخر؟

حار «علاء» في البحث عن رد، فأسرعت والدته ترفع عنه الحرج وهي تجيب بدلًا منه قائلةً في هدوء: مجرد تعارف يا ولدي.. لقد اطمأننت عليك، يمكننا الانصراف الآن.

ودعتهم السيدة في حرارة، وهي تتحرك أمام ابنها الذي راح يدفع بكرسيها المتحرك برفق.. بينما جلس هو شاردًا يحدق في قبته الشجرية، وفى أعماقه المظلمة تنبت الحيرة، يتخبط في مشاعره الغامضة، لا يفهم سببًا لاضطراب داخله الذي يغلى كبركان ثار فجأة دون أن يعرف السبب، يكتوي بحممه دون أن يفهم لمَ ثار من الأساس، يعتريه القلق دون سبب واضح، عليه أن يفهم ما يحدث له قبل أن يبتلعه البركان الذي بداخله.

***

تطلع «آسر» إلى صورة ضمته وزوجته التي طلقها دون أن تعرف السبب، شوقه الجارف إليها يكاد يقتله، ولكن عليه أن يتسلح بالقوة، لا يمكنه أن يعيش على أنقاض أمومتها، لا يمكنه أن يقتات على مشاعرها، هو ليس من هذا النوع الذي يقبل شفقة الآخرين، فكيف يقبل بأن يتحول حب زوجته له إلى مجرد شفقة؟ كيف يتحمل أن تبقى زوجته معه وهو نصف رجل، رجل لا يمكنه أن يمنحها أغلى أمنية لامرأة وهي أن تصبح أُمًّا، كان الطلاق هو خياره الوحيد عندما تلقى نتيجة التحاليل الخاصة به وبزوجته، وعلم أنها ليس لديها ما يمنعها من الإنجاب سوى اقترانها برجل عقيم مثله، كان عليه أن يتحرر من أنانيته ليمنحها حريتها، كان عليه أن لا يحرمها من حلم الأنثى الحقيقي لأجل حب وهمي سيتبخر عند أول اصطدام بجدار الحقيقة، لا يقبل أن يضع نفسه في كفة الاختيار هو أو رغبتها في الأمومة، هو لا يتحمل أن يكون عقبةً في طريقها، لقد أحبها حبًّا خالصًا وعليه أن يقوم بواجبه حتى النهاية.

***

أشرقت شمس اليوم التالي على القصر الذي امتلأ بالحركة، نزل «عاصم» إلى البهو مرتديًا كامل ثيابه، كان من الواضح أنه لم يذق للنوم طعمًا.. بدا ذلك واضحًا من تلك الظلال السوداء التي ظهرت أسفل عينيه بوضوح، تبعته إلى غرفة مكتبه، وقف يجمع بعض الأوراق في سرعة وهو يقول: معلمة اللغة الألمانية ستصل بعد قليل وليس أمامنا الكثير من الوقت.. أعلم أن الأمر ليس سهلًا لذا ابذلي جهدك لتتعلمي قدر المستطاع.

دار حول مكتبه ليقف أمامها متابعًا: لقد وضعت مستقبلي ومستقبل ابنتي بين يديك، و أثق بأنكِ لن تخذليني.

تهدج صوتها وهي تقول: اطمئن سأبذل قصارى جهدي.

همس في بطء: شكرًا لكِ.. بالمناسبة ستصل «سيليا» فجر السبت المقبل.

قالت في أمل: ستصل سالمة إن شاء الله.

هم بقول شيء ولكن صوت سيارته التي اخترقت الحديقة جعله يلزم الصمت وهو ينظر من النافذة متابعًا بعينيه تلك السيدة البدينة التي نزلت من سيارته وهي تدفع جسدها خارجها بجهدٍ كبير، خرج من مكتبه لاستقبالها تبعته هي.. عرّفَها السائق به فأومأت برأسها مرحبة، دعاها للجلوس قائلًا في لهجة عملية: المبلغ الذي ستحددينه ستحصلين عليه فقط أريد نتيجةً سريعة.. أريدها في نهاية الأسبوع قادرة على التحدث بالألمانية.

قالت المُدرسة: أين هي الطالبة أولًا؟

أشار «عاصم» لـ «ياسمين» فتابعت المُدرسة: جيد؛ أعتقد أنكِ لن تتعبيني.

طمأنتها «ياسمين» بقولها: إن شاء الله.

هزت المُدرسة رأسها قائلة: سنرى.. ولكن لمَ تريدين دراسة الألمانية في أسبوع؟

أجابها في صرامة باردة: لأننا نريد أن تدرسها في أسبوع وأعتقد أن الأسباب لا تعنيكِ في شيء

تجاهلت لهجته الباردة والتفتت لها تسألها: هل ستسافرين إلى ألمانيا بعد أسبوع؟

أجابها بنفاد صبر: شيء من هذا القبيل.. سأتركك الآن وسآتي في نهاية الأسبوع أتمنى أن تكون قد تعلمتْ الكثير في اللغة، بالمناسبة أنا أجيد الألمانية كأهلها.

قالت في سرعة: ولمَ لم تقم بتعليم المدام بنفسك أم أن باب النجار..... أكملت عبارتها بضحكة قصيرة ساخرة.

أجابها في برود: نعم باب النجار.

التفتت لـ «ياسمين» قائلةً: هكذا هم الرجال لا يقومون بالمساعدة في بيوتهم بعد الزواج. لكن إن كنتم لا زلتم في فترة الخطوبة لجلس يُعلمك ليل نهار دون ملل.

فتحت فمها لترد عليها ولكنَّ «عاصم» أسكتها بإشارة من يده قائلًا في سخرية: هل أتيت لتهدئة النفوس؟

أجابته في لا مبالاة: أبدًا ولكنني أشعر بالغيظ من هؤلاء الرجال الذين لا يتعاونون بالمنزل.. صمتت لحظةً ثم عادت ببصرها إلى «ياسمين» وهي تقول: ألم تنجبوا أطفالًا بعد؟

تمتمت بارتباك: الأمر ليس...

قاطعها «عاصم» وهو يقول بنفاذ صبر: نعم .. هل هناك تفاصيل أخرى ترغبين بمعرفتها؟

هزت رأسها نفيًا، فتابع في ضيق: أين تعملين بالضبط؟

أجابته في هدوء: في بيتي.. صمتت لحظةً وبدا أنها ستكتفى بتلك الإجابة قبل أن تتابع: لقد عاش والدي رحمه الله فترةً طويلةً في ألمانيا ولما أنجبني كان دائمًا يتحدث معي بالألمانية وألحقني بمدرسة ألمانية.. صمتت لحظة ثم التفتت لـ «ياسمين» متابعةً: وتزوجت رجلًا كزوجك تمامًا لا يتعاون في البيت قط.. ألقى بالحمل كاملًا عليَّ فاضطررت للاستفادة من الشيء الوحيد الذي أجيده وهو تعليم اللغة الألمانية، قمت بنشر إعلان في الجريدة واتصل بي شخص من طرفكم وأخبرني أنه يريدني أن أقوم بتعليم امرأة ستسافر بعد أسبوع.

-ولم كل هذه الأسئلة وقد شرح لكِ الأمر؟

- يجب أن أتأكد بنفسي، أنتم تقطنون فى منطقة نائية وسأقضى في بيتكم أسبوعًا بكامله.

- اطمئني يا حاجَّة.. فأنا لن أبقى بالبيت وستكونين هنا على راحتك.

صاحت في استنكار: حاجَّة؟! كم تظن عمري أيها السيد لتناديني هكذا؟ ثم التفتت إلى «ياسمين» وهي تهتف في غضب: زوجك عديم الذوق.. كيف تتحملين رجلًا كهذا؟! كان الله في عونك.

تطلعت «ياسمين» إلى وجه «عاصم» الذي احمرَّ في شدة وهم بأن يقبض على عنق المُدرِسة ثم انفجرت ضاحكةً والمُعلمة تتابع في استعلاء: أعدي لي طعام الإفطار واستعدي لنبدأ بسرعة.

أشارت «ياسمين» إلى «أحلام» التي خرجت لتوها من باب جانبي في البهو لترافق المعلمة إلى غرفتها بالأعلى.

تابعها «عاصم» ببصره، همس في غضبٍ مكبوت: إنها امرأة مختلة عقليًا، كيف أحضرها «حمدي»؟ تبدو امرأةً فضوليةً للغاية.. لا تعطِها أية معلومات.

ابتسمت وهي تجاهد لتمنع ضحكاتها من الانطلاق: اطمئن يمكنني التعامل معها جيدًا.

قال وهو ينصرف: إذا احتجتِ إلى شيء اتصلي بي.

وقفت تتابعه بعينيها وهو يستقل السيارة لينطلق سائقه بها على الفور.. مشاعر مختلطة شعرت بها وهي تراه يبتعد لا يمكنها أن تفهمها، تشعر وكأن جزءًا منها قد رحل عنها، يثير في نفسها حيرةً دائمًا، تمر بها لحظات شديدة الغموض، لا تفهم فيها نفسها ولا يُمكنها ترجمة مشاعرها، لكن إحساسًا غامضًا، حدسًا مفاجئًا، ينبئ أن شيئًا قد انتهى، قد انكسر، ولا بد أن يقوم على أنقاضه شيء آخر.. نفضت عن نفسها ما بها وهي تستعد لتلقي أول دروسها.

***

نزلت المـُعلِمة درجات السلم في خفة لا تتناسب مع وزنها.. استقبلتها «ياسمين» بابتسامة واسعة وهي تقول: لم تخبريني باسمك بعد؟

أجابتها في فخر: مدام لويز.

قالت «ياسمين» في ترحاب: هل تحبين تناول شيء معين في وجبة الإفطار؟

أجابت في ابتهاج: نعم اللبن والعسل شيء أساسي بالإضافة إلى البيض والجبنة، لكن إذا أضفتِ إليهم طبقًا من الكبدة المحمرة وطبقًا من الفول يكون هذا رائعًا.. ولا شيء أكثر من ذلك حتى لا يفسد نظامي الغذائي فأنا أتبع حميةً قاسيةً لأستعيد رشاقتي.

كادت تنفجر ضاحكة، ولكنها كتمت ضحكتها وهي تسرع لتلبي لها طلباتها.

***

ارتسمت ابتسامةً ظافرةً على شفتي «خالد» وهو يراقب انصراف الطبيب في سعادة، ها هو على وشك التخلص من ذلك الكسر اللعين الذي أقعده في المستشفى لفترة لا بأس بها، أصرت معها إدارة البعثة إصرارًا عجيبًا على استكمال علاجه بالمستشفى، عليه أن يفهم السر وراء ذلك.. لن يهدأ حتى يكشف الأمر برمته، هو ليس رجلًا عاديًّا لقد مرَّ بالكثير من التجارب القاسية التي يعتبرها معلمته الحقيقية.. فالتجربة معلِّمةٌ قاسية؛ تجعلك تخوض الامتحان أولًا، ثم تعلِّمك الدرس.

***

«لنبدأ الدرس» نطقت «ياسمين» بهذه العبارة وهي تعاون «لويز» على الجلوس، ولكن لويز أدارت رأسها إلى حيث وقف «حنفي» يرص الأطباق على مائدة الطعام فتحركت من فورها لتجلس على رأس المائدة قائلة في حماسة: هناك مثل ياباني يقول عندما تدق ساعة الجوع لا طعام سيئ، ولكن هذا المثل لا ينطبق عليَّ فأنا يمكنني تمييز الطعام الجيد من الرديء ولو كنت أتضور جوعًا فالطعام الطيب مثل نزهة رائعة لا يمكن تكرارها بنفس تفاصيلها..

قالتها وهي تتفحص الطعام بعينيها، شعت قسماتها بالسعادة وامتلأت نفسها بالبهجة وهي تنقض على الطعام بلهفة واضحة حتى أتت على آخره، تراجعت في مقعدها وهي تربت على معدتها قائلةً في تلذذ: هنا مخزن السعادة.

ثم التفتت إلى «ياسمين» وهي تتابع: Danke.

- أعتقد أنكِ تشكرينني.

- رائع يبدو أنكِ ذكية ولن تتعبيني. سنبدأ بأول درس.. سنتعرف على أسماء الأشياء حولنا.

راحت تنطق أسماء الأشياء المحيطة بها و«ياسمين» تردد خلفها وتدون بعضها. حتى أشارت عقارب الساعة إلى الثالثة فقالت لويز: أنا بحاجة إلى بعض الراحة.. أين غرفتي؟

أجابتها في دهشة: غرفتك بالأعلى.لقد رافقتك «أحلام» إليها.

- أريد الإجابة بالألمانية.. قولي

Ihr Zimmer ist im Obergeschoss

رددت «ياسمين» خلفها.. صعدت «لويز» السلم الداخلى، توقفت في منتصفه وهي تلتفت لها قائلةً: سنكمل في الخامسة بعد الانتهاء من تناول الغداء.

هزت رأسها بابتسامة خفيفة، اتجهت نحو غرفة مكتبه حيث علا رنين الهاتف من داخلها، كان يطمئن على حالها مع المـُعلمة وما إذا كانت ترغب فى تغييرها، لكنها طمأنته إلى مهارتها وتميزها، أنهى الاتصال

تاركًا إياها فريسة للقلق.. صوته لا يدل على أنه بخير، راوغها حين سألته عن صحته وأجابها بإجاباتٍ عادية، انتظرت نزول «لويز» على أحر من الجمر.. ما إن رأتها حتى ابتدرتها قائلةً في سرعة: هناك بعض العبارات أحتاجك أن تعلميني إياها بالألمانية.

هتفت «لويز» في دهشة: ألن أتناول الغداء أولًا؟!!

أجابتها في لهفة: سأحضر لك كل ما تريدين.. فقط علميني ترجمة هذه العبارات، كيف حالك الآن؟ هل ذهبت للطبيب؟

ابتسمت «لويز» قائلةً: ألا تريدين قول «انتبه لنفسك»؟

أجابتها في سرعة: لا بأس.

حصلت على العبارات وأخذت ترددها جيدًا حتى تنطقها بشكل صحيح بينما راحت «لويز» تنظر إلى الطعام بشهية واضحة.. تركتها «ياسمين» لدقائق.. ثم عادت لتجلس بجوارها إلى مائدة الطعام والسعادة تغمرها تأملتها «لويز» لحظات قبل أن تبتسم في حنان وهي تمضغ قطعة من اللحم المشوي قائلةً: هل اطمأننتِ على زوجك؟

أطرقت برأسها في خجل فتابعت «لويز»: لا ريب أنه كان سعيدًا عندما حدثته بالألمانية؟

أومأت برأسها إيجابًا في شرود، فقالت «لويز» في زهو: لا شك عندي أنه كاد يطير من الفرح عندما سمعك تقولين له حبيبي بالألمانية.

شحب وجهها وهي تردد: حبيبي!

هتفت «لويز» بفخر: ألم أعلمك قول:

"Auf Wiedersehen mein Geliebter" هذه معناها "وداعًا حبيبي".

غامت الدنيا أمام عينيها وهي تقول في ارتياع: كيف جعلتني أقول هذا الكلام؟

- ولمَ لا تقولينه؟ أليس زوجك؟

- لا يصح أن أقول له هذا.

- لمَ؟ ألم يقل أحدكما للآخر قط أنه يحبه!

تطلعت إليها «ياسمين» في استنكار.. فقالت «لوين» في تفهم: لم تتزوجا عن حب؟ زواجكم تقليدي أو قد يكون زواج مصالح، وكل منكم لم يخبر الآخر بمشاعره رغم أن كلا منكما يحب الآخر.. اسمعي يا ابنتي، لا تضيعا شبابكما وكل منكما يخشى مصارحة الآخر بمشاعره.

قالت «ياسمين» في حزم: لنكمل درسنا أفضل.

***

ارتسمت على شفتيه ابتسامةً حالمة، لم يصدق أذنيه حين اخترقتها تلك الكلمة.. هل حقًّا تعنيها؟ لا يدرى لم أسعدته الكلمة منها رغم أنها لا تعدو كونها موظفةً لديه، لقد سمعها من الكثيرات قبلها، فها هي «ليس» ترددها على مسامعه ليل نهار.. ربما هو عنصر المفاجأة فهي آخر شخص ينتظر أن يسمع منه كلمة كهذه، أو ربما لجديتها الدائمة في الحديث معه.. لا يدري ولكنها بالتأكيد المفاجأة.

مر اليوم بطوله غرق هو في العمل بينما غرقت هى في خجلها، تتعثر في حياءها، ظلت تردد بعض عبارات الاعتذار التي تعلمتها من «لوين»

حتى حفظتها عن ظهر قلب،لم تأتها الجرأة لتحدثه في نفس اليوم، أرجأت الاعتذار لليوم التالي حتى تستجمع نفسها، ما إن أشارت عقارب الساعة إلى العاشرة صباحًا حتى أسرعت تلقى ذلك الحمل الثقيل عن كتفيها فابتدرته بقولها: «Entschuldigung, ich meinte nicht».

قال في دهشة: أهذا ما تعلمته فقط؟

أجابته في خجل: لقد تعلمتها خصيصًا لأعتذر عما قلته بالخطأ أمس دون أن أعرف الترجمة الصحيحة.. فقد طلبت من «لوين» أن تعلمني بعض العبارات للاطمئنان على مريض فأضافت عبارات دون أن أعلم معناها.

قال في برود: لا تشغلي بالك فقد كنت مشغولًا بالأمس وأنا أحدثك.

تنهدت في ارتياح وهي تتمتم بكلمات الحمد قبل أن تقول في لهجة رسمية: هل تأمر بشيء؟

شكرها وهو يُنهي المكالمة في سرعة، شعور بالضيق سيطر عليه للحظات كأنما تلقَّى طعنةً غادرة، لم يكن يومًا غامضًا أمام نفسه، كان قادرًا على أن يُحدد مشاعره بدقة رغم قسوة الحياة عليه، يدرك دائمًا ما يريد ويحدد أهدافه بشكل واضح، كان باستطاعته تحديد علاقاته بكل من حوله.. أما الآن فمشاعره متضاربة على الدوام، أحيانًا يعجز عن فهم نفسه وأحيانًا لا يجد لها تبريرًا منطقيًا، لم يكن يؤمن بذلك القول «المشاعر لا تُمنطق» فكل شيء لديه يخضع للعقل والمنطق.. أرجع ارتباك مشاعره لخوفه الشديد على ابنته، ارتاحت نفسه وهدأت مشاعره المختلطة عندما وصل إلى هذه النقطة.

***

مرت عدة أيام متلاحقة كانت اتصالاته قصيرةً مبتورةً حتى أتت نهاية الأسبوع.. اتصل بها ليبلغها بموعد وصوله حتى تستعد «لويز» للرحيل بنفس السيارة التي سيأتي بها، شعرت بالحزن لفراق «لويز» فقد كانت سيدةً لطيفة، خفيفة الظل، حلوة المعشر، تتمتع بنقاء فطرى، أصبحت في فترة وجيزة صديقةً للعاملين في البيت خاصة «أم أحمد».. لطالما ضحكوا جميعًا أثناء تناول الطعام بسبب سيطرتها على كل الأصناف وحدها وتوزيعها الكميات القليلة على الجميع مع تدعيمها بالنصائح عن ضرورة تقليل الكميات التي يتناولها الفرد من الطعام حتى يتمتع بوزنٍ مثالي!! ودَّعت كلًا منهما الأخرى، ووقف الجميع يودعون «لويز» التي وعدتهم بتكرار الزيارة لاحقًا.

لحقت به بعد انصراف «لويز»، كان يقف محدقًا في الفراغ أمامه.. استدار ببطء عندما شعر بوجودها في مكتبه، كان القلق باديًا على وجهه، يفرك كفيه في توتر، ابتدرها بقوله: سنتحرك في تمام الثانية صباحًا.. ستصل في الرابعة صباحًا إذا سار كل شيء على ما يرام.

قالت في ثقة: سيكون كل شيء على ما يرام.. لا تقلق ولا تفكر في مخاوفك بل فكر في ابنتك وحدها.. كم افتقدتها؟

همس فى شوق: لقد افتقدتها حد الموت.. أتمنى رؤيتها.. أشتاق لأن أضمها إلى صدري.. لكني أخشى في نفس الوقت أن يكونوا قد سمموا أفكارها ضدي.

– إذا التقيتها وأنت خائف من صورتك في عينيها، فستكون المقابلة جامدةً وجافة، وستترك أثرًا سيئًا.. أما إذا قابلتها بلهفة الأب الذي يشتاق

لابنته فسيصلها إحساسك جيدًا، وبهذا تكون قد تجاوزت المرحلة الأهم.. كما أنني سأكون قد هيأتها نفسيًا لاستقبالك.

- لم أعتمد يومًا على أحد في شيء يخصني.. لن أنسى لكِ هذا الموقف.

- لم أفعل شيئًا يستحق.. أتمنى أن أقدم شيئًا لـ «سيليا».

ساد الصمت لحظةً، تركزت نظراته عليها، حارت كيف تهرب من حصار عينيه فقالت في ارتباك: أفضل شيء تفعله الآن هو أن تصلي صلاة «الحاجة» ثم تأخذ قسطًا من الراحة

تمتم بكلمات الشكر فتابعت في تردد: أعلم أنه أمر بسيط ولا أريد أن أشغل بالك به، ولكن بم سأخبر عم «سليمان» عند خروجي ليلًا من القصر؟

- أخبريه أنكِ سترافقينني لاستقبال ابنة أحد معارفي قادمةً من الخارج، ويجب أن يكون هناك سيدة في استقبالها.

- حسنًا؛ ولو أنها ستكون المرة الأولى التي أكذب فيها.

التقط نفسًا عميقًا قبل أن يقول: أنتِ تقولين الحقيقة، «عاصم» الذي كان في ألمانيا ليس هو الواقف أمامك الآن.

قالت في فضول: تُرى الفرق لصالح من فيهما؟

هز كتفيه قائلًا في حيرة: صدقيني لست أدري.

تابعته ببصرها في قلق إلى أن اختفى عن ناظريها، وقد أخذ لسانها يلهج بالدعاء لتمر الأمور بسلام.

***

«يبدو أن الامر لن يمر بسلام» تمتم «آسر» بهذه العبارة بصوت خفيض

عندما رأى «جيهان» تدخل عليه مكتبه، نهض من مكانه يستقبلها، انحني مقبلاً يدها في احترام، ربتت على ظهره في حنانٍ طاغٍ وهي تقوده برفق إلى أريكة جانبية، ظلت تنظر إليه في صمت قطعه قائلاً في ترحاب ظاهر: أيمكنني أن أعرف السبب الذي دفع بأمي الحبيبة لزيارتي في مكتبي؟

- أنت تعلم سبب قدومي وتتهرب من الإجابة على سؤالي.

- أرجوكِ أمي.. لا أرغب بالحديث في هذا الأمر.

- أنت تحبها وهي تحبك فلمَ طلقتها يا ولدي.. من حقها أن تعرف على الأقل لمَ طلقها زوجها؟!

- بعض الأشياء يجب أن تبقى مجهولةً.. هذا أفضل للجميع.

-ولكن ليس على أمك.

أحاط وجهها بكفيه وهو يقول في ألم: لقد تحملتِ الكثير وتألمتِ كثيراً ولا أريد أن أدمي قلبك الآن.

نظرت في عينيه تحتويه في حنان، لم تر ابنها يعيش انكسار الروح هذا من قبل، كانت تعلم كم يتألم دون أن يفصح عما بداخله، كانت تشفق عليه من الهموم التي حمَّلها له جده رغمًا عن إرادتها، تلوم نفسها كثيراً لأنها خضعت لسيطرة جدهم وتركت له أولادها ليدمر نفسياتهم ويبث فيهم سموم حقده ويزرع فيهم طبقيته ويغرس فيهم عنصريته، ولكنها لن تترك ابنها يعاني كل هذا الألم وحده مرةً أخرى.. ستقف بجواره في محنته، علها تُكَفِر عن خطيئتها بحقه.

***

وقف أمام مرآته يتأمل نفسه فيها، يبحث عن إجابة لسؤالها.. يحب

النظر إلى المرآة أحيانًا فهي تعكس كل شيء بدقة متناهية دون أن تخطئ أبدًا، لأنها وبكل بساطة لا تفكر ولا تكذب ولا تغش ولا تخدع، لأول مرة يتمنى أن يمتلك تلك المرآة السحرية التي امتلكها السحرة الأشرار في قصص الأطفال ليرى فيها ابنته، ويطمئن على حالها، ويمتع عينيه بالنظر إليها، لم يتخيل أن بداخله قلبًا ينبض بكل هذا الحنان، ويتحرك بكل هذا القلق ولكنها مشاعر الأبوة، تلك الفطرة النقية التي غرسها الله في نفوس الآباء، شرد ببصره كأنما يحاول أن يخترق حجب الزمان والمكان عله يعثر على مايطفئ تلك النار المشتعلة بصدره،قبضة باردة تعتصر قلبه حزنًا على زهرته الصغيرة التي حصدت ثمار عنصرية غبية ودفعت من طفولتها ثمن عنجهية فارغة .

الفصل السابع

لم يستطع أي منهما النوم.. ظل هو جالسًا في مكتبه حتى انتصف الليل فأسرع يبدل ثيابه، وقف يصلي بخشوع، ركع ثم سجد، سالت دموعه أنهارًا في سجوده، أخذ يتوسل لله تعالى بأسمائه الحسنى كاملةً أن يساعده في استعادة ابنته.. لم يشعر كم مر عليه من وقت وهو ساجد ولكنه شعر براحة كبرى عندما رفع رأسه، شعر وكأن جبال الهموم قد ذابت على كتفيه، وكأن قلبه قد تحرر من قيوده، وكأنما تحررت روحه من أغلالها، تسلل داخله شيء من الراحة التي لم يعرفها منذ سنوات.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية صباحًا، عندما طرق باب كوخها وأشار لها أن تتبعه إلى سيارته، فتح لها الباب المجاور له ولكنها تخطته لتجلس في المقعد الخلفي، لم يعلق وهو ينطلق بالسيارة في سرعة.

لم يتبادلا كلمةً طوال الطريق حتى أوقف سيارته على جانب الطريق، التفت لها قائلًا: سننتظر «حمدي» هنا.

تطلعت في توتر إلى الطريق النائي حولها.. ألقى نظرةً على وجهها في مرآة سيارته فعاد يقول مطمئنًا: اطمئني المكان الذي سنذهب إليه هو

مخزن تابع لشركتنا ولقد قمنا بتركيب كاميرا داخل المكان ستنقل لنا في الخارج ما يدور بداخله، ولن نتحرك أنا و«حمدي» إلا عندما تعطينا إشارة للدخول، وسيقوم «قدورة» بتمثيل دوره كما علمه «حمدي».. وسأسلمه المال أمام «سيليا».

– هل تضمن «قدورة» هذا؟

– إنه أحد جيران «حمدي» وهو من محدودي الذكاء رغم ضخامة جسده..كما أننا لم نخبره بشيء فكل ما يعلمه أنها ابنة أحد أصدقاء «حمدي» وتعاني من حالة نفسية، وأن لديها هاجس أن أباها لا يُحبها لهذا يقوم والدها بهذه التمثيلية لمساعدتها.

شق هدير محرك سيارة سكون المكان، توقفت السيارة بجوارهم وأطل منها وجه «حمدي» الباسم وهو يقول في مرح: نهاية الرحلة يا رفاق.

أشار لهم أن يتبعوه، سار بالسيارة لعشر دقائق كاملة قبل أن ينحرف بسيارته تاركًا الطريق الأسفلتي ليوقفها بجوار شجرة ضخمة ثم ترجل منها على قدميه متجهًا نحوهم.. ألقى التحية عليهم قبل أن يلتفت نحوها ويرحب بها ترحيبًا خاصًا، ردت على تحيته بتحية مماثلة، عاد يلتفت إلى «عاصم» وهو يقول: لقد نفذت كل ما طلبته رغم أني لا أجد سببًا لكل هذا.. أشعر أننا سنتسلم ابنتك من المافيا نفسها وليس ممن اتفقنا معهم.

قال «عاصم» في قلق: لا أحب أن أترك شيئًا للظروف.. يجب أن تكون هناك سيارة احتياطية في حال حدث شيء.

توقفت السيارة بعد عدة دقائق أمام بناء متواضع على مساحة صغيرة

بينما ترامت الأرض الفضاء من حوله، شعرت بالرهبة لوجودها في مكانٍ كهذا في جوف الليل، ظل لسانها يلهج بالاستغفار وهي تردد كل ما تحفظ من أدعية، سبقهم «حمدي» إلى الداخل، وقف يصافح رجلًا ضخم الجثة، مترهل الجسد، بدا على ملامحه البلاهة، قال «حمدي» وهو يُقدم «عاصم» إليه: الأستاذ «محمود فتحي» والد البنت المريضة.

صافحه «قدورة» وهو يقول بابتسامة بلهاء: ان شاء الله حالة ابنتك النفسية ستتحسن وستكون بـــ...

قاطعه خروج رجل من الغرفة المجاورة قائلًا: لقد نظفت المكان جيدًا يا ريس «قدروه».

نظر «عاصم» إلي الرجل في حدة هاتفًا: من هذا؟

أمسك حمدي بتلابيب «قدورة» الذى أجاب في بلاهة: إنه أحد أصدقائي، أحضرته معي ليساعدني في العمل.

صاح «حمدي» في حدة: ألم أطلب منك ألا تُخبر أحدًا بالأمر؟

قال «عاصم» في صرامة: اصرفه الآن.

بتر عبارته صوت سيارة قادمة من بعيد فتابع في سرعة: لقد وصلت.. ثم أشار لــ «ياسمين» بالدخول إلى غرفة جانبية، اقترب الرجل منها وهو يمسك حبلًا قائلًا: ألن نقيدها أولًا؟

مد يده ليمسك بيدها ولكن يد «عاصم» كانت أسبق قائلًا فى صرامة: إذا مسست شعرة منها سأقتلك.. أفهمت؟ التقط الحبل من يده وهو يتابع: كان اتفاقنا مع «قدورة» فقط ولن نترك سواه في هذا الأمر.. وأنت سترافقنا للخارج.

قال الرجل في سرعة: كلما زاد عددنا كلما تأكدت ابنتك أنها مخطوفة بحق، وكان الشفاء لها أقرب.

لم يبد عليه أنه قد سمع كلام الرجل وهو يقودها إلى غرفة داخلية، وقف يشير إلى مكان الكاميرا التي تم إخفاؤها بشكلٍ جيد يجعل من الصعب ملاحظتها، همس فى توتر: سأترك لكِ نصف ساعةٍ فقط لتتحدثي معها وسأدخل بعدها.. مدى يديك.

استدارت ليقيد يديها خلف ظهرها، لكنه قال: كلا سأقيد يديك من الأمام وسأجعله قيدًا وهميًا حتى يمكنك التخلص منه بسهولة.. صمت لحظةً ثم أشار إلى كاميرا ثانية مخفاة بمهارة وهو يتابع: إذا حدث أي شيء خاطئ قفي هنا وقومي بعمل إشارة الوقوع في المشكلة كما يفعل الغطاس أسفل الماء.. سأدخل وقتها على الفور لإخراجكم.

هزت رأسها دلالة الفهم، تطلع إلى عينيها مباشرة، اخترقت روحه روحها وهو يهمس في خفوت: انتبهي لنفسك جيدًا.

حررت عينيها من أسر عينيه وهي تهز رأسها في ارتباك.

اصطحب «عاصم» الرجل معه، دفعه أمامه دفعًا والرجل يهتف: لقد كنت أرغب في المساعدة فقط.

قال في صرامة وهو لازال يدفع الرجل أمامه: لم نطلب مساعدتك ولسنا بحاجة إليها.

أوقفه «حمدي» موجهًا كلامه للرجل في هدوء: شكرًا لك، يمكنك البقاء ولكن في هذه الحجرة.. ثم دفعه إلى حجرة جانبية صغيرة وهو يُغلق بابها عليه من الخارج بالمفتاح ويصطحب «عاصم» الذى هتف في غضب:

لمَ تركته بالداخل؟

أجابه «حمدي» وهو يربت على كتفه: خشيت أن يلتقط رقم السيارة ويعرف بواسطتها هويتك الحقيقية، فكرت أن حبسه بالداخل أفضل حتى ينتهي الأمر ونطلق سراحه ليرحل مع «قدورة» وسأمنحه مبلغًا من المال.

لم يُعلق على كلامه، ولكنَّ شعورًا سيئًا يسيطر عليه.. يشعر أن هناك شيئًا خاطئًا، حدسه ينبئه بذلك، ولكنه لا يملك الآن سوى الصبر، تلك الفضيلة التي لا يملك منها الكثير والتي يتمنى أن يتحلى بها يومًا.

***

جلست في ركن الغرفة تدعو الله أن يمر الأمر بسلام، لم تمض لحظات حتى كان «قدورة» يدفع طفلةً غايةً في الجمال، تحمل ملامح شرقيةً تتألق فيهما عينان فيروزيتان، سالت الدموع منهما كحبات اللؤلؤ، بينما تناثر شعرها الأشقر الذهبي القصير حول وجهها ليضفي عليه جمالاً أخَّاذًا، تطلعت إلي المكان من حولها في رعب قبل أن يرتفع صوتها بالنحيب والصراخ الذي مزق قلبها وجعلها تشعر بالندم للحظات للمشاركة في تعريض طفلة صغيرة لتجربة مرعبة كهذه.. نفضت عن نفسها ما بها وهي تزحف نحوها، حركت يدها المقيدة حتى تنتبه الطفلة لكونها أسيرةً مثلها، راحت تهدهدها بالعربية.. توقفت الطفلة لحظات عن البكاء والصراخ وهي تلتفت إلى «ياسمين» هاتفةً: من أنتِ؟ ولمَ أنت هنا؟

قالت «ياسمين»: هل أنتِ ألمانية؟ ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

صمتت الطفلة وهي تنظر الى «ياسمين» بلهفة غير مصدقة أنها سمعت شخصًا في هذا المكان الغريب يتحدث لغتها، أجابت في حيرة: لا

أعرف ولكني سمعتهم يقولون إن أبي رجل ثري في مصر وسيدفع لهم من المال ما يريدون فديةً لي.

- إذن خطفوكِ من أجل ابتزاز أبيكِ! هل والدك في إجازة هنا؟

- كلا إنه مقيم هنا.

- أين والدتك؟

سالت الدموع من عيني الطفلة وهي تجيب: لقد ماتت أمي ولم أر أبي منذ وفاتها، أخبرتني جدتي أنه تسبب في موتها.. وأخشى أن يتسبب في موتي أنا أيضًا.

رفعت «ياسمين» يديها المقيدتين لتحيط بهما الطفلة وتضمها إلى صدرها قائلةً: اطمئني، لن يُصيبك مكروه، وأعتقد أن ما قالته جدتك غير صحيح.. وإلا لما قام الخاطفون بمحاولة ابتزاز أبيكِ.

تطلعت إليها الطفلة وقد بدا على وجهها علامات الاستفهام وعدم الفهم، فعادت «ياسمين» تجيب على تساؤلاتها الصامتة في حنان: أنا أيضًا فقدت والدتي وأنا طفلة صغيرة ولكن أبى كان يُحبني حبًا كبيرًا فعوضني بعضًا من غيابها.. وإذا حضر أبوكِ إلى هنا لإنقاذك ودفع ما يطلبون من مال فهذا معناه أنه يُحبك وأنه لن يتسبب قط في أي أذًى لكِ، وأنه على استعداد لحمايتك بحياته.

شعرت الصغيرة بالدفء والراحة في أحضانها، فاستسلمت لها لحظات قبل أن ترفع رأسها إليها قائلةً: ولمَ خطفوكِ؟ هل يريدون مالاً من أبيكِ أنتِ أيضًا؟

أجابتها بابتسامة باهتة: لقد مات أبي ولا يوجد من يهتم لأمري في هذا العالم.

قالت الطفلة وهي تتشبث بها في براءة: سأجعل أبي يدفع لإخراجك أنتِ أيضًا لن أتركك هنا.

ضمتها «ياسمين» إلى صدرها في قوة وهي تهمس: أنت فتاة رائعة.. أنا «ياسمين».. وأنت؟

أجابتها الطفلة دون أن تبتعد عنها: «سيليا».

ارتاحت «سيليا» على صدرها وهي تحتمي بها، وكأنما الأمان كله قد صار في حضنها،ربتت على ظهرها بذراعيها المربوطتان وقلبها يبكى ألمـًا من أجل تلك الصغيرة التي عانت الكثير وهي لا تزال زهرةً لم تتفتح أوراقها بعد.

***

راقب «عاصم» ما يحدث من خلال شاشة الكاميرا الصغيرة المثبتة في الجدار الخارجي لذلك البناء المتواضع في حين قال «حمدي»: «ياسمين» هذه رائعة.. لقد استطاعت احتواء ابنتك في وقت قصير.

قال في إعجاب: إنها ذكية للغاية وتجيد التعامل مع الآخرين، وهي أفضل شخص لــ «سيليا».

ربت «حمدي» على كتفه قائلًا في مكر: ولك أيضًا.

انتفض «عاصم» في قوة وهو يهتف: هل جننت؟

قال «حمدي» في دهشة: ظننتك تُحبها؟ لقد كدت تفتك بالرجل حين همَّ بتقييدها، وكم بدوت قلقًا عليها وأنت توصيها بأن تنتبه لنفسها.. لم أرك تفعل ذلك مع سواها من قبل!!

- من الطبيعي أن أفعل ذلك لامرأة تعرض نفسها لموقف صعب من أجل ابنتي، وقد تقع تحت طائلة القانون لو تم كشف الأمر.. ألا تريد مني أن أكون مهذبًا معها أم تفضل أن أصفعها على وجهها وأنا أربطها بالحبل.

هز «حمدي» كتفيه في لامبالاة: ولو أني لست مقتنعًا بما تقول ولكني أود تنبيهك لأمر هام.. «ياسمين» شخصية محترمة ولن تبقى في بيتك لحظةً واحدةً إذا شعرت أن طبيعة علاقتك بها تغيرت أو أنك تنظر لها بشكلٍ مختلف.. واذا كانت ظروفها هي التي أجبرتها على العمل عندك فليست هي الشخصية التي تخضع لظروفها.. وكما أرى لا أحد سيحتوى ابنتك كما فعلت هي.. لذا انتبه لتصرفاتك وحاذر فهى لن....

قاطعه في سرعة وهو يقفز من مكانه هاتفًا: إنهما في خطر.

***

«هذا خطر» نطق طبيب العلاج الطبيعي بهذه الجملة بالإنجليزية ليوقف «خالدًا» عن أداء تلك التمارين العنيفة، ولكن «خالدًا» لم يعره انتباهًا وهو يواصل أداء التمارين، أوقفه الطبيب في صرامة فقال «خالد» في استياء: أنا رجل أعيش وسط الخطر ولا أهابه.

- هذا عندما يتعلق الأمر بمهنتك، أما في مهنتي فأنا من يحدد ما هو الخطر، وهذه التمارين خطر على ساق لم تمض ساعات على تحريرها من جبيرتها، وإذا كنت تتعجل الشفاء بأداء هذه التمارين فأنت واهم.

- في بلدنا نقول اسأل مجرِّبًا ولا تسأل طبيبًا، وهذه ساقي أنا وأنا أكثر حرصًا على سلامتها منك.

قالها وهو يعود لمارسة نفس التمارين في برود مما حدا بالطبيب بالانصراف متخليًا عن سلامة مريضه المتعجرف.

***

أسرعت تنقل «سيليا» إلى مكان خلف باب الحجرة بعد أن سمعت أصوات رجال مختلطة بصوت كسر باب خشبي، لتسمع بعض الكلمات غير المترابطة وإن كانت كافيةً لتفهم منها أنهم قد قاموا بتحويل اللعبة إلى حقيقة وأنهم ينتوون خطفهم بحق بعد أن قاموا بالتخلص من «قدروة».. هرعت نحو الكاميرا لتقوم بعمل الإشارة المتفق عليها، قبل أن تعود ركضًا نحو «سيليا» وتحتويها في ذعرٍ حقيقي.

***

اندفع «عاصم» كالصاروخ داخل المكان.. أجال بصره في المكان الخالي لحظة قبل أن يُسرع بفتح باب الغرفة..اختلطت صيحة «حمدي» التحذيرية بصرخة «سيليا» تبعتها تلك الضربة التي تلقاها على ظهره لتدفع بجسده داخل الحجرة وتلقيه أرضًا في عنف، نهض في ألم ولكن غريمه لم يمهله فألقى باللوح الخشبي الذي ضربه به، ليلتقط عصا غليظة ويهوي بها على كتفه بضربة قوية تلقاها «عاصم» على ساعده بينما قبضت يده الأخرى على تلك العصا التي حاول الرجل رفعها مرةً أخرى ولكن يد «عاصم» كانت أقوى فجذبتها منه.. تراجع الرجل في سرعة وهو يلمح زميله الذي اشتبك مع «حمدي» بالخارج، انحنى ليلتقط شيئًا من الأرض ولكن «عاصم» لم يمهله إذ انقض عليه وهو يطوق عنقه بذراعه ويشدد من ضغطه عليه، في حين دخل رجل ثالث.. ألقى نظرة سريعة

على الغرفة قبل أن يختار أقوى أهدافه، فقطع الغرفة بوثبَة واحدة وهو يستل سكينًا من حزامه ليضعه على عنق «سيليا» صائحًا: دعه وإلا ذبحتها أمام عينيك.

صرخت «سيليا» في رعب بينما أخذت «ياسمين» تفك قيودها وهي تتسلل من خلف الرجل.

ترك «عاصم» الرجل في غلظة آمرًا إياه أن يترك ابنته، فقال الممسك بالطفلة التي أطل الرعب من عينيها واضحًا: سنقوم باستضافتهما لدينا حتى تحضر لنا مليونًا من الجنيهات.

وجه حديثه إلى ابنته بالألمانية: اطمئني حبيبتي.. لو طلبوا عمرى لأعطيته لهم مقابل سلامتك.

هتفت من بين دموعها: أنا خائفة للغاية.

مزق صوتها المذعور نياط قلبه وسقطت دموعها كقطرات من نار أحرقت روحه فقال في عزم: لا تخشي شيئًا حبيبتي.. لن يستطيع أحد أن يمس شعرةً منك طالما أنا على قيد الحياة.

صرخ الرجل في غضب: ماذا تقول؟

أجابه في حدة: أهدئ من روعها، إنها مرعوبة.. ابعد السكين عن رقبتها وسأعطيك المائة ألف جنيه التي جلبتها معي.

برقت عينا الرجل في جشع: أين هذه النقود؟

هتف الآخر: لاريب أنها في السيارة.

قال «عاصم» في توتر مصطنع: كلا، ليست فيها.

برقت عينا الرجل وهو يقول: فليُقطع ذراعي إن لم تكن فيها.. سأذهب لأجلبها.

قال «عاصم» في سخرية: تجلبها أم تأخذها وتهرب، وربما تُبلغ الشرطة عما يحدث هنا حتى لا تجد من يتقاسم معك المال.

نقل الممسك بالسكين بصره بينهما لحظات قبل أن يقول في شك: انتظر يا «فهمي» لنقيدهم أولًا ثم نذهب لجلب المال.

هتف «فهمي»: سألقى نظرةً ليطمئن قلبي.

صاح الرجل الممسك بالسكين في حدة: قلت لك انتظر.

صرخ «فهمي» في حدة مماثلة: أنت مثلي في هذه العملية، لن تلعب عليَّ دور الزعيم.

رفع الأول السكين وأخذ يُلوح بها في وجه «فهمي» وهو يقول في غضب: قيد الرجل أولًا

كان هذا كل ما أراده «عاصم».. تلك الثانية، فقفز جاذبًا ابنته في سرعة وهو يركل وجه الرجل بقدمه ليسقطه أرضًا، في حين التقطت «ياسمين» الصغيرة وأخفتها خلف ظهرها، قفز «فهمي» حاملًا الشومة ليهوى بها على «عاصم»، صرخت محذرةً ولكن صرختها أتت متأخرة فقد هوى «فهمي» بتلك العصا الخشبية على كتفه.. زمجر «عاصم» في غضب وهو يندفع نحو «فهمي» في غضب ليلصقه بالجدار وانطلقت يده تكيل اللكمات لوجه الرجل..فى حين نهض الرجل الآخر من سقطته ليستل سكينه ويهجم على «عاصم»، أطلقت صيحة تحذيرية جعلت «عاصم» يتحرك في سرعة ليهوي الآخر بسكينه على ذراع «فهمي» الذي صرخ في ألم والدماء تسيل من

ذراعه.. تراجع «عاصم» في حذر بينما وقف الرجل يُلوح أمامه بسكينه قبل أن يهوى عليه به، قفز «عاصم» للخلف ولكن يد الرجل كانت أسبق فمزقت قميصه وجرحت ذراعه جرحًا طوليًا، رافقت صرختها الدماء التي راحت تقطر من ذراعه وهو يبحث عن شيء يتقي به الضربات، لمح بطرف عينه ذلك اللوح الخشبي الذي تلقى به الضربة الأولى، فالتقطه في سرعة ليتقي به تلك الطعنة التي كادت تخترق خاصرته قبل أن يهوى به على يد الرجل الممسكة بالسكين وينهال عليه بذلك اللوح.. زحف «فهمي» نحو السكين بينما «عاصم» مشغولٌ بقتال زميله، ولكن «ياسمين» كانت أسبق فالتقطت السكين واستدارت تواجهه بها قائلةً: لو اقتربت سأقتلك.

قال «فهمي» وهو يحرك شفتيه في إثارة: وهل هناك ما هو أفضل من الموت بهاتين اليدين الجميلتين.

قالها وهو يمد يده نحوها قائلًا في استخفاف: هيا يا حلوتي من الخطر عليكِ اللعب بهذه الأشياء.

جاءته الإجابة بشكلٍ غير متوقع حين هوت بالسكين على يده فأصابتها

اتقدت عيناه غضبا وهو ينقض عليها ويهوى علي وجهها بصفعة قوية ألقتها أرضًا في عنف فصرخت «سيليا» باسمها.

كان «عاصم» قد أفقد زميله وعيه، اشتعلت نيران الغضب في نفسه وهو يجدها ملقاة أرضًا.. فانقض على «فهمي » وأمسك بيده وأدارها خلف ظهره في قوة كسرت ذراع الرجل، وهو يهوي على وجهه بصفعات متتالية قائلًا في ثورة: كلب مثلك يضربها!!

أخذ الرجل يصرخ من الألم بعد كسر ذراعه دون أن يفلته حتي أوقفه «حمدي» قائلًا: كفى ستقتل الرجل.

عاونتها «سيليا» على النهوض بينما قام «حمدي» بتقييد الرجال الثلاثة، في حين التفت هو إلي ابنته التي هرعت ترمي بنفسها بين ذراعيه وتنخرط في بكاء حار.. ضمها إلى صدره في حب، أخذ يربت علي ظهرها وشعرها في حنان طاغ هامسًا: هل أنت بخيرٍ حبيبتي؟

انهمرت الدموع من عينيها في غزارة وهي تقول: هل تحبني حقًا بابا؟ ألن تتسبب في إيذائي؟ لقد افتقدتك كثيراً.

قال في حنان: أنا أحبك كثيراً..افتقدتك للغاية حبيبتي، لدي الكثير لأخبرك به وأول شئ يجب أن تعلميه أنني لن أسمح بأن يصيبك أى أذى طالما أنا على قيد الحياة.

ثم نهض حاملاً إياها، اتجه نحو «ياسمين» التي وقفت تنظر اليهما بحنان، اقترب منها وهو يتفحصها بعينيه قائلاً في قلق: هل أنت بخير؟

أومأت برأسها إيجابًا، فقالت الصغيرة فى سرعة: إنها صديقتي.. هل يمكننا اصطحابها معنا،لقد مات والدها وليس لديها أحد.. يمكنها أن تعيش معي هنا حتى تأتي جدتي.

هز رأسه موافقًا فقبلته فى سعادة هاتفةً: شكرًا بابا.

ألقت«ياسمين» نظرةً على الدماء التي أغرقت ذراعه، أسرعت تحل إيشاربًا كان حول عنقها قائلةً في جزع: لقد جُرحت.

نظر إلى الدماء التي أغرقت ذراعه وهو يقول في استهانة: إنه جرح بسيط.

أخرجت من جيبها منديلًا، ناولته إياه ليمسح به الدماء عن ذراعه في حين انتهى «حمدي» من تكبيل الرجال الثلاثة، وقف يلتقط أنفاسه قبل أن يقول: هل يمكننا تأجيل هذا اللقاء الأسري الجميل حتى نصل إلى البيت؟

همس «عاصم»: اسبقنا إلى الخارج وأوقف عمل الكاميرا.

أوقفت «حمدي» وهي تناوله الإيشارب الخاص بها ليربط به جرح «عاصم» قائلةً: لنبقه مربوطًا حتى تتوقف الدماء.

أطاعها «حمدي» قبل أن يسبقهم لينفذ ما طلبه «عاصم» الذي حمل ابنته في سعادة بينما تعلقت الصغيرة برقبته وهي تدفن رأسها في عنقه.

***

تحسس «خالد» عنقه في ألم، راح يلوى عنقه في اتجاهات متعددة ليخلصه من ذلك الألم الذي يشعر به إثر تلك التمرينات المرهقة التي لا يكف عن ممارستها حتى يتماثل للشفاء بأقصى سرعة، يجب أن يعود ليفهم ما حدث، يجب أن يعرف من كان خلف إرساله لهذه الدورة التدريبية، لم يصرون على بقائه هنا للعلاج، إنه ليس ثروةً قوميةً ليحرصوا على صحته إلى هذا الحد، سيكتشف الأمر إن عاجلًا أم آجلًا، والويل كل الويل لمن كان خلفه، فقد أضاع عليه فرصةً ذهبية.

***

انطلق«حمدي » يقود السيارة وبجواره جلس «عاصم» حاملًا ابنته التي راحت في سبات عميق فور جلوسها في حجره بينما استقرت «ياسمين» في الخلف.

تطلع إلى ابنته النائمة في حنان قبل أن يهتف في حدة مفاجئة: من

أين أتى هؤلاء الرجال؟ وأين ذهب «قدورة»؟

أجابه «حمدي»في سرعة: لقد استغلوا سذاجته وعرفوا بالأمر منه وقرروا أن يقوموا بالعملية لحسابهم الخاص وأن يحولوا المسرحية إلى حقيقة فقاموا بتقييده في الخارج، واتفقوا على خطف «سيليا» والمطالبة بفدية لاستردادها.. نحمد الله أن الأمر انتهى على هذا النحو، ولقد اتصلت بضابط شرطة صديق لي وأخبرته بأنهم اختطفوا ابنة أحد أصدقائي ولكن والدها توصل لمكانها ولا يرغب في تعريض ابنته لتحقيقات أقسام الشرطة وغيرها.

ألقى «عاصم» ببصره إلى المرآة الأمامية لتنقل له وجهها الذي علاه القلق حين أتى «حمدي» على ذكر ضابط الشرطة،قال في إشفاق: لن أسامح نفسي على المخاطر التي تعرضتِ لها اليوم.. لن أنسى لكِ موقفك هذا.

تمنت لو أخبرته أنها لم تشعر بالأمان إلا اليوم، لقد لاقت مخاطر حقيقية تفوق ما يُسميه هو الآن مخاطر.. وظلت ترسف في القيود لزمنٍ توقفت عن حسابه، جذبت نفسها من خواطرها وهي تقول في شرود: لم أفعل شيئًا يستحق، حمدًا لله على سلامتها.. وأعتقد أن هؤلاء الرجال قد أفادونا، وجعلوا الأمر يبدو حقيقيًا.

وافقها بإيماءة من رأسه: وإن كانوا قد عرضونا لمخاطرة كبيرة.

قال «حمدي»: ولكنه انتهى على خير.. صمت لحظةً ثم ألقى نظرةً على ثيابه الممزقة قبل أن يتابع: ليس تمامًا

ضحك «عاصم» وهو ينظر إلى ثيابه الممزقة قائلًا: كل هذا من رجل واحد؟

صاح «حمدي» في استنكار: أنت محظوظ طوال عمرك، اشتبكت أنت مع البشر العاديين بينما اشتبكت أنا مع العملاق الأخضر بالخارج.. ولكني لم أتركه لقد جعلته يدرك أن البشر قادرين على هزيمة الكائنات الأخرى.

قال فى مكر: أيعني هذا أنك هزمته في النهاية؟

أجابه في سخط: كيف خرجت من تحت يده إذن؟ لقد ألصق كفه الشبيهة بقدم الفيل بـ «قفاي» المسكين فلمَ أر شيئًا بعدها.. ولكني استعملت مهاراتي في القتال في الظلام وظللت أحاول حتى نجحت وأنا أردد قول الفيلسوف الكبير«عبده مجانص» «جمد قلبك واضرب زي الغشيم... يا تخرج ميت يا تخرج سليم».

انفجر الجميع بالضحك حتى قطعه «حمدي» وهو يربت على كِرشه قائلًا: كل ما كنت أخشى عليه في هذه المعركة هو «منحنى الرفاهية» فقد كان المسكين يترجرج في رعب.. يجب أن أعوضه.. نظر لـ «ياسمين» في المرآة وهو يتابع: أرجو أن تكوني قد طلبتِ منهم إعداد الكثير من الطعام اللذيذ.

توقفت عن الضحك لتقول: اطمئن ستجد كل ما تحلم به..

ضحك «عاصم»: لم أر أحدًا فخورًا بكونه من ذوى الكروش مثلك!!

هتف «حمدي» في استنكار: اسمه «منحنى الرفاهية» يا جاهل وليس كِرش.. لا أدرى كيف قبلتك صديقًا لي وأنت بهذا الجهل؟

علت ضحكات الجميع والسيارة تنهب الأرض نهبًا نحو المزرعة.

***

استيقظ «خالد» من نومه مذعورًا، إنها المرة الثانية التي يرى فيها هذا الكابوس، كانت المرة الأولى بعد فراقها مباشرةً، وها هو يتكرر بنفس

تفاصيله، مرر يده في شعره في توتر، تناول كوبًا من الماء بجانبه، يحاول أن يتذكر وجه المرأة التي تقبض على عنقه، لا تبدو ملامحها واضحة، ولا تنطق بكلمة تدل على شخصيتها، ولكنه في الحلم يشعر أنه يعرفها جيدًا، عليه أن يكتشف هوية تلك المرأة وحينها لن تفلت من يده.

***

توقفت السيارة أمام استراحة «عاصم» في المزرعة، ترجل من السيارة وهو يناولها ابنته النائمة برفق، انتفضت الصغيرة في فزع فسارع باحتضانها وهدهدتها حتى عادت تغفو ثانية قبل أن يدخل برفقة «حمدي» لتغيير ثيابهما الممزقة قبل الذهاب للقصر، جلست «ياسمين» في مقعدها الخلفي تتنسم نسمات الصباح الأولى بينما رأس «سيليا» في حِجرها، ربتت على وجنة الطفلة النائمة في حنان ثم عادت تلقي ببصرها نحو الحقول الخضراء الممتدة أمامها تستقبل أشعة الشمس الأولى في لهفة للحياة، كم تعشق اللون الأخضر، ترتاح نفسها المرهقة حين تتأمل مشهدًا كهذا، شردت في الحقول الخضراء ترى نفسها طفلة صغيرة برفقة والديها تلعب في حديقة خضراء واسعة.. يعدو والدها خلفها فتجرى في سرعة لتختبئ خلف أمها.. كم كانت الحياة رائعةً وقتها،لم تكن تحمل للدنيا همًّا، أخرجها صوت «علاء» من شرودها وهو يهتف باسمها في فرحة واضحة.. انتفضت فى مكانها، اختلست نظرةً سريعةً للطفلة النائمة قبل أن تمد يدها تغطي وجهها بقبعة كبيرة مجوفة وهي تسحب ساقها ببطء من تحت رأسها، سارعت بالنزول من السيارة مغلقّة الباب خلفها في رفق، وقفت بجوار السيارة وهي تقول في سرعة: لم أتخيل أن تكون المزرعة بهذه الروعة.

قال «علاء» في ابتهاج: لقد أخبرتك من قبل.. ولكن ماذا تفعلين هنا؟

بادرته بأول سؤال قفز إلى رأسها: أين زهورك المهجنة؟

أجابها في سعادة: إنها في أحواضٍ خاصة قريبة من هنا.. يمكنني أن أريكِ إياها الآن.

أسقط في يدها، تمتمت في ارتباك: فلنؤجل هذا إلى وقتٍ آخر.

قال في إصرار: لن يستغرق الأمر وقتًا.. فأنا متشوق لمعرفة رأيك بشأنها.

جاءتها النجدة هذه المرة على لسان «عاصم» الذي ارتفع صوته مرحبًا بـ «علاء» وهو يفتح لها باب السيارة لتدخل داخلها وعيناه تشتعلان بغضبٍ مكبوت، بينما ظهر «حمدي» خلفه وهو يصافح «علاء» في ود قبل أن يدور ليجلس خلف مقود السيارة قائلًا في مرح: كنت أود البقاء معك.. ولكن الطعام الشهي يناديني.

قال «علاء» في سرعة: تفضلوا وسأجعل الفلاحين هنا يُعدون لكم أفضل طعام.

قال «عاصم» في جدية وهو يشير لـ «حمدي» بالانطلاق بالسيارة: سنأتي في وقتٍ لاحق.

***

تأملت «فريدة» زوجها «فكري» الذي انتهى من ارتداء ملابسه، بدا متأنقًا على غير العادة، لم تكترث له وهي تنهض من فراشها قائلةً في سخرية: إلى أين؟

أجابها في لامبالاة: ولم تسألين؟ لا تخبريني أنك قد أصبحتِ فجأة تهتمين بزوجك.

- فقط فضول، فلم أرك متأنقًا هكذا من قبل وأنت ذاهب إلى عملك.

قال في برود وهو يغادر الغرفة: يؤسفني أن لا رغبة لي اليوم لإرضاء فضول «فريدة» هانم، حفيدة «رستم باشا».

تطلعت إلى الباب الذي أغلقه خلفه في دهشة إنها المرة الأولى التي يحدثها فيها بهذه الطريقة، لقد تغير كثيراً في الآونة الأخيرة، لا يمكنها أن تحدد ما الذي تغير فيه بالضبط فهي تعتقد أنها لم تعرفه من الأساس، يزداد ندمها كل يوم على زواجها منه فهو ليس ندًّا لها، ليس سليل باشوات مثلها، هو ليس نبيلاً كأخيها، تقارن دائماً بينه وبين «آسر»، فيفوز أخوها بلا منازع، بأرستقراطيته وأصالة معدنه، أما زوجها فهو ابن مقاول بسيط، عمل مع والده حتى استطاع أن يجعل شركة والده البسيطة واحدة من أكبر شركات المقاولات في مصر، ورغم أنه صار من كبار الأثرياء إلا أنه لم ينس أصله البسيط، ولم ينس تلك المنطقة الشعبية التي نشأ بها، ولازال على صلة بالكثيرين من أهلها، إنه يذكرها بـ«عاصم» كلاهما لم يستطع أن ينسى أصله رغم الثراء الذي وصل إليه كلاهما، ولكنها وقفت أمامه كحائط صد لتحمي أولادها من تهوره، لم يكن هذا يعجب والدتها وكثيراً ما كانت تصفها بأنها الابنة الحقيقية لـ«رستم باشا» جدها الحبيب ومصدر فخرها وعزها، كانت تزهو بكونها أشبه الناس به في طباعه، ورغم أن والدتها كانت تخبرها بهذا على سبيل التوبيخ ولكنها كانت تعتبره وسامًا على صدرها.

***

انطلقت السيارة في سرعة، التفت لها «عاصم» في غضب: ما الذي دفعك للنزول من السيارة؟ وكيف تقفين مع «علاء» وتمزحين معه؟

أجابته في حدة: أنا لم أخطئ في شيء.. لقد جاء ووقف بجانب السيارة ورحب بي، خشيت أن ينتبه لـ «سيليا» وأردت المحافظة على سرية وجودها فغطيت وجهها وخرجت من السيارة.

صاح في غضب أكبر: كل هذا ليس مبررًا لكي تسمحي له بالوقوف معك وتبادل المزاح؟.. كيف تقومين بهذه التصرفات المشينة؟

أجابته في غضب مماثل: أنا لم أقم بأي تصرفٍ شائن.. ولا أسمح لك بذلك، ولا أسمح لأى شخص مهما كان أن يوجه لي كلامًا كهذا و..

قاطعها «حمدي» في مرح: ألم تكفكم المعركة التي خرجنا منها للتو.. توقفوا أرجوكم، راعوا أن معكم مسكين لم يذق الطعام منذ سبع ساعاتٍ كاملة.

أشاح كلاهما بوجهه في غضب وتسيد الصمت السيارة حتى اخترقت بوابة القصر.

الفصل الثامن

صعد «عاصم» إلى غرفته حاملًا ابنته يرافقه «حمدي»، بينما التف العاملون بالقصر حولها يطمئنون عليها وهم يرون الغضب باديًا على وجهها.. طمأنتهم بعبارات مقتضبة وهي تسرع إلى غرفتها طالبَةً منهم إعداد الطعام لهم.

أغلقت على نفسها باب غرفتها، ألقت بنفسها على فراشها تنعي حالها، تنعي ظلمًا لا ينفك يُطاردها، تشكو قهرًا يقتفي أثر ظلها.. سكين الاتهام الظالم يهوي دائمًا على عنقها، تهرب من واقعها تتذكر أيامها الخضراء، تذوي يابسةً في كف القهر، حتى ذكرياتها الجميلة باتت طيفًا مؤلمًا وسط ليلها المظلم.

***

أنهى «خالد» عدة اتصالات تليفونية، اطمأن بها على الأوضاع في غيابه، ختمها بالاتصال الأخير بالعقيد «شوقي» رئيسه وشريكه في كل عملياته، ظل لحظات في مكانه، تلقى منه خبرين، أحدهما وفاة عمه «عبد الحكيم» الذي نشأ في رعايته وإن كان قد تسبب في هروب العصفور من

القفص، والخبر الثاني هو معرفته من كان خلف سفره المدبر هذا، ولكنه لم يجد سببًا يدفعه لهذا، فهذا اللواء ليس له أي علاقة بعمله، ولا توجد أي عداوة بينه وبين الرجل، لقد وعده «شوقي» أن يبحث خلف الأمر، وهو لن يعتمد على هذا الوعد سيكشف الأمر بنفسه، عليه الآن أن يعود ليتسلم ميراثه من عمه فهو الوريث الوحيد له.

***

وضع ابنته برفق في غرفتها، تحوطه سعادة غامرة، طبع قبلةً علي جبينها ثم دار ليجلس علي الكرسي المواجه لفراشها، راح يحدق في تلك الجميلة النائمة غير مصدق أنها أمام عينيه، كم حلم بتلك اللحظة، كم سهر ليال يدعو ربه أن يجمعه بها، كم ذاق الألم في بُعدها عنه وحرمانه من رؤيتها.

لاذ «حمدي» بالصمت وهو يتأمله في إشفاق.. يعلم كم عانى صديقه في غياب ابنته، ويعلم كم تألم قلبه و تشتتت روحه، وكم تجرع من كأس القلق عليها، يشعر بالسعادة لأن الله جمعه بابنته، ويشعر بالقلق لما لاحظه على رفيق عمره اليوم، يثق بأن صديقه يُكن مشاعر خاصة لـــ «ياسمين» حتى وإن لم يدرك هو ذلك ولكنه يعرفه ككف يده، ويعرف أن ملاحظته في محلها، وعليه أن يضعه أمام نفسه ويُحذره من عاقبة تلك المشاعر.. وإلا فقد كل شيء وتهدم المعبد فوق رؤوسهم، أخرجه صوت «عاصم» من شروده وهو يهمس: لا أكاد أصدق أنها بين يدى الآن.. وأنني أستطيع أن أمسها واحتضنها.

قال «حمدي» في اشفاق: لقد تعبت كثيرًا وأثق بأن الله سيعوضك.. صمت لحظة وهو يتابع في حذر: أخبرني لم غضبت من «ياسمين» اليوم؟

- كيف تترك ابنتي وحدها في السيارة وتقف لتتحدث مع «علاء» بمفردها؟!!

- هي لم تترك «سيليا» وحدها بل وقفت بجوار السيارة وتركت «علاء» يتحدث عن المزرعة حتى تصرف انتباهه عن ابنتك. أي أنها قد تصرفت بشكل جيد، ولا أرى عيبًا في ذلك فأظنه معجبًا بها وقريبًا قد يتقدم لطلب يدها للزواج.

صاح كمن لدغه عقرب: يتزوجها؟ ما هذا الهراء؟

قال «حمدي» في حذر:وما المانع؟ إنه مهندس محترم وظروفه جيدة، وستضمن بذلك أن ترعى «ياسمين» ابنتك، ويظل الاثنان يعملان عندك مثل حنفي وزوجته.

هتف «عاصم» في ثوره: هل تهذي؟ كيف يتزوجها؟ هذا مستحيل.. ثم ما علاقتك أنت بالأمر؟

أجابه في لامبالاة: لا علاقة لي بأمر زواجها.. كل ما أريده أن تدرك أنت الحقيقة.

- أي حقيقة؟

مال نحوه قائلًا فى حسم: أنت تحبها وتغار عليها.. كسرت ذراع الرجل هناك عندما صفعها على وجهها، ثارت ثائرتك حين رأيت «علاء» يتحدث معها والسعادة تملأ ملامحه.

تهاوى فى مقعده كمن تفتحت عيناه فجأةً على حقيقة غائبة عنه، فتابع «حمدي»: يجب أن تعترف لنفسك بالحقيقة حتى يمكنك أن تتعامل مع المشكلة بشكل جيد.

ردد «عاصم» في شرود: مشكلة؟.. أي مشكلة؟

أجابه في هدوء: لن يمكنك الاعتراف بمشاعرك أو الارتباط بها في الوقت الحالي إلا بعد التأكد من أنها تبادلك نفس المشاعر، كما أن ابنتك بحاجة إلي كلاكما، ويجب أن تمنح كل وقتك واهتمامك الفترة القادمة لابنتك حتى تعتاد على المكان هنا وتتركها لتنهل من حنان «ياسمين»، وتمنح نفسك الفرصة لتتقرب من قلبها بصورة طبيعية، ثم تحدد الوقت المناسب لتفاتحها في أمر الزواج، فإذا وافقت فهنيئًا لك ولابنتك، وإذا رفضت تكون قد تخلصت من مشاكلك وتكون ابنتك قد اعتادت على الحياة هنا ويمكنك أن تجد بديلًا لها.

هز «عاصم» رأسه موافقًا فتابع «حمدي» في جدية: سأقوم بالاعتذار لها نيابةً عنك وسأخبرها أنك كنت قلقًا على ابنتك وتخشى أن يعرف أحد بوجودها، وعليك أن تنتبه جيدًا لتصرفاتك في الفترة القادمة.. سأعود إلى الشركة في الصباح فهناك الكثير من العمل، وسأمنحك إجازةً لأجل ابنتك.

ضحك «عاصم» قائلًا: ما كل هذه الحكمة؟ أين ضربك الرجل بالضبط؟

أجابه في مرح: أنا أتمتع بالحكمة طيلة عمري ولكنها كانت مدفونة ولقد فجرها هذا الرجل بــضرباته الم....

بتر عبارته صوت ذلك الرنين الهادئ فالتقط «عاصم» الهاتف ليأتيه صوتها الذي شابه الغضب: الغداء جاهز.. هل استيقظت «سيليا»؟

أجابها «حمدي» الذي ألصق أذنه بالهاتف في فرحة: الغداء.. سننزل حالًا.

ثم أسرع يركض على السلم استقبلته «ياسمين» بجوار المائدة وهو يقول في مرح: لو تأخرتِ قليلًا لفقدت وعيي.. كادت عصافير بطني أن تطير.

قال «عاصم» في مرح مماثل: فى بطنك عصافير؟!! بل قل ديناصورات.

ثم التفت الي ياسمين قائلًا بلهجة آمرة: هيا لتتناولي طعامك أنتِ أيضًا.

أجابته في جمود:سأجلس بجوار «سيليا» حتى لاتُصاب بالذعر إذا استيقظت لتجد نفسها في مكانٍ غريبٍ بمفردها.

هم بأن يمنعها ولكن «حمدي» ضغط على يده وهو يقول في مرح: أنتِ محقة، لن يطير الطعام.

تبعها عاصم ببصره وهي تصعد إلى الأعلى، همس «حمدي»: تحكم بنفسك وإلا فقدتها.

قال في عصبية: لا أحتمل رؤيتها غاضبة.

طمأنه «حمدي» في لحظة خاطفة بأنه سيصالحها قبل أن ينقض على الطعام في شغف، جلس يراقبه لحظات وتساؤلات عدة تتزاحم في رأسه.. هل حقًّا يحبها؟ متى أحبها؟ ولم هي بالذات؟ هي ليست ذات

جمال صارخ، وليست من ذوى النفوذ والمناصب، وليست من ذوي المال..ولكنه يدرك الآن جيدًا أنها من ذوى الأخلاق..وأن حياءها يجذبه إليها بشدة، جديتها وصرامتها تحيطان بها كسياج وهمي وترفعان لافتة «ممنوع الاقتراب»، هشاشتها التي تختفي خلف قناع صلابتها تجعله يشعر برغبة في حمايتها، ولكن أكثر ما يميزها أنها نقية للغاية، تشبه الفاكهة الطبيعية الخالية من الهرمونات،لا مساحيق تجميل تعلو وجهها ولا كلمات معسولة تزين لسانها ولا ميوعة ترافق صوتها أو حركاتها، هي أنثى بفطرة الله التي فطر النساء عليها، أنثى بحيائها ورقتها، أنثى بأدبها وأخلاقها.. أنثى حقيقية.

أفاق من شروده على صوت «حمدي» يربت على بطنه في سعادة هاتفًا: الحمد لله لقد اعتدل منحنى الرفاهية.

تطلع إليه «عاصم» لحظة قبل أن ينفجر ضاحكًا: ومنذ متى لم يكن معتدلًا؟!!

أجابه في مرح مماثل: عندما يرافق أمثالك.

***

تململ «آسر» في جلسته وهو ينظر إلى ساعته في ضيق قطعه اعتذار «فكري» الذي أقبل مسرعًا ليجلس أمامه قبل أن يشير للنادل ليأتي لهما بمشروب، وهو يقول في تردد: أريد أن أبلغك شيئًا هامًا بصفتك صديقي أولًا، وأخو «فريدة» ثانيًا.. صمت لحظة ثم تابع كمن يلقى قنبلة: لقد قررت أن أتزوج

قال «آسر» في هدوء لا يتناسب مع ما قاله زوج أخته: لمَ؟ما الأسباب التي دفعتك للتفكير في أمر كهذا؟

أجابه في ضيق: لقد منحتني أختك كل الأسباب التي تجعل أي زوج يفكر ليس فقط في الزواج على زوجته بل وتطليقها أيضًا.

قال «آسر» في تفهُّم: ولمَ لم تتحدث معها؟

أجابه في مرارة: لقد مللت من الكلام.. إنها لا ترى شيئًا سوى أنها تنازلت لأنها تزوجت ابن مقاول بسيط بينما هي ذات الحسب والنسب حفيدة «رستم باشا».

قال «آسر» في حذر: وهل وجدت من يمكنها أن تفهمك؟ وتجد لديها راحتك؟

همس في هيام: نعم «ميار» سكرتيرتي.

- وهل تأخذ رأيي الآن أم تبلغني فقط؟

أجابه «فكري» في حرج: أحسست أني بحاجة إلى رأي أثق به، كما أني شعرت أنه يجب عليّ إبلاغك من باب الالتزام الأدبي.

- هل تريد منِّي أن أبلغ فريدة؟

- كما تحب.

تراجع «آسر» في مقعده وهو يقول في جدية: بالنسبة لرأيي أنت حر في مسألة الزواج من عدمه، وهذا حقك طالما أنك لا تجد سعادتك مع «فريدة»، كما أنك قد تحدثت معها كثيراً ولم يعد الكلام يجدي نفعًا.. فقط عليك إبلاغها وإذا رفضت فستقوم بتطليقها مع التفاهم حول ما فيه

مصلحة أولادكما وما يؤمِّن نشأتهم نشأةً نفسيةً سليمةً فليس عليهم أن يدفعوا فاتورة خلافاتكما.. أما بالنسبة لرأيي في الشخصية نفسها فرأيي أنها لا تصلح زوجةً لك، وهي ليست الشخصية المناسبة التي تداوي جراحك التي سببتها «فريدة».. فهي تسعى خلف أموالك وليس لأنها تحبك، لقد استغلت احتياجك النفسي والفراغ العاطفي الذي تعاني أنت منه ولعبت عليه، وصدقني ما تشعر به أنت أيضًا تجاهها ليس حبًّا وإنما نوع من التعويض ورد الاعتبار أمام نفسك.. لذا أنصحك أن تعيد النظر في الأمر برمته من أجل أطفالكما.. فالطلاق ليس سهلًا وتذكر أن الخلاف الطويل يعنى أن كليكما على خطأ.

***

صعدا إلى الأعلى، خرجت من الغرفة فور دخوله إليها.. تبعها «حمدي» على الفور بينما جلس هو بجوار ابنته التي بدت كملاك رقيق نائم، أوقفها في منتصف السلم هاتفًا باسمها، التفتت نحوه في تساؤل.. تنحنح لحظة قبل أن يقول في تردد: ألا زلت غاضبة؟ أنا اعتذر بدلًا عنه ولكن اليوم كان مشحون بشدة.. أتعلمين منذ رأيتك وأنا أشعر أنكِ مثل أختي تمامًا!

تمتمت في شرود: وأنت أيضًا تذكرني بأخي «يحيى».

قال في جدية: من الآن فصاعدًا عديني أن تخبريني بكل ما يضايقك.. وأرجو ألا تغضبي من كلام «عاصم».

ابتسمت شاكرة اهتمامه، عاد إلى حيث جلس صديقه ينتظر في قلق

لم يُخفِه وهو يقول: هل أنهيت الموقف؟

أجابه في تباهٍ: بالطبع.. صمت لحظةً تنهد خلالها «عاصم» في راحة، تابع فى حذر: ولكن يجب ألا تجلس هنا كثيرًا.. عيناك ستفضحانك.

هتف في سخط: أتظنني مراهق يُحب لأول مرة في عمره!

هز «حمدي» رأسه مؤكدًا: نعم إنها المرة الأولى التي تُحب فيها.. «أنجيلا» هي من أحبتك، و«شاهيناز» لم تُحبها قط، بل كانت رغبةً في تملك شيء من عائلة «رستم».. أما «ياسمين» فهي أول حب في حياتك، وأنت أمامها تتحول إلى شابٍ مراهق، لا يقترب منها أحد إلا وتثور وتتشاجر و«ياسمين» سيدة ذكية سيأتي وقت وتكتشف فيه مشاعرك.

صمت «عاصم» في تفكير قطعه صوت «سيليا» المذعور حين هبت من فراشها تتأمل المكان حولها.. أسرع يحتويها ويهدهدها، تعلقت بعنقه هاتفةً في توتر: أين نحن؟

أجابها في حنان: أنتِ في مزرعة بابا حبيبتي..هيا لتتناولي طعامك وآخذك في جولة بالقصر.

تلفتت حولها قائلةً: أين «ياسمين»؟

- لقد وظفتها كمربية لكِ.

طبعت على وجنته قبلةً وهي تتمتم ببعض كلمات الشكر.. حملها «عاصم» لينزل بها إلى الأسفل لتتناول طعامها ولكنها فاجأته برغبتها في الاستحمام أولًا، حار في أمره لحظات بينما وقف «حمدي» يرقبهم دون أن يفهم كلمة واحدة من حديثهما قبل أن يطلب منه «عاصم» إحضار

«ياسمين» لمساعدتها.

لم تمض لحظات حتى كانت تخطو داخل الغرفة لتندفع «سيليا» نحوها وتمطرها بوابل من الأسئلة جعلها تقف عاجزةً عن الرد وهي تتجه ببصرها نحو «عاصم» تطلب عونه، شرح لها في سرعة ما تقوله ابنته، متسائلاً كيف استطاعت أن تتعامل معها هناك.

أجابته في بساطة: كان من المستحيل أن أتقن لغةً كاملةً في أسبوع.. فقررتُ أركز على الحوار الذي قد يدور في اليوم نفسه والأشياء التي سنحتاج إليها لدى وصولها حتى نجد صيغةً مناسبةً للتفاهم.

أطلت من عينيه نظرة إعجاب واضحة وهو يتابعها بعينيه تصحب ابنته لداخل الحمام، لم تمض لحظات حتى ارتفعت ضحكات الصغيرة عالية.. ضحكاتها ملأت قلبه سعادة، ورسمت على وجهه ابتسامةً صادقةً لم يعرفها منذ زمن بعيد.

***

جلسوا إلى مائدة الطعام، جذبتها «سيليا» من يدها لتجلس بجوارها، ربتت على ظهر الصغيرة التى أخذت تنظر للطعام أمامها، فقال أبيها وقد أدرك حيرتها: هذه أكلات مصرية ستعجبك.

وضعت «ياسمين» وجهها في طبقها في حين أخذ عاصم وابنته يتحدثان وانهمك «حمدي» في الطعام وهو ينظر من آن لآخر لصديقه وابنته ويبتسم ابتسامةً بلهاء، أنهى طعامه وهو يوجه حديثه لـ «ياسمين» بصوت خفيض: كان الله في عونك.. كيف ستتحملين الجلوس بينهما دون أن تفهمي شيئًا.

أجابته بلهجة مماثلة: هناك بعض العبارات يمكنني فهمها أما بقية حديثهم فلا أفهم منه شيئًا، فهم يتحدثون بسرعة.

ضحك «حمدي» وهو يتابع بصوت أقرب إلى الهمس: أنا لم أفهم حرفًا واحدًا.. منذ سنوات لم أر «عاصم» يضحك من قلبه بهذا الشكل.

ألقت نظرةً سريعةً على «عاصم» الذي أغرق في الضحك هو وابنته فارتسمت على وجهها ابتسامة سعيدة وهي تهمس: «عاصم بك» جبل.. قد يحتمل المرء أي شيء إلا أن يغيب أولاده عنه دون أن يعرف ما يحدث لهم.

قال «حمدي » بنفس اللهجة الهامسة: هذا يبدو حقيقيًا.. رغم أني لم أجرب هذا بنفسي ولا أنتوي.

- ولمَ؟

هز رأسه نفيًا في قوة كأنما ينفض عنه الفكرة بأكملها: ولمَ أحمل الهموم.. وأحضر بيديَّ امرأةً تشبه «عاصم» لا تكف عن القاء الأوامر وأترك «عاصم» في الشركة لأعود فأجدها في البيت.. كلا مستحيل!

- ولمَ تأتي بزوجة تشبهه.. ابحث عن زوجة مطيعة بعض الشيء

- سأفكر.

أنهت طعامها وهي توجه كلامها لـ «حمدي» بلهجة أقرب إلى الهمس: هل أحضر لكم الشاي هنا.. أم تفضلون تناوله في الحديقة؟

أتاها الجواب على لسان «عاصم» وهو يقول: بل في الحديقة.

***

جلس «آسر» في حديقة فيلا أخته «فريدة»، شرد في تلك الأشجار الخضراء المحيطة به، يتأمل وَلَدَيْ أخته وهما يتقافزان في الحديقة الصامتة ليمنحاها البهجة ويبثا فيها الروح، يعشق الأطفال بكل تفاصيلهم، ببراءتهم، بأرواحهم النقية الطاهرة التي تنثر النقاء والصفاء حولها، وتضفى البهجة على المكان، وتبعث فيه نسيم الحياة، أقبلت أخته مسرعة، رحبت به ترحيبًا صادقًا، جلس قبالتها حائرًا يحاول أن يختار كلماته بعناية، يريد أن يحذرها مما سيقدم عليه زوجها، ولكنه يخشى أن يكون قد عجل بهدم هذا البيت بإخبارها، غرق في تفكير عميق، بينما جلست هي تتأمله تحاول أن تستشف ما خلف صمته، تظن أن الأمر يتعلق بطلاقه، تعلم أن خلف طلاقه المفاجئ جرحًا غائرًا، عيناه تخفيان جبالًا من الهموم خلف حدقتيه الزرقاوين، هو الأكثر شبهًا بجدته التركية الأصل، ورث شعرها البُنِّي الناعم، وعيناها الزرقاوين، ولكنه ورث ملامح أبيه الوسيمة، كان أكثر إخوتها حنانًا وعطفًا والأكثر قوةً وحزمًا، لم تعرف أباها وإن كان جدها قد عوضها شيئًا من غيابه، ولكن «آسر» هو أبوها الحقيقي، هو من اهتم بها ورعاها وقام على شؤونها رغم أن فارق السن بينهما هو دقائق سبقها فيها بالنزول إلى الحياة، ولكنه كان يهتم بكل ما يخصها، كانت تعلم كم يجرحه كونه بلا أب رغم وجود أبيه على قيد الحياة، لا زالت تذكر كم كان يؤلمه صورة الأب في الكتب المدرسية، عندما كان يطلب المعلم منهما توجيه رسالة شكر إلى الأب، لقد كان يؤلمهما كثيراً شعورهما باليتم وأبوهما على قيد الحياة لمجرد أنه فضل امرأةً أخرى على أمهما، وفضل العناية بأخيهما بدلًا عنهما، لذا أخذت على نفسها عهدًا أن

يسدد لهما «عاصم» ثمن مرارة اليتم التي تجرعوها.

***

انطلقت «سيليا» تتقافز في الحديقة وهي تجذب «عاصم» ليعدو خلفها، جرى خلفها قليلًا ثم أشار لـ «حمدي» ليكمل بدلًا منه، هتف «حمدي» معترضًا ولكنَّ نظرةً آمرةً من عيني صديقه جعلته ينهض في تذمر، انطلق يعدو خلف الصغيرة التي أخذت تجري هنا وهناك وضحكاتها تتناثر خلفها، قال في سعادة: «سيليا» أعطت للبيت طعم مختلف.

أيدت قوله وهى تتابع الصغيرة بعينيها: هذا حقيقى.. الأطفال يصنعون فارقًا ضخمًا في البيت.

تطلع إليها وشغفه بها يزداد: أعلم أن الأمر سيكون مرهقًا في الفترة القادمة، لذا سأمكث هنا وسأقوم بتعليمك كل يوم حتى يمكنك التفاهم معها جيدًا.

وافقته القول.. صمتت لحظات قبل أن تقول في حذر: سنقوم بتجهيز غرفةٍ خاصةٍ بـ «سيليا» ولكن لا يمكنها الانتقال لها والمبيت بمفردها إلا بعد فترة كبيرة فالتجربة التي مرت بها ستترك أثرًا مفزعًا عليها وستحتاج للكثير من الوقت والاحتواء حتى تتخلص منهاو...

قاطعتها الصغيرة التي أمسكت بكفها وراحت تتحدث في انفعال وهي تشير بيدها إشارات مبهمة، التفتت لـ «عاصم» تطلب معونته فأجابها ضاحكًا: تطلب منكِ أن تلعبي معها.. فلا يعجبها لعب «حمدي»».

تهاوى «حمدي» على المقعد المجاور لـ «عاصم» وهو يلهث من فرط

المجهود قبل أن يقول في غضب مصطنع: من شابه أباه فما ظلم..

اصطحبتها «ياسمين» وأجلستها على الأرجوحة الخشبية في الحديقة، راحت تدفعها بها بينما دوت ضحكات الصغيرة لتملأ المكان وترسم على وجه أبيها علامات الراحة وهو يتمتم بكلمات الحمد، لم يتصور قط أن تسير الأمور على هذا النحو.. لم يتخيل في أحلى أحلامه أن تندمج ابنته مع بيئتها الجديدة بهذا الشكل أو أن تستمتع بلحظاتها الأولى في بيته كما هي سعيدة الآن.. أرجع السبب الرئيسي في ذلك إلى «ياسمين» هدية السماء له ولابنته، أدرك أن عليه أن يحرص على عدم إظهار مشاعره قط لئلا يفقدها، فابنته لن تحتمل البقاء بدونها وكذلك هو، راقب ابنته التي هرولت نحوه وهي تلهث من فرط السعادة، تبعتها «ياسمين» تسير متمهلةً قبل أن تتوقف على مقربة منه لتستأذنه في الذهاب لأداء صلاة المغرب ولكنه رآها فرصةً مناسبةً لكي ترى ابنته الصلاة فطلب منها الانضمام لهم في صلاة الجماعة.. واقترحت عليه «ياسمين» أن يخصص مكانًا في الحديقة للصلاة.

اصطفوا للصلاة بينما وقفت الصغيرة تراقبهم في حيرة فقد وقف أبوها وبجواره «حمدي» وقد تراجع للخلف قليلًا، في حين وقفت «ياسمين» خلفهم تبعد عنهم بمسافة معقولة والجميع يؤدون نفس الحركات، حاولت الحديث معهم ولكن أحدًا لم يُعرها اهتمامًا حتى التفت أبوها عن يمينه ثم عاد ينظر جهة اليسار قبل أن يلتفت لها ويبتسم لها فاتحًا ذراعيه وهو يقول: هل تريدين شيئًا حبيبتي؟

ارتمت بين ذراعيه متسائلة عما يفعلونه، أجابها بابتسامة واسعة: كنا نصلي حبيبتي.

هتفت في دهشة: ولكنكم تصلون بطريقة غريبة للغاية.

حار في البحث عن ردٍ مناسب لسنها ولما عجز التفت إليهما يشرح لهما ما تقوله فقال «حمدي» في جدية مصطنعة: لقد تغيرت الدنيا كثيراً يا ابنتي كانوا في الماضي أيام «أبو جهل» يطوفون حول «هُبل» أما الآن فنحن في فجر الإسلام.

علت ضحكاتهم حتى قطعتها «ياسمين» وهي تحتويها بين ذراعيها في حنان قائلةً: هذه صلاتنا سوف أشرح لكِ لاحقًا أهميتها وفوائدها.

انتهوا من تناول بعض الفاكهة، لهثت «سيليا» من فرط المجهود وهي ترافق أباها إلى غرفته وتستكين بين ذراعيه وتغرق في سبات عميق وهو يحكي لها إحدى قصص الأطفال.. ألقى نظرةً على وجه ابنته التى أضاءت حياته حقًّا.. صدق المثل الألماني "الطفل مصباح البيت المعتم"، راح يتأمل ملامحها البريئة، تلك الصغيرة الرقيقة كان لقدومها وقع السحر في نفسه، ملأت جنبات نفسه نورًا وأحيت موات قلبه، ظل يتأملها ولسانه يلهج بالحمد قبل أن يستسلم للنوم.

الفصل التاسع

استيقظ مبكرًا كعادته.. تسلل من فراشه بحذر حتى لا يوقظ جميلته النائمة، التقى «حمدي» في البهو وقد ارتدى كامل ثيابه واستعد للمغادرة، رافقه حتى باب الحديقة وهو يوصيه ببعض الأشياء في العمل، صافحه في حرارة، وقف يتابعه ببصره حتى غاب عن عينيه، استدار عائدًا ليجد ياسمينته تتفتح زهرتها في حديقته وقد وقفت تستقبل نسمات الصباح الأولى، فاتحة ذراعيها تتلقى أشعة الشمس كأنما تسعى لضمها إلى أحضانها..تتلمس دفئها ونورها فى حياة قاتمة، بدت كزهرة تتفتح أوراقها لتستقبل نصيبها من عطايا الصباح، وقف لحظات مأخوذًا بسحر اللحظة قبل أن يتوارى في سرعة حتى لا يفسد عليها استمتاعها بالطبيعة، سبقها إلى تكعيبته، استوقفها قبل أن تدخل إلى القصر.. عادت أدراجها نحوه، أشار لها بالجلوس، فجلست على مسافة مناسبة، قال فى هدوء: لن أستطيع أن أبقى هنا لفترة طويلة لذا يجب أن أساعدك لإتقان اللغة الألمانية.. فلنبدأ بم سيكون محور كلامك مع «سيليا» وما تحتاجين أن تركزي عليه الفترة القادمة..ما الموضوعات التي تعتقدين أنكِ ستكونين بحاجة إليها؟

أجابته في تفكير: اللعب -الخروج- أسئلة عنك وعن عملك وأقاربك.

ابتسم في إعجاب وهو يقول: هذا بالضبط ما ستسأل عنه.. بالإضافة إلى أسئلة شخصية عنك، فهي تحب أن تعرف كل ما يدور حولها، ولقد ساعدتها على أن تنمي حب المعرفة لديها.

أشعلت كلماته رغبةً في الصراخ لديها.. ذكرتها بنفسها حين كانت طفلةً تحب أن تكتشف كل شيء، تمنت لو أخبرته أنها سُجنت لأيامٍ كفت عن عدها بسبب معرفتها بم لا يجب أن تعرفه، خرجت من دوامة نفسها وهي تهمس في مرارة: المعرفة ليست دائمًا جيدة.. قد نعرف أشياء تدفع بنا إلى الجحيم.

هز رأسه نفيًا فى قوة قائلًا فى عمق: الجهل هو ما يدفع بصاحبه إلى الجحيم، فكما يقول سقراط العلم هو الخير والجهل هو الشر، ولو كانت المعرفة تصل بصاحبها إلى الجحيم، لما كان أول أمر قرآني هو اقرأ، فأكثر ما يضر الإنسان هو الجهل لأنه يحبسه في سجن الخوف، فالمجهول هو أكثر ما يخيف الانسان.

أشرق وجهها للحظات وهي تشرد في كلامه، إنه محق.. لو لم تسعَ للمعرفة لظلت حبيسة الوهم، ولظلت تعيش حياةً زائفة، تظن نفسها تتنفس، بينما هي على قيد الموت، لو لم تسعَ للمعرفة لما التقت بفارس حقيقى مثله، ولظلت تعيش في سجن اختياري، لو لم تعرف لظلت أسيرةً وهي تظن نفسها حرة، لو لم تعرف حقًّا لانتهى عمرها وقد سرقت منها حياتها، خرجت من شرودها وهي تسأله: ماذا تتوقع أن تكون أسئلتها؟

أدرك أن هروبها من الاستمرار في هذا الاتجاه عائد إلى أزمتها فقال:

يمكنك أن تبدئي بالتعريف عن نفسك.

بدأت تحاول الإدلاء بمعلومات عن نفسها بالألمانية، راح يساعدها عندما تتعثر، أخذت تردد خلفه بعض الكلمات، علقت عيناه بشفتيها للحظات قبل أن يستجمع نفسه لينهى هذا الدرس الذي سينتهي بكارثة إن استمر أكثر من ذلك وهو يتمتم بينه وبين نفسه: يبدو أن «حمدي» كان محقًّا.

عاد إلى غرفته وكأن شياطين الأرض تطارده، وقف يلتقط أنفاسه التي خشي أن تفضحه منذ لحظات، يبدو أنه عاشق بحق فهو لم يمر بتلك المشاعر من قبل، لم تؤثر فيه كلمات متعثرة تخرج من فم امرأة من قبل قط، يجب عليه أن يزداد حرصًا من الآن فصاعدًا وإلا فقدها إلى الأبد.

***

دخل «فكري» إلى مكتبه، تبعته سكرتيرته وهي تهمس في دلال: هل أحضر لك قهوتك المفضلة؟

تأملها «فكري» لحظةً وقد أخذت كلمات «آسر» تدوي في رأسه فقال في تفكير: ليس الآن.

هتفت في لهفة: هل هناك ما يشغلك؟

أجابها في قلق: لقد قررت أن أطلق «فريدة» كما تريدين، ولكنها في المقابل ستحصل على كل أموالي فالفيلا والشركة باسمها.. لن يعنيني هذا طالما أنكِ ستكونين بجواري، سأبدأ من جديد، وفى النهاية هي ستحافظ على المال لأجل أطفالي.

احتقن وجه الفتاة وهي تتطلع إليه بعينين زائغتين، هتفت في هلع:

ماذا تعني بهذا الكلام.. هل صحيح أن كل أموالك باسمها؟ كيف تفعل هذا؟

قال في هدوء: وما شأنك أنتِ بهذا؟ لقد أخبرتك أني سأبدأ من جديد.. وكما جنيت هذه الأموال سأجنى غيرها، عليكِ أن تقفي بجواري حتى يمكنني الوقوف على قدميّ.

صاحت في استنكار: كم عمرك؟ هل تظن أنك قادر على أن تفعل ما فعلته منذ عشرين عامًا؟ ما هذا الهراء؟

قال في غضب مكتوم: ما كنت سأفعله هو الهراء بعينه، يمكنك الحصول على بقية مستحقاتك من شؤون العاملين.

حدقت في وجهه باستنكار للحظات، قبل أن تفهم الأمر برمته وتغرق وجهها بدموع التماسيح التي لم تعد تجدي معه نفعًا.

***

استيقظت «سيليا» لتجد أباها يجلس بجوارها يطالع بعض الأوراق.. قبلها واحتواها في حنان، راحا يتحدثان سويًا قبل أن يستدعي لها «ياسمين» التي قامت بمساعدتها على الاستحمام واختارت لها ثيابًا منزليةً مريحةً واصطحبتها لتناول الإفطار في الحديقة مع وعد باصطحابها لإطعام الحيوانات حال الانتهاء من طعامها كاملًا، راقه اختيارها لأطعمة ألمانية في وجبة الإفطار، فقال في إعجاب ظاهر: من أين عرفتِ هذه الأطعمة؟

- طلبت من «لويز» أن تعلمني وعم «حنفي» بعض الأطعمة الألمانية حتى تعتاد «سيليا» على طعامنا ولا تصاب بأي مشاكل في جهازها الهضمي.

تدخلت «سيليا» في الحديث هاتفة: أريد أن أرى مصر كلها.

قال «عاصم » في مرح: مصر كلها!! قولي جزءًا منها.

تدخلت «ياسمين» في الحوار قائلةً: حتى تستمتعي بمشاهدة آثار مصر وطبيعتها الساحرة يجب عليكِ أن تتعلمي اللغة العربية.

أكد على كلامها: ما رأيك أن نقوم بتعليم مزدوج.. أعلمك العربية بينما «ياسمين» تتعلم الألمانية؟

هزت رأسها دلالة الموافقة فتابع: ما الذي تحبين أن نبدأ به تعليمك؟

قالت في حماسة: أريد أن أعرف كل شيء.

ابتسمت «ياسمين» وهي تربت على رأسها، ستساعدها على اكتشاف العالم من حولها.. تدرك الآن أن رغبتها في المعرفة أخرجتها من وهمٍ كبير وأنقذتها من موت على قيد الحياة ودفعت بها خارج الجحيم وإن اكتوت بنيرانه لبعض الوقت فهي الآن مقتنعة أنها ضريبة الجهل وليست ضريبة المعرفة، عليها أن تساعد الصغيرة لتروي ظمأها للمعرفة، فهي الآن صارت موقنةً أنه من الخير للإنسان أن تؤلمه عيناه من نور الحقيقة خير من أن يبقى أعمى في ظلام الجهل.

***

ترجل «فكري» من سيارته أمام بيت والده في ذلك الحى الشعبي، ذلك البيت الذي شهد طفولته وشبابه، رفض والده الانتقال من هذا البيت حتى بعد أن أصبح ثريًا، كان يعشق بيته ويجد راحته بين جيرانه وأهله. هؤلاء الناس الطيبون، أبوابهم مشرعة على الدوام، قلوبهم مفتوحة على من حولهم، الدفء يملأ الحي، الناس هنا لبعضهم كما يحلو لهم القول دائمًا،

كان والده يذكِّره دومًا بكلمات سيدنا على ابن أبى طالب "من تكبر على الناس ذل" ويوصيه دائمًا ألا ينسى أصله وأهله، ويخبره أن صلة الرحم تزيد الرزق وتبارك في العمر، دسَّ مفتاحه في ثقب الباب، تطلع في دهشة إلى تلك المرأة التي جلست بجوار والدته تعلمها القرآن، تبدو مألوفةً بالنسبة له، ولكنه لا يدرك أين رآها من قبل، سارعت والدته للترحيب به، في حين أغلقت مصحفها وهي تنهض في خجل لتبادر بالانصراف، أوقفتها والدته وهي تقول في عفوية: إنه «فكري» ولدي.. ثم التفتت تشير إليها: «إيمان» جارتنا ابنة عمك «إبراهيم».

أومأ برأسه مرحبًا، بينما تجاوزته في سرعة وهي تغادر مغلقةً الباب خلفها.

جلس على الأريكة المواجهة للباب في إرهاق، ربتت والدته على كتفه قائلةً في حنان: أدعو الله لك ليل نهار أن يريح بالك يا ولدي.

قبل يدها، ظل بجوارها صامتًا لحظات قبل أن يهمس في حيرة: يبدو أنني أخطأت بهذا الزواج يا أمي... أتحمل لأجل أولادي، لا أريدهم أن يَنشؤوا بين أبوين منفصلين، ولكني لم أعد أحتمل هذه الحياة.

احتوته في حنان قائلةً: لا تظلمها يا ولدي وسيجعل الله لك مخرجًا، كانت «إيمان» تعلمني اليوم سورة الطلاق وأخبرتني أنها من السور التي ورد فيها الأمر بالتقوى عدة مرات، إشارةً إلى أن الانفصال يجب على الطرفين أن يتقوا الله فيه، وتذكَّر يا ولدي أنه لا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر.

***

ألقت نظرةً سريعةً على «أحمد» الذي وقف بعيدًا ينظر إلى «سيليا» في فضول، التفتت لــ«عاصم» قائلةً: ربما سيفيدها كثيرًا أن تلعب مع طفل في مثل عمرها.. أعتقد أن وجود «أحمد» سيساعدها كثيرًا

لم تعطه ابنته فرصة الرد بل قفزت نحو «أحمد» تجذبه ليلعب معها هاتفةً بالألمانية، فغر«أحمد» فاه فقال «عاصم»: تطلب منك أن تلعب معها.

هز الصغير رأسه دلالة الفهم في حين لم تمهله «سيليا» وهي تجذبه ليعدو بجوارها، راقبها لحظات ثم قال: لن تستمتع باللعب معه فلن يفهمها.

أجابته في ثقة: الأطفال لديهم لغة مشتركة يستطيعون التواصل مع بعضهم البعض دون كلام، ربما لأن عقولهم الصغيرة وقلوبهم الخضراء لا زالت نقيةً لم تلوثها الدنيا بزيفها ونفاقها.

همس فى رقة: مثلك تمامًا.

تراءت لها القيود والأغلال التي رافقتها لزمن توقفت عن عدِّه قبل أن تقول في شرود: ربما كنت كذلك في الماضي قبل.... بترت عبارتها وهي تشيح بوجهها في ألم، تمنى أن يحتويها بعد سحابة الحزن التي عبرت وجهها ولكنه قبض بيديه علي مقبض الكرسي وهو يقول: أخبريني ما الذي حدث لكِ؟ أشعر أنكِ تعرضتِ لأذًى كبير!

حارت أتخبره بما مرت به حقًّا؟ لا يمكنها أن تحدد كيف ستكون ردة فعله.. هل سيتفهم ما حدث أم سيخشى على ابنته منها؟ أو ربما سينتابه القلق حيال وجودها في بيته وما قد تجره عليه من مصائب؟ أخرجها صوته من حيرتها يستحثها لتقص عليه حكايتها.

أُسقط في يدها وهي تجد نفسها مضطرةً لخوض الاختبار حتى نهايته وانتظار النتيجة التي لا تعلم هل ستكون لصالحها أم لا؟

حاولت الهروب في محاولة يائسة، التفتت نحو «أحمد» و«سيليا» اللذين أخذا يجريان ويلعبان معًا ويتقافزان في سرور، تتبع بصرها وهو يرى السعادة تتجسد في ملامح ابنته فقال: أنتِ محقة.

عاد يلتفت إليها في اهتمام صامت أنبأها أنه ينتظر قصتها، تنحنحت في ارتباك قائلةً: ليس لدي الكثير.. لقد بدأ الأمر بزواج كارثي..

أنقذتها «سيليا» وهي تندفع بينهما هاربةً من «أحمد» الذي أخذ يعدو خلفها ولكنه تسمر مكانه حين اقتربت من أبيها، منحها أبوها عناقًا حانيًا قبل أن تندفع عائدةً إلى حيث «أحمد» لتجذبه من يده مرةً أخرى وينطلقان في أرجاء الحديقة الواسعة.. تابعتهما بعينيها لحظةً وهي تقول: أتمنى أن تقلل الحاجز النفسي بينك وبين «أحمد» فهو يخشاك بشدة وهذا سيكون له أثر سلبى عليه في المستقبل وسينعكس على ابنتك بكل تأكيد لأنه سيصل في النهاية إلى حالة من اثنتين، إما أن يتجنبها تمامًا ويرفض اللعب معها وهذا سيجعلها تخسر فرصة الحصول على أصدقاء من سنها تلعب معهم، وإما أن يحاول التفوق عليها وبهذا سيكون مصدر مشاكل لها.. وفى النهاية سيخسر كلاهما.

قال في تفكير: والداه هما من جعلاه يخشاني فلا أذكر أن الولد قد حاول الاقتراب مني طيلة فترة وجودي.. على أية حال سأنتبه لذلك جيدًا، أكملي قصتك.

هزت كتفيها في استسلام، فتحت فمها لتتكلم، ولكنها أغلقته فى سرعة

حين ارتفع صراخ «سيليا»، قفزا يتبعان صوتها حتى وصلا إلى شجرة المانجو حيث وقف «أحمد» فوق الشجرة وقد اصفر وجهه وتسمَّرت قدماه بينما تكورت الصغيرة على نفسها أرضًا وهي تصرخ في ألم جعل «عاصم» يهتف في حدة: ماذا حدث؟

امتقع وجه الصبى وهو يقول في تلعثم: لقد أشارت إلى المانجو فتسلقت الشجرة لأحضر لها ماتريد، وفجأة وجدتها خلفي تحاول أن تتسلق الشجرة، طلبت منها أن تنزل ولكنها لم تفهمني وفجأةً سقطت من الشجرة.

طمأنت «ياسمين» الصغير في سرعة وهي تشير لـ «عاصم» بالتوقف هاتفةً: لا تحملها فربما أُصيبت بكسر أو شرخ، وأي حركة خاطئة ستكون نتائجها غير جيدة.

التفتت إلى الصغيرة التي تئن في ألم، همست في حنان: هيا حبيبتي قومي بتحريك ساقيك قدر استطاعتك.

حركت الصغيرة ساقيها في ألم فقالت «ياسمين» في ارتياح: الحمد لله إنها مجرد كدمات يمكننا التعامل معها

حملها «عاصم» وطار بها صوب القصر تلحق به «ياسمين » التي ربتت على كتف الصغير قائلة: لا عليك حبيبي.. كنت رائعًا وحاولت حمايتها، لكنها لم تفهمك، ما رأيك أن نبدأ دروسًا لتتعلم لغتها وتعلمها اللغة العربية حتى يستطيع كل منكما أن يفهم الآخر جيدًا؟

أومأ الصغير برأسه في حماسة، فربتت على رأسه وهي تتابع: أنت بطلي الحقيقي..ثم أسرعت تلحق بـ «عاصم» إلى الداخل.

***

لم تكد تعبر البهو حتى ارتفع رنين الهاتف تجاهلاه وهما يصعدان بالصغيرة إلى الأعلى، وضعها «عاصم» في الفراش برفق وقلبه يتمزق حين تتألم، في حين أسرعت تحضر بعض المطهرات والقطن والشاش.. راحت تطهر لها ساقيها برفق قبل أن تطلب منه مساعدتها للحصول على حمام دافئ.. أعادا الصغيرة لفراشها بحذر، قامت بوضع بعض المراهم والكريمات على ساقى الصغيرة التي سرعان ما غفت.. تنفس الصعداء حين رقدت ابنته، تهاوى على المقعد المجاور هاتفًا: حمدًا لله.

عاد رنين الهاتف يرتفع في إصرار فأسرعت ترفع سماعة الهاتف حتى لا توقظ الطفلة النائمة، أتاها صوت «حمدي» على الجانب الآخر هاتفًا في قلق: لم َلا يجيب أحد على الهاتف.. هل هناك ما يسوء؟

أجابته في سرعة: كلا نحن بخير هل تريد التحدث إلى «عاصم» بك؟ قالتها وهي تناول السماعة لـ «عاصم» الذي التقطها ليأتيه صوت «حمدي» هاتفًا في توتر: يجب أن تأتى إلى الشركة في الحال.. هناك كارثة.. انعقد حاجبا «عاصم» وهو يستمع إليه في تركيز يخبره بقدوم محققين جاءوا للتحقيق معه وهم في انتظاره.. وأيضًا بقدوم «لميس» إلى شركته وسؤالها عنه واعتقاده أنها في الطريق إليه، أغلق الهاتف وهو يتحرك في سرعة ساحبًا ثيابه من الدولاب المجاور له قائلًا في عجالة: انتبهي لـ «سيليا» جيدًا فيجب أن أذهب للشركة حالًا.

قالت في قلق: ماذا حدث؟

- هناك محققين في انتظاري.. كما أن «لميس» في الطريق.

شعرت بقبضة باردة تعتصر معدتها وهي تهمس في توتر: خطيبتك قادمة؟

التفت إليها يتفحص ملامحها جيدًا قبل أن يقول في بطء: هي ليست خطيبتي ولن تكون فعندما أرغب في زوجة يجب أن تكون امرأةً ذات مواصفات خاصة، يجب أن تصلح أمًّا لابنتي وأن تحصل على قلبي.

رغمًا عنها تهللت أساريرها وأطلت الفرحة واضحة من عينيها الجميلتين، غاص في عمق عينيها.. تجذبه إلى أعماق نفسها المعذبة، يشعر بنفسه كغواص وسط لآلئ سوداء لا يضئ بريقها أمامه أي شيء، أخرجته من نفسها وهي تقول في ارتباك: وماذا أفعل عند حضور السيدة «لميس» هل أسمح لها بالتعرف إلى «سيليا»؟

- لا تسمحي لها بالدخول من الأساس..

همت بمغادرة الغرفة ليبدل ثيابه ولكنه استوقفها قائلًا: لا تفارقي «سيليا» سأذهب للغرفة المجاورة.

جلست تتأمل ربطة عنقه التي تركها خلفه، لا تدري لم تقلبت مشاعرها بهذا الشكل بين ضيق وفرح، بين راحة وقلق، بين انقباض القلب وانبساطه.. بداخلها ساحة صراع تتصارع رغبتها في الصمت مع رغبتها في البوح، تتصارع مشاعر جديدة عليها مع خوفها، شيء خفي داخلها يقاتل ليعلن عن نفسه بوضوح، ولكن أسوار الماضي العالية تخفيه خلفها.

***

عاد «فكري» إلى بيته، اصطدم بابنته «هيا» التي راحت تعدو خلف أخيها «آسر» في قوة وهي تتوعده لأنه اختطف لعبتها، أحاط بها ليوقفها في حنان، تعلقت بعنقه في سعادة، منحته قبلة على وجنته بينما هرع أخوها الصغير إليه يشاركها معانقته، دفعته في غضب، ولكنه احتوى كلاهما وهو يضم رؤوسهما إلى بعضهما قائلًا في حب: من أعظم النعم

على الإنسان أن يكون له أخ أو أخت فاشكرا الله على هذه النعمة.

أنزلهما ليلعبا سويًا وكأن شيئًا لم يكن، تمنى في أعماقه لو كان الكبار يتمتعون بنفوس الأطفال النقية التي تصفو في ثوانٍ معدودات، ويتعامل كل منهم مع الآخر كأن شيئًا لم يكن.

***

انتهى من ارتداء ثيابه، وقف ينظر لنفسه في المرآة، ارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة وهو يتذكر انفراج أساريرها حين أخبرها أن «لميس» ليست خطيبته، عاد يُذَكِّر نفسه أنها ربما سُرت لأن «لميس» أحرجتها من قبل والمرأة لا تُحب أن تتسيد عليها أخرى.

تحرك ليلتقط ساعته وهو ينثر قليلًا من عطره الرجولي على ثيابه، عاد أدراجه إليها ليودعها وابنته قبل أن يُغادر..انطلق بسيارته تتبعه عيناها ودعواتها بأن يعود سالمـًا وأن ينجيه الله من كل كرب، ظل يتذكر وداعها له ودعواتها التي أمطرته بها، شعر أنه يودع أمه بحنانها واهتمامها وعطفها، تمنى لو ترك الدنيا بأسرها وبقى بجوارها..معها يشعر أنه قد اكتمل، بجوارها يشعر بالأمان، في حضورها يشعر بالراحة والسكينة، تنقله كلماتها الحيية وابتسامتها الخجلى إلى عالم صافٍ نقي، سقط من سمائه الصافية إلى أرض الواقع حين اصطدم بصره بـ «لميس» التي أتت من الاتجاه المعاكس وأشارت له فأوقف سيارته على جانب الطريق وانتظر حتى دارت بسيارتها وأوقفتها خلفه قبل أن تترجل منها لتجلس بجواره قائلةً بابتسامة لزجة: افتقدتك كثيرًا.. أين كنت؟

قال فى جمود: إلى أين أنتِ ذاهبة؟

- كنت ذاهبة إليك.. سألت عنك وعرفت أنك لم تأتِ إلى الشركة منذ أيام، رغم أني كنت غاضبةً منك لأنك أحرجتني أمام تلك السيدة السمجة التي كانت في قصرك.

قال في هدوء دون أن يلتفت إليها: هل كنتِ تريدين شيئًا؟

هتفت في سخط: رغبت في الاطمئنان عليك فحسب.

أجابها في هدوء أقرب إلى البرود: أنا بخير.. شكرًا لكِ.

عقدت ساعديها أمام صدرها قائلةً في غضب: لم تخبرني بعد من تلك السيدة هناك؟

أخذ نفسًا عميقًا ليهدئ من البركان الثائر بداخله وهو يقول في هدوء ظاهري: وهل مطلوب مني أن أقدم تقريرًا عن العاملين في قصري؟

- لا يعنيني العاملين في القصر.. تعنيني تلك المرأة، أظن أن هناك شيئًا بينكما.

- شيء.. أي شيء؟! صمت لحظةً ثم تابع في صرامة مخيفة: أنت تتحدثين إلى «عاصم أكرم» وليس إلى زير نساء.

أجفلتها صرامته فعادت تقول في دلال: آسفة أنني أسأت الظن بك.

قال في برود: أعتقد أن علاقة العمل التي تربط بيني وبين والدك لا تمنحك حق التدخل في شؤوني الخاصة.

تطلعت إليه في ذهول لحظات قبل أن تصيح في غضب: من تظن نفسك؟ هل تظن أنني أسعى خلفك؟ أنا «ليس زاهر» التي قد يدفع البعض عمره لقاء كلمة منها.

قال في دهشة مصطنعة: لم أنتِ غاضبة؟! أنا لم أخطئ في حقك.. أنا

أضع النقاط على الحروف.

كادت تنفجر من الغيظ وهي تقول في لهجة حاولت أن تجعلها تبدو هادئةً: أعتقد أن رسالتك قد وصلت.. هل يمكنني النزول هنا؟

أجابها في هدوء يتنافى مع الموقف: كلا بالطبع، لا يمكنني أن أتركك على الطريق.

حدقت في وجهه بذهول وقد عاد الأمل ينبض داخلها من جديد.

***

وصل إلى مكتبه في زمن قياسي، استقبله «حمدي» في توتر ولكنه بدا رابط الجأش وهو يدلف إلى حجرة مكتبه ويستقبل المحققين في هدوء يُحسد عليه، جلس خلف مكتبه في حين ابتدره المحقق قائلًا: هناك بلاغ محول إلينا من السفارة الألمانية بقيامك باختطاف الطفلة «سيليا ويبر »، لم نشأ أن نثير البلبلة باستدعائك لدينا.

ضرب «عاصم» سطح مكتبه بقبضته فى قوة وهو يهتف في ثورة: ماذا تقول؟ انها ابنتي.. هل ضاعت منهم؟ لقد أضاعوا ابنتي..

ثم رفع صوته طالبًا من «حمدي» استدعاء محاميه وأن يحجز له على أول طائرة متجهة إلى ألمانيا.

قال المحقق في مهنية: نأسف لما حدث، ولكن يجب استكمال التحقيق.

صاح في غضب: تحقيق ماذا؟ أنا من يطلب التحقيق إنها ابنتي وقد كانت في عهدة جدتها هناك.. سأرفع قضيةً عليهم في بلادهم فحقي لن يأتي هنا.

- اهدأ من فضلك، نحتاج منك أن تجيب على أسئلتنا ومن ثم توقع

على المحضر حتى ينتهى عملنا.

هتف في استنكار: عملكم؟! وما هو دوركم لإعادة ابنتي إنها طفلة مصرية ضائعة.. ما الذي ستقدمونه لمساعدتي؟

- يمكنك التقدم ببلاغ رسمي.

رد عليه بسخرية لاذعة: بلاغ؟!! ثم بعد أن يمر الوقت وتضيع ابنتي للأبد يأتي أحدكم ليخبرني أنكم لستم جهة اختصاص.. أنا سأبحث عن ابنتي بنفسي.

قال المحقق فى سرعة كأنما يُلقى عبئًا ثقيلاً عن كتفيه: نحن آسفون للغاية.. نرجو منك التوقيع على المحضر حتى ننصرف.

***

مر «فكري» على والدته كعادته، أنهى زيارته لها والتقى بأفراد من عائلته، تزول همومه حين يجتمع بالعائلة، العائلة بالنسبة له كابتسامات المطر، تبلل بالدفء روحه، يحتمى بعائلته من صروف الزمان وتقلبات الدنيا، فالعائلة هي الملاذ في عالم لا قلب له، لقد أخطأ كثيرًا حين اختار زوجته لجمالها وحسبها، فالأسرة لا تقوم على جمال المرأة ولكن تقوم على أخلاقها ودينها، وها هو يدفع ثمن خطئه، خطا خارج بيته يودع دفء العائلة ليستقبل برد الحياة، لفت نظره تلك المرأة التي أولته ظهرها وهي تتشاجر مع سائق سيارة أجرة، لم يكن سيعنيه الأمر لولا أن السائق قد أوقف سيارته كصفٍ ثان بجوار سيارته وأغلق عليه طريق الخروج، تدخل في الحوار ليفض الموقف: كل مشكلة ولها حل.

التفتت إليه «إيمان» في حدة قبل أن تعود إلى السائق تنهره على

تعديه على الرجل المسن الذي ساعدته على النزول من سيارة الأجرة هاتفة: ماذا لو لم يكن معه المال ليدفع لك، كيف تحرجه بهذا الشكل؟ كم أجرتك؟

قال الرجل في غضب: ستون جنيه

صاحت في استنكار: هل أحضرته من تل أبيب؟ الطريق لا يستحق سوى ثلاثين جنيهًا على أكثر تقدير، ولو كنت سائقًا مهذبًا لمنحتك ما تريد، أما وقد أسأت إليه فلن تأخذ سوى خمسة وعشرين جنيهًا فقط.. قالتها وهي تلقى له بالنقود وتصطحب ذلك الرجل المسن الذي ارتعشت قدماه وهو يستند على ذراعها بيد بينما تستند الأخرى على عصا خشبية متهالكة، لم يتوقف الرجل عن الدعاء لها، بينما راح سائق الأجرة يلعن الساعة التي أقل فيها العجوز، تتبعها بعينيه وهي تساعد الرجل حتى وصل إلى محل صغير للبقالة.. أسرعت تحضر زجاجة مياه ناولتها للرجل العجوز الذي راح يغمرها بدعواته بالحفظ والبركة.

***

راقب «حمدي» انصرافهم وهو يبتسم في إعجاب قبل أن يهتف: أنت عبقري بحق.. أنا نفسى صدقتك، وشعرت بالأسى من أجلك لضياع ابنتك، ولكن هل ستسافر حقًا؟

- بالطبع فليس من المنطقي أن تضيع ابنتي ولا أسافر للبحث عنها، كما أنني سأرفع عليهم قضية في بلادهم أتهمهم فيها بالإهمال وسأطلب تعويضًا أيضًا.. سأهاجمهم في عقر دارهم..فالهجوم خير وسيلة للدفاع، سأمر على المزرعة لأطمئن عليهم هناك قبل سفري.

- رأيي ألا تذهب.. ربما وضعوك تحت المراقبة، وأنا سألبي كل طلباتهم.

هم بالرد عليه ولكن رنين الهاتف أوقفه و«حمدي» يُرحب بـ «ياسمين» على الهاتف ويناوله السماعة التي التقطها في سرعة قائلًا: سأتصل بكِ لاحقًا فلدي عمل.. ثم أغلق الهاتف وهو يلتفت لـ«حمدي» الذي تطلع إليه في تساؤل مجيبًا: قد يكون التليفون أيضًا مُراقب، هيا لننه كل الأعمال التي قد تحتاجني.

وانكبا على الأوراق أمامهما في اهتمام.

***

تطلعت إلى الهاتف المغلق لحظات والقلق يعصف بنفسها.. تخشى أن تكون الأمور قد سارت بشكل سيئ في التحقيق، الهواجس تنتابها لأنه أنهى المكالمة بهذه السرعة دون أن يطمئنها بكلمة.. ربما كان المحققون لا زالوا أمامه، لا ريب أن هناك ما حدث، سيقتلها القلق يومًا ما، لم تكن يومًا شخصيةً قلقةً ولكن بعد تجربة سجنها أصبح القلق رفيقها الدائم، ذلك القلق الذى يحرق أعصابها كل يوم على موقد الخوف، إنه الفائدة المدفوعة على المشاكل قبل أن يحين موعد استحقاقها.. وها هي تدفع الفائدة كل يوم.

***

أشارت عقارب الساعة إلى العاشرة ليلًا عندما ألقى «حمدي» بجسده في تهالك وهو يقول في إرهاق: كفى لقد أنهينا عمل سنة كاملة.. أنا جائع.

تراجع «عاصم» في مقعده في إرهاق مماثل: لنذهب إلى أي مطعم قريب.. وبعدها سأذهب إلى المزرعة.

- نذهب إلى المطعم ولكن لا تذهب إلى المزرعة.

- قال في حنين: لا يمكنني السفر قبل وداعهما، ثم إننا سنتجول الآن في أماكن عدة حتى نتأكد أن لا أحد خلفنا.. هيا بنا.

***

أنهت «سيليا» ارتداء ملابسها بمساعدة «ياسمين»، جلست على فراش أبيها قائلةً: سأنتظر أبي

ربتت على ظهرها في حنان: لقد حان موعد نومك حبيبتي ولدى أبيكِ الكثير من العمل وعندما يعود يجب أن يجدك في فراشك.

- لا تتركيني وحدي.. نامي بجواري حتى يأتي أبى، أخشى أن يتم اختطافي مرةً أخرى.

شعرت بالشفقة لأجلها وهي تحتضن الصغيرة في حب، جلست على حافة الفراش في حذر،تحسست موضع رأسه تتخيل صاحبه يدخل عليها، لا يمكنها أن تخمن ردة فعله حين يجدها في فراشه.. لن تكون جيدةً بكل تأكيد، عاونت الصغيرة على النوم وهي تحكي لها قصةً من قصص الأطفال التي جاهدت لتحفظها بالألمانية،ذكرت نفسها بضرورة الإسراع بتعليم الطفلة اللغة العربية حتى لا ترهق نفسها طيلة الوقت بالتحضير للكلام معها، تمطت الصغيرة في كسل وهي تطلب من «ياسمين» أن تنام بين ذراعيها كما يفعل أبوها، أذعنت للصغيرة وهي تنزلق في الفراش وتحتويها بين ذراعيها، أخذت تهدهدها بأغنية ألمانية حفظت جزءًا منها من «لويز» حتى غطت في نوم عميق، ظلت مستيقظة ترقب القلق ينهش

داخلها، تخشى أن يكون مكروهًا قد أصابه، وتخشى عودته المفاجئة ليجدها وقد احتلت فراشه، أنهكها القلق وأضعف التوتر أعصابها حين أشارت عقارب الساعة إلى الثانية صباحًا، راحت تستغفر لتقتل شجرة الخوف التي تزهر بداخلها على الدوام حتى غرقت في نوم عميق.

الفصل العاشر

أشارت عقارب الساعة إلى الثالثة صباحًا حينما عبرت سيارة «عاصم» البوابة الخارجية للقصر، صعد السلم الداخلى في خطوات أقرب إلى العدو، فتح باب غرفته في لهفة ليحتوي ابنته التي اشتاق لرؤيتها كأنما لم يرها منذ سنوات، تسمرت عيناه عليها وقد أحاطت طفلته بين ذراعيها، بينما رقدت الصغيرة على صدرها، ظل يُملي عينيه من كلتاهما والشوق إليهما يقتله.. تركزت عيناه على «ياسمين» التي بدت وكأنما تعاني من كابوس مؤلم فقد انقبضت ملامح وجهها بشدة وهي تتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة التي لم يميز منها حرفًا واحدًا قبل أن ترتاح ملامحها وتعلو السكينة وجهها، ظل واقفًا يرقبها للحظات، همَّ بإيقاظها ولكنه تراجع، توقف لحظة يتأمل وجهها البرئ قبل أن يغادر الغرفة على أطراف أصابعه.

***

لم تستطع الخروج من الغرفة لتعانق نسمات الصباح الأولى كعادتها فقد خشيت أن تترك الصغيرة بمفردها، جلست بجوارها تقرأ القرآن، فتحت عينيها هامسةً بصوتٍ ناعس: هل عاد أبي؟

أجابتها وهى تمسح على رأسها فى حنان: لا أعتقد.. سنتصل به تليفونيًا على أية حال.

خطت «سيليا» إلى الحمام المجاور بينما وقفت في الشرفة تتنسم بعضًا من هواء الحديقة المنعش، أجالت بصرها في تلك الحديقة الغناء.. توقفت عيناها عند سيارة «عاصم» التي وقفت في المكان المخصص لها بالقرب من بوابة القصر الخارجية، تهللت أساريرها وهي تخبر الصغيرة التي انطلقت تبحث عنه في أرجاء القصر بينما راحت تسأل عم «سليمان» الذي أخبرها أنه قد جاء في الثالثة صباحًا، شعرت بالخجل من نفسها، لاريب أنه وجدها تشغل فراشه، تُرى ماذا ستكون ردة فعله، هل سيكون غاضبًا أم مستاءً أم سيتجاهل الأمر كما تتمنى!

جذبها صياح «سيليا» بالأعلى هاتفةً باسمها، قطعت درجات السلم قفزًا وقلبها يقفز بين ضلوعها، ميزت صوت الصغيرة في الغرفة المجاورة، خطت إليها في لهفة لتجدها قد جلست على صدره بينما تمدد جسده تحتها، وقفت تلتقط أنفاسها، تراجعت فى حياء،مال برأسه جانبًا وهو ينظر إليها قائلًا: إلى أين أنتِ ذاهبة؟

قالت في حرج: حمدا لله على سلامتك.. لقد شعرت بالقلق حين صاحت بهذا الشكل.

نهض من مكانه إزاء حياءها من الدخول وهو ممدد على الفراش، وقف أمامها يمُلى عينيه من وجهها الذي أطرقت به أرضًا في حياء وهي تهمس في خجل: أعتذر لأنني غفوت في فراشك بالأمس فقد كانت «سيليا» تشعر بالخوف من النوم في الغرفة بمفردها، ولم أكن أعلم بقدومك فقد

جلست حتى الثانية صباحًا أنتظر حضورك، ولما تيقنت أنك لن تأتي استسلمت للنوم.. أنا آسفة حقًا.

قال في بطء وعيناه مسلطتان على وجهها: لقد صار فراشي الآن عزيزًا عليّ.

تصاعدت دماء الخجل إلى وجهها وهي تتمتم بكلمات مبعثرة قبل أن تفر من أمامه لتعد لهم الفطور في الحديقة.

***

تطلع «فكري» إلى «إيمان» التي همت بالانصراف فور دخوله لبيت والدته، أخذت تجمع حاجياتها لتستأذن بالانصراف، ولكن والدته أصرت على بقاءها وهي تقول: من الجيد أنك هنا.. أريد أن أخذ رأيكما في أمر ما، كنت أريد أن أقوم بعمل صدقة جارية لوالدك يا بني، أرغب فى بناء مسجد له.

قال «فكري» بابتسامة صغيرة: نبدأ فيه من الغد إن شاء الله.

بدا الاستياء على وجهها دون أن تنطق بكلمة، تطلع إليها في دهشة في حين توجهت إليها والدته بالسؤال: ما رأيك يا ابنتي؟

أجابت في هدوء: أرى أن نبنى مصنعًا أفضل.

تطلعت إليها والدته في صدمة في حين ضَيّق هو حدقتيه في اهتمام وهي تتابع: هل ينقص حينا المساجد؟ هل ترون الزحام في المساجد خانقًا حتى نوسع على الناس ببناء مسجد؟ أيهما أفضل للناس مسجد لا يجد من يصلى فيه، أم مصنع يجذب آلاف العمال ويفتح بيوتًا ويساعد في بناء الأسر، ويحمى الشباب من الانحراف؟!

تطلع إليها في إعجاب وهو يقول: أنتِ محقة.

تابعت وقد منحتها موافقته على كلامها الثقة: ويمكنكم تخصيص نسبة من عائد المصنع لبناء مستشفى أو مستوصف أو مدرسة، تلك هي الصدقة الجارية التي لا تنقطع.

تأملها للحظات كأنه ينتبه لها للمرة الأولى، كانت امرأةً قصيرةً بعض الشيء، تميل إلى البدانة ذات بشرة خمرية وعينين عسليتين دافئتين، لم تكن جميلة كزوجته، ولكنها تحمل عقلًا راجحًا وقلبًا دافئًا يسع العالم بأكمله، تذكر عنايتها بالرجل العجوز وعنايتها بأمه، رأى أن عليه معرفة المزيد عنها.

***

أنهت «سيليا» طعامها في سرعة، هرعت لتلعب مع «أحمد» الذي وقف أسفل شجرة بعيدة يشير لها في تردد، تابعها «عاصم» بعينيه لحظات قبل أن يلتفت لها قائلًا: كنتِ محقةً عندما قلت إن للأطفال لغةً مشتركة.. سأسافر ألمانيا اليوم.

هتفت في توتر: لمَ؟ هل حدث شيء في التحقيق؟

- قررت أن أتبع خطة نابليون وأن أهاجمهم في عقر دارهم وأسقط حق جدتها في حضانتها إلى الأبد.

- ومتى ستسافر؟ وبم سنخبر «سيليا»؟ لقد كادت تُجن بالأمس.

- سأسافر في الثالثة ظهرًا.. وأنا سأخبر «سيليا» أني مسافر في رحلة عمل قصيرة وأعتمد عليكِ في رعايتها وملء الفراغ الذي سيخلفه غيابي.

- أسأل الله أن يعينني وأن أكون عند حسن ظنك.

- أنتِ دائمًا فوق مستوى أحلامي..

أدرك خطأ ما تفوه به من نظرتها المستنكرة، فنهض في سرعة قائلًا: سألعب مع الأولاد وأحضري لي فنجانًا من القهوة.

***

عادت حاملةً القهوة وقفت تتطلع إليه يجلس على ساقيه بينما وقف الطفلين بجوار شجرة بعيدة نسبيًا يتهيآن للجري نحوه بانتظار إشارته، ما إن أشار لهما حتى انطلقا نحوه كالسهم، وصلا سويًا فاحتضن كلاهما، تأملت ذلك الرجل المهيب يجلس على الأرض يلاعب الأطفال، أطلت من عينيها نظرة إعجاب واضحة لم تستطع إخفاءها حتى بعد أن اصطدمت عيناه بعينيها قبل أن تعصبهما «سيليا» ليعدو خلفهما معصوب العينين، توسل الطفلين لها لتلعب معهما ولكنها رفضت بشدة، وقفت تتأمله يعدو خلف الطفلين يتحسس طريقه ويتبع ضحكاتهما ليمسك بهما، شعرت بسعادة بالغة وبمتعة غامرة وهى تتابع الصغيرين يتقافزان أمامه في فرحة كبيرة كأنما ينقلان عدوى السعادة لكل ما يحيط بهم، فك رباط عينيه فجأة، فأسرعت تشيح بوجهها، طلب من «أحمد» أن ينادي الجميع ليلعبوا معهم، طار الصغير ينفذ الأمر على جناح السرعة، لم تمضِ لحظات حتى كان «حنفي» وزوجته تتبعهما «أحلام» يقفون أمامه ينتظرون أوامره غير مصدقين ما أخبرهم به الصغير.

أدرك «عاصم» من نظراتهم المستنكرة أنهم لم يصدقوا الطفل فقال في سرعة: لدينا أطفال يجب أن نلاعبهم.. واللعبة التي سنلعبها تحتاج لعدد.. سنلعب لعبة المنديل، هل تعرفونها أم أشرحها لكم.

أومأت «ياسمين» برأسها دلالة على معرفتها، بينما قالت «أم أحمد»: اشرحها لنا يا بك.

وقف «عاصم» ممسكًا بذلك الإيشارب الذي عصبت به «سيليا» عينيه وهو يصفهم صفين، كل صف في مقابل الآخر.. فأوقف «أحلام» أمام «ياسمين»، و«أم أحمد» أمام زوجها، و«سيليا» أمام «أحمد» وأعطى كل منهم رقمًا، أخذ يراقب الفريقين، اصطفت «ياسمين» و«سيليا» بجوار «أم أحمد»، واصطفت «أحلام» و«أحمد» بجوار «حنفي» الذي وقف متحفزًا بشكل يثير الضحك مما جعل «عاصم» ينادي رقمه، أسرعت «أم أحمد» و«حنفي» إلى المنديل المعلق بيد «عاصم»، راحت «أم أحمد» تهدد زوجها بالويل والثبور وعظائم الأمور إن حصل على المنديل، ولكن «حنفي» لم يعبأ بتهديدها فاختطف المنديل واستدار ليعود إلى مكانه، فلم تمهله «أم أحمد» وهي تنقض عليه لتسقطه أرضًا وتجذب المنديل من يده ليعلن «عاصم» فوزها وسط ضحكات الجميع، نطق بالرقم التالي لتخرج «سيليا» و«أحمد» بينما راحت «ياسمين» تشجعها وتهتف باسمها، أمسكت «سيليا» بالمنديل وسط صيحات الجميع و«ياسمين» تشجعها حتي عبرت صفها، وأخذت «أم أحمد» تكيد فريق «حنفي» وهي تشير تجاه فريقهم بيدها هاتفة: فريق الخاسرين.

نظر حنفي لـ «أحلام» قائلًا: الأمل معقود عليكِ يا «أحلام».

نطق «عاصم» برقم «١»، خرجت «ياسمين» و «أحلام»،وقفت كلتاهما ترقبان المنديل لحظات قبل أن تخطفه «أحلام»، لم تتحرك «ياسمين» بل اكتفت بلمسها فقط لتُحسب نقطه لفريقها، أخذت «أم أحمد» تقفز في سعادة، وهي تواصل إغاظة فريقهم حتى فاجأ «عاصم» الجميع وهو

يناول المنديل لـ «أحلام» لتقف مكانه بينما وقف مكانها قبالة «ياسمين» التي شعرت بالحرج الشديد وهي تجد نفسها في مواجهته، تمنت ألا تنطق «أحلام» برقمها، ولكن الأخرى كانت شغوفة أن تراه يلعب فنطقت رقمه في سرعة، خرج من مكانه ليقف أمام المنديل، لم يكن يعنيه أن يأخذ المنديل بقدر ما كان يعنيه أن يقف بقربها وأن يرى ابتسامتها التي أنارت وجهها، لكنها قالت في مرح: هذا ليس عدلًا.

تطلع اليها الجميع فتابعت: لقد وضعتموني بين المطرقة والسندان.. أنا أقف في مواجهة «عاصم بك»؟ أي أنني لو فزت سأُفصل من عملي، ولو خسرت «أم أحمد» ستقتلني.. ثم جذبت «سيليا» ووضعتها مكانها قائلة: أنتِ تقفين في مواجهة «عاصم بك» هذا هو العدل.

ملأ الإعجاب بذكائها وحسن تصرفها عينيه في حين وقفت «سيليا» تتهيأ لجذب المنديل، تركها «عاصم» تأخذه ولكنه أمسك بها وهو يضحك في مرح قائلًا: نقطه لفريقنا.

أيدت «أحلام» قوله وهي تنادى على رقم «٢» ليخرج «أحمد» أمام «ياسمين» التي قالت في مرح: اترك المنديل وأنا سأخفف لك من الواجب.. أو لن أعطيك واجبًا أبدًا.

هتف «عاصم» في مرح: هل تقومين برشوة الولد؟ إياك يا «أحمد».

تطلع «أحمد» اليهما في حيرة في حين قالت «أم أحمد» موجهة حديثها إلى ابنها: لو أخذت المنديل سأتركك تجوع بقية اليوم.

صاح «حنفي»: نحن فريق الرجال ويجب أن نغلب.. الرجال قوامون يا «أحمد».

ضحك الجميع، وثب الصغير ليخطف المنديل ويعود الي صفه، أخذ «حنفي» يهلل بينما أطلق «عاصم » صفيراً عاليا.. تطلعت إليه في دهشة، لم تره من قبل بهذا الشكل، لم تر تلك السعادة تنير وجهه هكذا، شعرت بالسعادة من أجله، تهاوى على الأرض متسائلًا عن الساعة، أجابته في سرعة وهي تنظر الي ساعتها: إنها العاشرة.

أشار لهم بالجلوس فتحلقوا حوله جميعًا، قال فى هدوء: سأغيب لبضعة أيام، «ياسمين» هنا مكاني.. أوامرها تُنفذ بدون نقاش، «سيليا» أمانة في أعناقكم.. هيا ليخبرني كل منكم عما يريده لأحضره معي عند عودتي.

ترك لهم الفرصة للتفكير والتفت إلى ابنته يحدثها بالألمانية، حدق الجالسون في وجهه بدهشة خاصة عندما تعلقت الصغيرة بعنقه وهي تهتف بكلمات مختنقة، ربت على ظهرها في حنان، همس لها ببعض الكلمات فاتسعت ابتسامتها، وراحت تلقي له بقائمة طلباتها التي طلب منها أن تدونها له، مع وعد بإحضارها كاملة.. ثم التفت إلى «أحمد» ليخبره بما يريد أن يجلبه له معه ولكن الصغير أطرق في خجل غير مصدق نفسه أنه يجلس على الأرض بجوار ذلك البك المهيب الذي كانت أوصاله ترتعد لدى وصوله إلى القصر، والأدهى أن البك بنفسه يطلب منه أن يخبره بما يريد ليحضره له.. حار كثيراً فلم يرد ولكنه أمام لهجة البك الآمرة أجاب في تردد: عربة سباق.

قال «عاصم» في مرح: سأحضر لك واحدة و«سيليا» واحدة لتتسابقا سويًا.

انطلق الطفلان يجريان في سعادة، تابعهما «عاصم» ببصره لحظات

قبل أن يعود ببصره للجالسين حوله يسألهم عن طلباتهم، أجابته «أم أحمد» بصدقٍ معبرةً عن حال الجميع بأنهم لا يريدون حقًا سوى سلامته، ولكن كل منهم عاد أمام لهجته الآمرة يفكر فيما يمكن أن يطلبه.. هزت «أم أحمد» كتفيها في حيرة: لست أدري كل ما أحلم به هو زيارة النبي.

ارتفعت الصلوات على النبي الكريم تعبر شفاه الحاضرين في إجلال، قال «عاصم» في مهابة: عليه الصلاة والسلام.. أعدي نفسك للعمرة إن شاء الله.

ثم التفت إلى «حنفي» الذي أطرق برأسه أرضًا ونظرة خجلى تتوارى في عينيه فقالت «ياسمين» في سرعة: أنا أعرف ما يريد.

تطلع اليها «عاصم» في تساؤل، أجابته بابتسامة خفيفة: يريد أن يذهب لأداء العمرة مع «أم أحمد».

هز رأسه موافقًا قبل أن يلتفت لـ«أحلام» التي أجابت على الفور كأنما تنتظر دورها: أريد فستانًا جميلًا وحذاءً وحقيبة يد.

قال بابتسامة صغيرة: لكِ ما تريدين.. هيا أعدوا لي حقيبتي وأعدوا لي طعام الغداء بسرعة فقد بقى أمامي ثلاث ساعات.

نهضوا في سرعة بينما أشار لها بالبقاء سائلًا إياها عما تود أن يُحضره لها لدى عودته.

أجابته فى ارتباك: أنت ذاهب في مهمة شاقة، لذا لا تشغل بالك بنا..هل ستبقى هناك كثيرًا؟

هز كتفيه قائلًا: لست أدري.. ولكني سأحاول العودة سريعًا، سأترك لكِ أرقام «حمدي» كلها، إذا احتجتِ لشيء فاتصلي به، لا تسمحي لأي

كائن بالدخول إلى هنا سوى «جيهان» و«سارة» فقط.

ثم مال نحوها متابعًا: إذا شعرت بأي خطر سأعطيك مفتاح شقة أملكها في الإسكندرية لا يعرف أحد قط أنها ملكي فقد اشتريتها وكتبتها باسم والدتي رحمها الله.. هل تجيدين القيادة؟

أومأت برأسها إيجابًا، تنهد في ارتياح قائلًا: سأترك لكِ سيارتي هنا.

اقتادها إلى حجرة المكتب ليناولها مغلفًا يحوى عنوان الشقة ومفاتيحها، أرفق به مفاتيح سيارته، ثم أشار إليها لتقترب من لوحة زيتية معلقة على الجدار أزاحها لتبرز من خلفها خزينة حديدية، طلب منها أن تحفظ أرقامها جيدًا، وأن تتصرف فيها كما تريد، رفضت طلبه قائلة: ليس هناك داعٍ لهذا.. يمكنك أن تترك لي مبلغًا من المال أتصرف فيه إن احتجت شيئًا.. أما الخزينة فهذه أمانة ثقيلة.

نظر إليها نظرةً طويلةً هزتها من الأعماق وهو يهمس: لقد آمنتك على بيتي وابنتي وقل.. بتر عبارته قبل أن يتابع: كيف لا أأتمنك على بعض المال!

هزت كتفيها في استسلام: أسأل الله أن يعينني وأكون عند حسن ظنك.

- أنت دائمًا عند حسن ظني..

كسا الخجل ملامحها فسارعت للفرار من أمامه قائلة: سأجلب لك «سيليا» لتقضي معك بعض الوقت قبل السفر.

أدرك محاولتها للفرار فقال: لا تذكري اسم «سيليا» عندما اتصل بكِ هاتفيًا.

هزت رأسها موافقة قبل أن تفر من الحجرة كمن يفر من الأسد، تبعها

إلى الحديقة، احتضن ابنته وأخبرها أنه سيسافر في رحلة عمل قد يغيب فيها لبضعة أيام وعليها أن تسمع كلام «ياسمين» في كل شيء لحين عودته، تناول الغداء برفقتها هي وابنته.. لم يكف عن المزاح معهما طوال الغداء، تأملته لحظات وهي ترى ذلك الصارم المتعجرف القاسي يختفي ويحل محله رجل رقيق حانٍ يهتم بابنته ويتحمل مسؤولياته برجولة حقيقية، ذكَّرَها مرحه مع ابنته بأبيها فافتر ثغرها عن ابتسامة حانية لفتت نظره.. مما جعله يتساءل عن سر تلك الابتسامة، أجابته إجابةً مقتضبةً: لقد ذكرتني بأبي.

قال في تأثُّر: رحمه الله.. صمت لحظةً ثم نهض يودعهما، تعلقت «سيليا» بعنقه، أخذت تغمر وجهه بالقبلات هامسةً: سأفتقدك كثيرًا بابا، احتواها في حب وهو يحملها متجهًا نحو السيارة، في حين طرق «أحمد» علي ركبته قائلًا فى صدق: سنفتقدك حقًا يا بك.

انحني نحو الصغير وقبَّله ثم اتجه نحو «ياسمين» التي وقفت وقد أظلت عينيها دموع حبيسة لم تخفَ عليه وهي تمسحها خفيةً لترسم علي وجهها ابتسامةً صغيرةً متمنيةً له السلامة، مال نحوها وهو لا يزال يحمل ابنته هامسًا: انتبهي لنفسك جيدًا واعتنى بـــ «سيليا».

قالت بصوت مبحوح: لا تشغل بالك بنا،ستجد كل شيء كما تريد إن شاء الله.

ركب السيارة بجوار السائق، أشار بيديه ملوحًا للجميع وإن احتوت عينيه اثنين فقط من كل المودعين، مرت السيارة علي البوابة فنزل ليصافح «سليمان» في حرارة وهو يوصيه علي القصر ومن فيه.

***

ارتفع صوت المضيفة مطالبًا الركاب بربط الأحزمة استعدادًا للهبوط، تأمل القاهرة أسفل طائرته، ها هو يعود بعد مرور أشهر عدة إلى نفوذه وسطوته، الأشهر الماضية مرت عليه كسنوات عجاف، كان يشعر بنفسه كسمكة خارج الماء، كطفل ضل طريقه، راح يصبر نفسه بأنها لحظات وسيضمه وزهرة الياسمين بلد واحد، سيعثر عليها ويجعلها تدفع ثمن فعلتها، ولن تدفعها وحدها، بل سيدفع الجميع ثمن أخطائهم، وأولهم المقدم «عماد» الذي استغل قرابته بأحد مساعدي وزير الداخلية ليزج باسمه في هذه الدورة التدريبية، يعلم لم فعل ذلك، ولم حرص على إبقائه خارج البلاد لهذه الفترة، يظن نفسه حامي العدالة، ويريد أن يجد الفرصة لينجح في كشف سر انتحار ابن «هاشم الشوباشي» داخل محبسه، ولكن محاولاته باءت بالفشل رغم إصراره على أن ابن رجل الأعمال قد تم قتله وأنه لم ينتحر، وأخذ يستند على حججٍ خرقاء، ويدفع بدفاعٍ واهٍ من أن الشاب كان ذو خلق، وأنه كان على وشك الزواج بفتاة يُحبها، ابتسم في سخرية وهو يتمتم بينه وبين نفسه: وهل هناك سبب أدعى لانتحار الشاب غير ارتباطه بفتاة يُحبها؟

***

مر علي سفره ثلاثة أيام لم يتصل فيها قط، كاد القلق يقضى عليها لولا متابعة «حمدي» المستمرة لها، وسؤاله الدائم عليهم وطمأنته لها، في اليوم الرابع تلقى «حمدي» اتصالاً من «عاصم»، أخبره فيه أنه قد أنهى مهمته وسيعود خلال يومين، سارع «حمدي» بنقل الخبر لها، سرت

الطمأنينة في أوصالها وإن تسلل إليها بعض القلق لبقائه في الخارج ليومين آخرين بحجة أن هناك عملاً هامًا عليه إنهاؤه دون أن يُفصح عنه.

لم تمض ساعات على اتصال «حمدي» الأخير حتى علا رنين الهاتف طويلاً مشيرًا إلى اتصال دولي، قفزت تلتقط سماعة الهاتف وهي تقول في لهفة: كيف حالك؟ أين أنت الآن؟ لمَ لم تتصل بنا طيلة الأيام الماضية؟ كيف سارت الأمور؟

أتاها صوته عبر أسلاك الهاتف يسبقه شوقه هامسًا بصوت عميق: كيف حالك؟

ساد الصمت لحظات يحاول كل منهما أن يستعيد نفسه، امتلأت نفسه بالبهجة وهو يسمع بأذنه لهفتها عليه، ويرى بقلبه دليل شوقها إليه، فتابع في سعادة: سأخبرك عندما أعود، كيف حال قطتي الصغيرة؟

تمتمت بارتباك:بخير حال، تنتظر عودتك.

قال في لهجة حالمة: أتمنى لو أعود الآن.

كادت تخبره أنها تتمنى هذا أيضًا ولكن حياءها ألجمها وهي تؤنب نفسها على اندفاعها، وانسياقها وراء مشاعرها دون تفكير، لقد عانت الأيام الماضية في بُعده ما جعلها تدرك حقيقة مشاعرها تجاهه، إنها غارقة في حب هذا الرجل، تعشقه بكل جوارحها، فراق الأيام الماضية جعل الحنين يفتك بها والشوق يقتلها ليكشف عن المجهول بداخلها، أحيانًا لا نكتشف مشاعرنا إلا عند الاختبار، ولقد كان اختبارها لفراقه ثلاثة أيام كاملة لم تسمع فيها صوته، ولم تطمئن إلى أنه تحت نفس السماء التي

تظلها، ولا يراه القمر وقتما يراها، أصبحت ترى وجهه في كل الوجوه حولها، أدركت في بعاده كم أن الليالي طويلة وباردة، كان يكفيها وجوده في الجوار لتشعر بالدفء والأمان، يكفيها أن تنظر إلى ليل عينيه لترى النور يشرق على حياتها، يكفيها أن ترى ابتسامته لتملأ البهجة نفسها وتسطع السعادة في سماء عالمها الكئيب.

الفصل الحادي عشر

الوقت يمر ببطء شديد، عقارب الساعة لا تتحرك كأنما تعاندها، تقضي أغلب وقتها مع الطفلين، تشعر كأنما عادت طفلةً معهم، تنسى آلامها حين تكون برفقتهما، تتجرع شهد براءتهما ليذيب مرارة أيامها، أرهقها انتظار عودته، فرغم كل المشقات التي تجاوزتها يبقى الانتظار هو أصعب الأمور على نفسها، انتظاره يبدو كانتظار المطر من سماء تتوسط الشمس كبدها وتأبى الرحيل.

جلست عصر ذلك اليوم في الحديقة تُعلِّم الطفلين اللغة العربية وتعقد مسابقة بينهما في ذكر أسماء الأشياء المحيطة، عندما اخترقت سيارة «عاصم» المكان وأطل منها وجهه المحبب، قفزت الصغيرة من مكانها، انطلقت نحوه كالسهم، فتح باب السيارة وقفز منها محتضنًا ابنته في شوق، دار بها دورة كاملة بينما أحاطت عنقه بذراعيها وهي تقول بالألمانية: افتقدتك كثيراً بابا.. التفتت إلي «ياسمين» ثم عادت تقول بلغة عربية متكسرة: افتقدتك بابا، تطلع إليها في سعادة هاتفًا: رائع حبيبتي.. رائع، أنزلها برفق فتعلق «أحمد» بعنقه، احتوى الصغير في حب: كيف حالك يا بطل؟

هز الصغير رأسه في سعادة وهو يجيب في صدق: بخير.. افتقدتك كثيرًا.

أسعدته كلمات الصغير الصادقة فربت على كتفه قبل أن يرفع بصره إليها، أضناه شوقه لها طيلة الأيام الماضية، لم يسبق له أن اشتاق لشخص هكذا، أعماه حنينه فتحرك نحوها يريد احتواءها بين ذراعيه ولكن حياءها وابتسامتها الخجلى وعيناها التي خفضتها أرضًا أوقفوه عند خط وهمي، شعر وكأن عشرات الحواجز قد حالت بينهما، وقف يملأ عينيه من وجهها الجميل الذي لم يفارقه لحظةً طوال فترة سفره، قطع تأمله قفزةَ الصغيرين بجواره وهما يتساءلان عما أحضره لهما، ابتهجا بشدة عندما رأيا ما طلباه حاضرًا أمامهما، قفز كلاهما يركب سيارته وينطلق بها في حديقة القصر الواسعة تاركين ضحكاتهما العالية تتناثر خلفهما.

خطا إلى داخل القصر في حنين، استقبله الجميع في ترحاب، ألقى نظرة على حقائبه الرابضة أمامه، ناول «أم أحمد» شالًا من الصوف الفاخر، تحسسته وهى تكاد تطير فرحًا، بينما أقبلت «ياسمين» تحمل كوبًا من عصير البرتقال، رشف منه بضعة رشفات ثم أخرج حقيبةً مغلقةً ناولها لـ «أحلام» التي تطلعت إلى الحقيبة في دهشة، أشار إليها لتفتحها، ألقت ببصرها داخل الحقيبة، ليطالعها هذا الكم من الفساتين والأحذية وحقائب اليد.. هتفت في ذهول: كل هذا لي وحدى؟

ضحك قائلًا: إذا كنتِ تريدين مشاركة «أم أحمد» معك فلا مانع لدىّ.

ظلت لحظات على ذهولها حتى لكزتها «أم أحمد» وهي تهمس:

اشكري البك يا حمقاء.

رددت «أحلام» بعض عبارات الشكر والامتنان مصحوبةً بدعوات صادقة.. أمَّن على بعضها وهو يُخرج عباءة من الصوف الفاخر وحذاءً طبيًّا، وكوفية وطاقية لـ «حنفي» ومثلهم لـ «سليمان» بالإضافة لنظارة شمسية قائلًا: ياسمين أخبرتني أنك تشكو بعينيك.

قال «سليمان» في حرج: شكرًا لك.. لقد أتعبت نفسك، فرج الله همك وحفظك من أعدائك.

وكأنما كانت تلك الدعوة هي إشارة البدء لتنهمر دعواتهم له كالمطر، امتلأ وجهها بالراحة وقد وقفت تؤمن على دعائهم حتى أوقفهم في مرح: ألن تطعموني لقد كادت بطني تجف من طعام الأجانب.

أسرع الجميع ينصرف وكل يحمل أمتعته، همَّت هي أيضًا بالانصراف، استوقفها فاستدارت نحوه في تساؤل صامت، أجاب عليه وهو يُخرج من جيبه علبةً مخمليةً حمراء اللون، ناولها إياها قائلًافي لهجة عادية: وجدته أمامي وأنا أسير في أحد شوارع برلين.. افتحيها.

تطلعت إلى العلبة في دهشة قائلة: ما هذا؟

كرر أمره بفتحها فأطاعته في استسلام وهي تنظر إلي العلبة التي انزاح غطاؤها ليكشف عن خاتم ماسيٍّ رائع يتوسط قاعدتها، نقلت بصرها بين العلبة وبينه في تساؤل فقال في سرعة: أرني إن كان قياسه مناسبًا.

أدخلته في أصبعها فتألق في يدها كأنما صُنع خصيصًا لها، تنهد في

ارتياحٍ وأدته كلماتها المرتبكة التى حملت شكرها ورفضها قبول هدية ثمينة كهذه.

اقترب منها قائلًا: ما فعلته مع ابنتي لا يُقدر بمال، يكفي راحتها النفسية والابتسامة التي لا تفارق وجهها والأمان الذي جعلتِ كلانا يشعر به، يكفيني أني تركت بيتي وابنتي معكِ وسافرت وأنا مطمئن، لقد كنت في السنوات الأخيرة لزواجي لا يمكنني أن أتركها مع والدتها بمفردها، ولكني تركتها معك لأعود فأجدها أفضل مما تركتها.

رفعت رأسها لتجد نفسها وجهًا لوجه أمامه، أجفلت مبتعدةً وهي تتمتم بارتباك: سأتركك لترتاح.

***

أراح «فكري» رأسه على وسادته وهو يسترجع كل التفاصيل التي سمعها من والدته عن جارتهم التي شغلت عقله، أخبرته والدته عن زواجها من مدرس زميل لها وسفرهما للعمل في إحدى دول الخليج، وعودتها عقب وفاة زوجها هناك، كما أخبرته عن غضب إخوتها منها لإنفاقها للأموال التي جمعتها لبناء مدرسة قريبة من حيهم ورفضها أن تسكن خارج الحي، شغل أمرها تفكيره إلى أقصى حد، هي ليست ذات جمال، ولكنها ذات عقل راجح وقلب كبير، قلب بإمكانه أن يضم العالم بأسره، ويتمنى أن يحصل على قلب مثله.

***

استرخى في غرفته عقب انصراف ابنته لتلعب مع «أحمد»، أسعده كثيرًا نطق ابنته لبعض الكلمات العربية، كما أسعده أكثر أنها حفظت

الفاتحة، كاد يطير من السعادة وهو يسمع ابنته تنطق بالآيات وتجتهد أن تنطقها بشكل صحيح، سجد لله شكرًا على نعمته وحصوله على امرأة مثلها، تذكر ارتباكها وخجلها حين أهداها الخاتم الماسي، لم يستطع منع نفسه من شرائه حين رآه.. لقد رآها فيه، إنها تشبه قطعة الماس، صافية نقية وواضحة ولكنها حادة وقاطعة إذا تعاملت معها بطريقة خاطئة.

***

أغلقت باب غرفتها عليها، تتحسس خاتمه الماسي، كادت تطير من السعادة وكأنما يمتلك الماس قوة سحرية كما كان القدماء يظنون، ظلت تحدق في الخاتم للحظات قبل أن ينعكس بريقه على عينيها فيخرجها من حالة النشوة التي غرقت فيها ليعيدها إلى أرض الواقع صورة خاتم مشابه وإن كان يفوق هذا حجمًا ولكنه يخلو من الرقة والذوق، هذا الخاتم الذي أحاط بإصبعها يومًا بينما وقف كابوسها يتحسسه بفخر كأنما أراد أن يرى الجميع هديته الثمينة، هناك فرق كبير بين خاتمه وخاتم «عاصم»، كان خاتمه الماسي ثقيل الوزن، كبير الحجم ولكنه يخلو من الذوق، بينما هذا الخاتم رقيق، يتميز بذوق رفيع، شعرت بالحماية والأمان عندما أحاط بإصبعها، تنهدت وهي تخرج من مقارناتها الخاسرة وقد قررت ألا تدع الماضي يفسد عليها سعادتها الحالية وإن كانت مؤقتة.

انتهت من إعداد المائدة لتجد «عاصم» خلفها ينظر إلى المائدة بشهية، أشرق وجهها بابتسامة كبيرة لسعادته بينما قفزت «سيليا» إلى الكرسي المجاور لأبيها كعادتها، جلست بجوار الصغيرة التي أقبلت على الطعام في نهم.. راقبتها لحظات في حنان قبل أن تلتفت له سائلةً في حذر: هل كان سفرك موفقًا؟

- الحمد لله، لقد رفعت قضيةً هناك وطالبت بابنتي وبإسقاط الحضانة عنهم وأسندت القضية لأحد كبار المحامين هناك وله سمعته في المحكمة.. سأذهب إلى المكتب بعد ساعة فـهناك بعض الأعمال العالقة التى يجب انهاؤها.

هتفت في اعتراض: أنت لم تسترح من السفر بعد.

قال في لهجة خاصة: غدًا سأستريح تمامًا.

جزء منها رفض عبارته وشعر بالقلق حيالها،نهض من مكانه يودع ابنته التي تعلقت بعنقه قائلةً في تذمر: إلى أين أنت ذاهب بابا.. أنت لم تلعب معي بعد!

احتواها في حنان واعدًا إياها بتعويضها عن غيابه، انزلقت من بين يديه مطمئنةً إلى وعده فانطلقت تعدو نحو الحديقة.

***

أنهى «خالد» مكالمته مع هذا الصحفي وهو يشدد عليه بضرورة نشر الخبر كما أرسله له، ودون وضع شريط أسود على العينين لإخفاء ملامح الوجه، علاقاته الواسعة هي مفتاح نفوذه الواسع، مكنته اتصالاته القوية من تنفيذ الكثير من مهماته الناجحة، فكلما ازدادت علاقاتك، كلما ازداد نفوذك، وكلما ازداد نفوذك زادت قوتك وسلطتك، وكلما كانت سلطتك مطلقةً أصبحت صاحب قوة مطلقة، والناس يعبدون القوة حتى وإن كانوا ضحاياها، القوي دائمًا على حق وإن بدت حماقته، لقد اختبر الأمر بنفسه في تلك الدورة التدريبية السخيفة، شعر بنفسه كحوت ضخم يسبح في الصحراء، هو قوي في محيطه ولكنَّ قوته تتبخر إذا خرج إلى

صحراء لا نفوذ له فيها، عجز بالخارج عن إنهاء الكثير من الأعمال، ولكنه تمكن هنا من إنهائها في أيام قلائل، لقد صنع الشبكة التي سيصيد بها صيده الثمين، وأحكم الفخ الذي سيسقط فيه طائره المغرد، سيحكم قبضته هذه المرة على زهرة الياسمين التي أفلتت من قبضته سابقًا، لن يغرق في بحار مكرها مرةً أخرى، ولن يسمح لها بخداعه ثانية.

***

انقضى اليوم والصغيرة تحاول صنع الطائرة الورقية التي علمتها لها «ياسمين»، راقبتها في إعجاب وقد راقها إصرارها على انهائها بنفسها وعدم استسلامها لليأس رغم فشلها في صنعها عدة مرات متتالية، حتى نجحت في صناعتها لتقف بجوار «أحمد» يتنافسان فيمن ستحلق طائرته أعلى من الأخرى، ما إن حان وقت الصلاة حتى أوقفت «ياسمين» اللعب، تسابقا لتأديتها على أكمل وجه فسيحصل الفائز على الجائزة التي أعدتها «ياسمين»، في صلاة المغرب أوقفتهما لصلاة الجماعة خلف عم «سليمان» حيث اصطف الجميع في الحديقة، فوقف «أحمد» و«حنفي» خلفه في الصف الأول تَلَتَهم النساء في الصف الثاني.. عقب الانتهاء من الصلاة جلسوا يتسامرون ويتندرون وهم يتناولون الشاي في الحديقة، شعرت الصغيرة بالدفء بينهم، لم تشعر بهذا الشعور من قبل مع جدتها الصارمة العابسة على الدوام، أجالت بصرها في وجوههم البشوشة ونظراتهم الحانية وتعلقت عيناها بـ«ياسمين» بقسماتها المريحة وابتسامتها الصافية وحنانها الطاغي، امتدت يد الصغيرة تحتضنها، احتوتها «ياسمين» في دهشة والطفلة تدفن نفسها بين ضلوعها قائلةً: أنا أحبكم كثيراً، أنتم طيبون للغاية.

مسحت «ياسمين» على رأسها هامسةً: وكلنا نحبك كذلك.

تطلع الجميع إليهما لحظات في حنان دون أن يفهموا حرفًا واحدًا، ثم عادوا لمتابعة حديثهم مرةً أخرى.

***

ضباب كثيف يحيط به، يده ثقيلة للغاية، لا يمكنه تحريكها، الرؤية حوله ضبابية، يحاول أن يخترق الحجب بعينيه، ثياب بيضاء تقترب منه، ترتديها تلك المرأة الغير واضحة الملامح، شعر بالخوف منها، حاول أن يتراجع في رعب، ولكن أطرافه كانت ثقيلة للغاية كأنما يحمل أطنانًا من الملح داخلها، اقتربت المرأة منه أكثر، يشعر أنه يرى ابتسامتها وإن عجز عن رؤية ملامحها كاملة، لم تنطق بكلمة ولكنها أحاطت عنقه بيديها وراحت تضغط على عنقه أكثر وأكثر وأكثر، كاد يلفظ أنفاسه تحت وطأة ضغط أصابعها على عنقه، نهض من نومه مذعورًا يتحسس رقبته، تناول كوبًا من الماء بجانبه، التفت لزهرة الياسمين بجوار فراشه، مد يده يتنسم رائحتها في عمق كأنما يستمد منها الأمان والحياة، قبل أن يسحق أوراقها بين أصابعه.

***

استلقي «عاصم» علي ذلك الكرسي العالي في مكتبه بينما تهاوي «حمدي» على أريكة مجاورة وهو يلهث من فرط المجهود، رفض الحركة من مكانه عندما طلب منه «عاصم» إعداد الأرائك للنوم ليبيتوا ليلتهم بالمكتب، ازداد اعتراض «حمدى» حين أخبره أنه سيحصل على إجازة لمدة أسبوعين حيث سيعرض عليها الزواج.

صاح «حمدى» فى استنكار: هل جُننت؟

أجابه في صدق: ما عدت أستطيع البقاء بعيدًا عنها.. إنني أحبها بحق، لقد بحثت عن أهلها عندما ذهبت إلى إيطاليا، إنها من عائلة طيبة وكنت سألتقي بهم ولكن موعد طائرتي قد حال دون ذلك، ولكني حصلت على أرقام هواتفهم وعناوينهم هناك وسأهاتفهم غدًا إذا وافقت على الزواج.

- وإذا لم توافق؟

-لست أدري.

-رأيي أن تؤجل عرض الزواج هذا فابنتك لن تحتمل فراقها، والحمد لله أنك لم تلتق بأهلها فلو عرفوا بما حدث لها هنا فلن يتركوها لحظةً واحدةً تعمل لديك.

لم يجب وإنما ألقى ببصره في حيرة يتأمل الفضاء العريض خارج نافذة مكتبه، أرهقته تلك الأسوار العالية والحواجز الوهمية التي تضعها باستمرار بينه وبينها. يخشى أن يفاتحها فتضيع من يده.. ولا يقوى أن يتركها أمامه لتظل كفاكهة محرمة، ظل يقلب بصره في السماء يدعو الله أن يجمع بينه وبينها حتى غلبه النعاس وإن بقى لسانه يلهج بالدعاء حتى في أحلامه.

***

انتهز «فكري» فرصة قيام والدته لإحضار شيء من المطبخ، التفت لـ «إيمان» قائلًا في سرعة: ألم تفكري في الزواج بعد وفاة زوجك؟

تطلعت إليه لحظةً في دهشة قبل أن تقول في غضب وهي تنهض من

مكانها: هل تظن أن وجودي في بيتكم يسمح لك بتوجيه أسئلة شخصية لي؟

تحركت نحو باب البيت تريد الخروج، شعور عارم بالتملك ملأه، أحس بأنه يفقد ما بحث عنه طيلة عمره فقال في لهجة صارمة: توقفي.. هل من اللائق أن تنصرفي بينما زوجك يتحدث؟

توقفت في منتصف المسافة بينه وبين الباب، استدارت نحوه في دهشة قبل أن تهز رأسها صائحةً في استنكار: زوجي.. لا ريب أنك معتوه، لقد توفى منذ سنوات!

نهض ليقف قبالتها وهو يقول في غضب: كيف وأنا أقف أمامك الآن.. ثم كيف لسيدة محترمة أن تنعت زوجها بالمعتوه؟ إياكِ أن تكرريها ثانيةً!

شعرت بشئ من الخوف وهي تظن نفسها أمام مخبولٍ حقيقى، حاولت أن تتجاوزه لتصل إلى الباب هاتفةً في سخط: أنت مخبول بحق.

سبقها إلى الباب مغلقًا الباب في حدة أجفلتها وهو يقول: لقد كررتها ثانية، سيكون عقابك مضاعفًا.. سنتزوج في الحال.

حدقت في وجهه بذهول بينما أطلقت والدته زغرودةً طويلة.. جعلتها تتهاوى على أقرب مقعد غير مصدقة ما يحدث.

***

أنهى «عاصم» اجتماعه في سرعة، جلس خلف مكتبه يوقع الأوراق المطلوبة منه بالكامل لحين قدوم العميل الذي ينتظره، طرق على سطح مكتبه في توتر، تطلع الي الهاتف الموضوع بجوار مكتبه لحظات، امتدت يده لا إراديًا وكأنما فقد سيطرته على نفسه وهو يطلب رقمًا، انتظر حتى

أتاه صوتها عبر الهاتف هادئًا صافيًا وهي تنطق بالسلام وتصمت منتظرة أن تسمع صوته الذي خرج على الرغم منه أجشًا مبحوحًا: سآتي خلال ساعات.. أريدك في أمرٍ هام.

قالت في توتر: أهناك شيء؟

أجابها في غموض: ستعرفين حالما أصل.

ثم أغلق الهاتف تاركًا إياها تتخبط في ظلام خوفها وقلقها، التفت ليجد «حمدي» واقفًا بجوار الباب مترددًا وهو يحمل إحدى الجرائد الصباحية بين يديه، وقد علا وجهه القلق والتوتر، ألقى عليه نظرةً سريعةً قبل أن يقول: أي خبر سيئ تحمله الجريدة، هل حصل «آسر» على المناقصة؟

ناوله الجريدة وهو يغمغم في ارتباك: لست أدرى هل هذا الخبر حقيقى أم لا!

تطلع «عاصم» إلى الجريدة التي حملت صورة واضحة لـ «ياسمين» دون الشريط اللاصق على عينيها والتي جاورت خبرًا كُتب بخط كبير «مهندسة وابنة طبيب كبير تدير شبكةً للدعارة»، التهمت عيناه تفاصيل الخبر في سرعة والتي أوضحت كيف ألقت الشرطة القبض على شبكة منافية للآداب بينما فرت مديرة الشبكة هاربةً ولم يُعثر لها على أثر حتى الآن، وكشف الخبر عن أنها تصطاد ضحاياها عن طريق ارتداء ثوب الطهر والبراءة والجدية والاحترام.

دفع «حمدي» جانبًا قبل أن ينطلق بسيارته كالسهم ليصل إلى المزرعة في زمن قياسي، اخترق صوته الهادر الصارخ باسمها جدران قصره، هرعت

نحوه وآلاف التساؤلات تتزاحم داخل عقلها عن سر غضبه الظاهر في صوته الذي تتبعته ليقودها إلى حجرة المكتب، كان يوليها ظهره، استدار نحوها والشرر يتطاير من عينيه وهو يهوي على وجهها بصفعة كالقنبلة، تركت بصماته الحمراء على بشرتها البيضاء، حدقت في وجهه بذهول بينما تابع ثورته وهو يلقى بالجريدة في وجهها هاتفًا في غضب أعمى: لا أريد أن أراكِ هنا ثانية، وإن خرج سر ابنتي من بين شفتيك فسيكون آخر ما يخرج من فمك.

ألقت نظرة ذاهلةً على الجريدة، قبل أن تبتسم في مرارة وهي تتجه نحو مكتبه لتضع عليه خاتمه الماسي وتغادر دون أن تنطق بحرف.

***

قاد «رأفت» سيارته في سرعة، لقد جاءته الفرصة ليأخذ بثأره، لا يصدق أنه تلقى صفعةً من مومس تسربلت أمامه برداء الشرف، لا يستوعب أنه قد صدق للحظة أنها امرأة شريفة، أحنقه أن يتلقى صفعة من امرأة مثلها، ولكن عزاءه أن «عاصم» قد تلقى الصفعة الأكبر، حين وثق بها وأبقاها في بيته، يحاول أن يتخيل وجهه حين يخبره بأن المرأة التي كاد يضربه من أجلها هي مومس محترفة، أطلق ضحكات عالية ووجه «عاصم» المخذول يتراءى أمامه وعلى وجهه علامات الذهول والخيبة، التقط هاتف سيارته يخبر توأم روحه بالخبر.

***

خرجت من مكتبه لا تلوي على شيء، يممت وجهها شطر البوابة، لقد

عاد الماضي بكل قوته شاهرًا أسلحته في وجهها، لقد عاد ليحرمها حق الحلم بالمستقبل، يبدو أنها كانت مخطئةً حين ظنت أنها قد تمكنت من الهروب منه، لا أحد يمكنه الهروب من ماضيه، خاصةً إذا كان كماضيها، عبرت البوابة في سرعة مستغلة انشغال «سليمان» بري حوض الزهور الخلفي، لم تشأ أن تشركه معها في هذا الأمر، فهي تعلم أن الرجل البسيط لن يتركها، وقد يترك عمله وراحته هنا، وهي لا تريد أن تدخله في معركتها مع الماضي، ستواجهه وحدها فإما أن تفوز هذه المرة، أو تبقى في سجنه إلى الأبد.

***

تهاوى على أقرب مقعد إليه، تأمل خاتمه الماسي الذي قبع فوق مكتبه ينتظر مصيره، تجاهل رنين الهاتف، لا يرغب بالحديث مع أحد، روحه تنزف، لا يمكنه أن يصدق أن المرأة الوحيدة التي منحها قلبه هي امرأة عديمة الشرف، كيف انخدع برداء الطهر والبراءة الذي ارتدته أمامه طيلة الوقت؟ كيف سلمها قلبه وائتمنها على ابنته وبيته؟ كيف منحها ثقته؟ تألق الخاتم الماسي لعل بريقه ينير الظلام، ويظهر الحقيقة، عاد رنين الهاتف يعلو في إصرار، ألقى نظرة على الرقم الظاهر على شاشة الهاتف الأرضي، امتدت يده يجيب بفتور: لا أريد إزعاجًا الآن

هتف «حمدي» في سرعة: انتظر لدي أخبار هامة.. لقد تحريت عما نشر في الجريدة، الخبر كاذب

انتفض «عاصم» من مكانه وهو يهتف في أمل: كاذب؟!! حقًا؟؟؟

أجابه في سرعة: لقد اتصلت بصديقي الضابط وتحريت منه عن الخبر

فقال لي ببساطة إن الخبر ملفقًا.. فهذه الشبكة قد تم القبض عليها منذ ثلاثة أشهر، وهي شبكة معروفة ومديرها معروف ومن الواضح أن المقصود من نشر الخبر بهذه الطريقة هو الوصول لصاحبة الصورة، والدليل على ذلك نشر صورتها دون وضع شريط يخفي عينيها خلافًا لأعراف ومواثيق النشر الخاصة بتلك الأخبار، وقد تأكد أنه لا يوجد محضر قد تم تحريره لهذه السيدة، أي أن الخبر ما هو إلا مجرد وسيلة للضغط عليها ودفعها للظهور فقط.

ضرب «عاصم» جبهته بيده وهو يهتف: يا لي من أحمق.

اندفع يجرى نحو غرفتها في الحديقة هاتفًا باسمها، لثوانٍ تجمد أمام ذلك الكوخ الذي ضمها أيامًا عدة، طرق الباب عدة مرات، لم يتلق ردًا من داخله فتح الباب في حذر، تأمل المكان الذي حوى كل ما يخصها وقد خلا منها، طار كالمجنون يبحث عنها في أرجاء قصره، ولكن أحدًا لم يمنحه الجواب الذي يريد، عاد يسأل «سليمان» على البوابة، ولكن الرجل لم يفده بشيء، طار بسيارته يبحث عنها في الخارج وقلبه يلهج بالدعاء أن يجدها ليكفر عن خذلانه لها.

الفصل الثاني عشر

سارت على غير هدى، اليأس يحيط بها، يغلق أبوابه عليها، تشعر بنفسها مقيدةً كأسيرة تُساق إلى الموت، إنها أسيرة ماضيها، تحمل مأساتها على كتفيها ولا يمكنها إزاحتها عن كاهلها، فكثيرًا ما تكبلنا الحياة بمآسٍ لا نستطيع التخلص منها إلا بمزيد من المآسي، ها هي مأساتها الجديدة تلوح في الأفق، ها هي قد عادت طريدةً بلا مأوى، كانت تسير مطرقةً حتى توقفت تلك السيارة أمامها وصاحبها يترجل منها قائلًا: نهاية الخط يا جميلتي.

تطلعت إلى «رأفت» الذي وقف بجوار سيارته يسد أمامها الطريق، دارت من خلف سيارته لتكمل طريقها فلا ينقصها أحمق مثله ليزيد همها، ولكنه جذبها من يدها في قسوة ليعيدها أمامه صائحًا: أنتِ مدينة لي منذ لقاءنا السابق.

نفضت يدها من يده في قوة وهي تهتف: ابتعد عنى أيها الوغد.

قبض على عنقها في قسوة قائلًا في حقد: لا تتجاوزي حدك، ولا تنسي نفسك، ستسددين حساب الصفعة بالكامل بالطريقة التي أحددها أنا.

كادت تلفظ أنفاسها تحت ضغط يده وهو يقترب من وجهها متابعًا بصوتٍ كالفحيح: ما رأيك أن نبدأ الحساب بليلة في شقتي الخاصة.

طفرت الدموع من عينيها وهي تدفعه عنها بكلتا يديها في يأس، بينما أطلق ضحكةً عاليةً وهو يدفعها نحو سيارته قائلًا: أنتِ ممثلة بارعة، تستحقين الأوسكار حقًّا.

فجأة توقف دفعه لها وتراخت يده حول عنقها و«عاصم» يجذبه من ظهره ليديره نحوه ويهوى على فكه بلكمة كالقنبلة ألقته على مقدمة سيارته، وقفت تتلقف أنفاسها المقطوعة ودموعها تسيل على وجنتيها أنهارًا وهي تتراجع للخلف في ذعر أدمى قلبه، في حين نهض «رأفت» من سقطته وهو يتجه نحو «عاصم» قائلًا في شماتة: يكفيني الصفعة التي تلقيتها من عاهرة مثلها.

قبض «عاصم» على عنقه ولكن «رأفت» دفعه في قوة، اتجه نحو سيارته ليجلس خلف مقودها قائلًا في سخرية: حقًّا الطيور على أشكالها تقع، فابن الممرضة لا يمكنه أن يعرف إلا عاهرة.

اتجه «عاصم» نحوه في غضب ولكنه انطلق بسيارته قائلًا في استعلاء: لا وقت لديَّ أضيعه مع أمثالكم.

تابع الغبار الذي أثارته سيارة «رأفت» قبل أن يعود ببصره إليها وقد مزقته دموعها التي أغرقت صفحة وجهها، لا يدري ماذا عليه أن يفعل ليكفر عن جرمه بحقها، لقد ألقى بها على طول ذراعه دون أن يتبين حقيقة الأمر أو يتيقن من صحة الخبر، لقد سقط كغر ساذج في الفخ، تركها فريسة تنهشها الذئاب، اتجه نحوها وقد عجز لأول مرة عن إيجاد

كلمات مناسبة فوقف صامتًا لحظات قبل أن تستدير هي لتكمل سيرها.

نطق اسمها بصوت عميق كأنما يخرج من أحشاءه، توقفت ليدور أمامها قائلًا فى حزن: أنا آسف.. سامحيني

رمته بنظرة حاقدة وهي تحاول تجاوزه لكنه أوقفها: أعلم أنني ارتكبت جرمًا لا يغتفر.. ولكن لا يمكنك الرحيل هكذا.

صاحت في ثورة: لمَ لا يمكنني الرحيل، هل هناك تهمة أخرى لا تجد من تلصقها به.. صمتت لحظةً وهي تتابع في ترفع: لا يمكنني البقاء في بيت رجل لم يمنح نفسه دقيقةً واحدةً يزن فيها الأمر قبل أن يذبحني ويلقى بي على طول ذراعه.. أنا لم أساو عندك دقيقةً واحدةً تسألني فيها عن حقيقة كذبة مكتوبة في جريدة حقيرة.. كل ما كان يعنيك هو سر ابنتك.. ولك كلمتي أني سأحمي ابنتك بحياتي، ليس لأجلك ولكن لأجل تلك الصغيرة البريئة.

شعر بالخجل من نفسه.. لأول مرة يتصرف بهذه الحماقة ولكن غيرته أعمته، ظنه بأنها خدعته وأنه قد سلم قلبه لمخادعة أصابه بالجنون، شعوره بأنها خانت ثقته فجر غضبه، لقد تحرك كالمجنون، كطيرٍ ذبيح يرقص رقصته الأخيرة.. همس في ألم: أعلم أنني أخطأت، أعماني غضبى عن رؤية الحقيقة، إحساسي أنكِ خدعتني أصابني بالجنون وجعلني أتصرف بشكل طائش،لم أفكر سوى أنني قد ائتمنك على حياتي وبيتي وابنتي وأنكِ تلاعبتِ بي.. عودي معي لأجل «سيليا»، ليس لها سواك، اعطني فرصةً لأكفر عن خطئي.. لن أسامح نفسي على ما سببته لك من أذى.

بدا صادقًا للغاية، حارت بين قلبها وكرامتها، جزء منها يريد العودة

بينما كرامتها الثائرة يعز عليها أن يتهمها في شرفها وهو الوحيد الذي كانت مستعدة للتضحية بحياتها من أجل أن تراه سعيدًا، انتهت معركتها الداخلية بانتصار كرامتها، فرفعت رأسها في إباء وهي تقول: انا آسفة.. لا يمكنني العودة.

خرج اسمها من بين شفتيه ذابلًا ضعيفًا كأنما يحمل معه روحه الممزقة وهو يقف أمامها قائلًا في يأس: لا تذهبي.. لأجل «سيليا»، ليس لها ذنب أن تُحرم منك مرةً واحدة، لا تحرميها من وداعك على الأقل.

خفضت عيناها في تأثر، فأسرع يفتح باب سيارته ولكنها تجاوزته لتجلس في المقعد الخلفي، قاد السيارة في سرعة كأنما يخشى أن تغير رأيها فيفقدها إلى الأبد.

***

استقرت في مقعدها الخلفي تلقي ببصرها إلى الطريق، تحاول أن تلقي ببعض همومها خارج نفسها ولكن هيهات فالهموم إذا التصقت بالقلب تصبح وطنًا نسكنه ونحمل جنسيته، تصبح من سماتنا وتحفر علاماتها على مستقبلنا، وهذا ما أصبحت عليه منذ التقت بكابوسها في حفل خطبتها الأولى، شردت ببصرها تسترجع ذلك اليوم بكافة تفاصيله، كان «كريم» خطيبها معيدًا بكلية الهندسة، كان شابًا خلوقًا، مرحًا، حنونًا، عاشقًا لها، كاد يمس السماء بخطبته لها، لا تدري هل كانت سعيدةً يومها لخطبتها له أم سعيدةً لسعادته، تلك السعادة التي أشرقت من ملامحه وطغت على حواسه، حتى حضر هو، «خالد» ابن خالته، لفت نظر الجميع بوسامته الشديدة وتلك الهالة من القوة التي أحاطت به فور دخوله، كان

ذو شعر بنيٍّ كثيف يتناغم مع عينيه البندقيتين الواسعتين، ذو وجنتين عاليتين يتوسطهما أنف مستقيم، وبنية رياضية قوية، توقف الجميع عما كان يفعله فور دخوله، وجوده وحده جذب انتباه الحاضرين، تقدم من العروسين في خطوات عملية سريعة، وكأنما العالم يعدو خلفه، هنأ خطيبها الذي أسعده حضوره كثيرًا وهو يقدمه إليها، تجاهلت يده الممدودة لمصافحتها وهي تحييه بلباقة وتغمره ببعض العبارات المرحة، نقل بصره بين وجهها الجميل ويده الممدودة لحظة قبل أن يقبض يده ويضعها بجواره ويبتسم ابتسامةً لم ترقها أبدًا، كانت تتوقع انصرافًا سريعًا يتناسب مع دخوله المتعجل ولكنه فاجأها ببقائه حتى نهاية الحفل بل ودعوته للعروسين لتناول العشاء بالخارج، استنجدت بخطيبها الذي وافق في امتنان، في حين أرسل أبوها أخاها «يحيى» معها كحارس لأخته الجميلة، أصر «خالد» على اصطحابهم بسيارته، جلست في المقعد الخلفي بجوار أخيها، بينما جلس خطيبها بجوار ابن خالته الذي ألقى عليها نظرةً سريعةً في مرآة سيارته قبل أن ينطلق بها إلى مطعم راق، بدا أنه معروفٌ هناك للغاية فقد هرع العاملين هناك للترحيب به وعلى رأسهم مدير المطعم، جلسوا يتبادلون الحديث والتعليقات المرحة، بدا خطيبها متألقًا وهو يتبارى مع أخيها في إلقاء النكات، في حين جلست هي تنقل بصرها بينهما وتضحك في رقة على تعليقاتهما، حتى اصطدمت عيناها بعيني «خالد» الذي جلس يرقبها في صمت أربكها، حولت بصرها عنه قبل أن يوجه لها الكلام بصوته القوى الواثق: أنتِ تجلسين في عشاء ذكوري بحت، وأنتِ سيدة هذه الطاولة، لذا ستفرضين إرادتك وتختاري

لنا جميعًا أطباق العشاء.. ثم أردف بلهجة خاصة: وسيخضع الجميع لإرادتك وأولهم أنا.

شيء ما في لهجته أربكها، فأسرعت تنفض عن نفسها ما شعرت به من انقباض بداخلها وهي تقول في مرح زائف: أنت منصف سيد «خالد».. وأنا حقًّا لم أكن أنوي أن أترككم لتفرضوا عليَّ إرادتكم، ولكنني سأكون ديمقراطية وأترك لكم فرصة اختيار طبقًا واحدًا فقط.

راح كل من أخيها وخطيبها يتوسلان إليها لتسمح لهما باختيار شيء آخر بينما رفعت هي رأسها في إباء وهي تهز رأسها نفيًا في قوة، تراجع في مقعده يتأملها في صمت وابتسامة صغيرة ترتسم في عينيه البندقيتين، استنجدا به ولكنه مال للأمام قائلًا: أنا ممثل القانون هنا ويجب أن أعمل على تنفيذه.

صاح أخوها في استنكار: ولكن أنت من وضعت هذا القانون!

أجابه في بطء واثق: وهذا أدعى لتنفيذه لأنه قانوني الخاص.. قالها وهو يطوف ببصره على وجهها الذي أضاءت قسماته ابتسامتها الخجلى الحيية وهي تطرق أرضًا حين ركز خطيبها نظراته عليها مستغلًا انشغال أخيها بالحديث مع ابن خالته.

***

انتهى العشاء والكل يتهيأ للرحيل، ولكن «خالدًا» فاجأهم باستئذانه منها ليطلب لهم التحلية على ذوقه الخاص، أذنت له في ارتباك، تأملت الأطباق التي وضعت أمامهم، اعترفت بينها وبين نفسها أنه ذو ذوق خاص جدًا، ولكن هناك شيء بخصوصه لا يُريحها، لا يمكنها أن تحدد

بالضبط، ربما حضوره الطاغي، ربما هيمنته على الجميع، أو ربما هي سلطته التي يفرضها أينما حل، أو نظراته التي تربكها ولا يمكنها تفسيرها على النحو الصحيح.. راح يتحدث مع خطيبها الذي أخذ يحكى كيف بدأت قصته معها حين ناقشته في المحاضرة بموضوعية وعقلانية أبهرته، وكيف ظل يراقبها لعدة أشهر ويجمع المعلومات حولها حتى وجد نفسه صريع هواها ولم يملك إلا أن تقدم لخطبتها.. لم تدر ما سر ذلك القلق الذي اجتاحها لأول مرة في حياتها، والذي دفعها دفعًا للوقوف فجأةً وإنهاء هذا العشاء.

***

أيام عدة مضت منذ حفل خطبتها، تحرص على المسافات الاجتماعية بينها وبين خطيبها في الكلية، تضع القيود وتحافظ عليها بصرامة، تعامله كغريب، لا وقوف بمفردهما في الكلية، تقريبًا لا كلام بينهما، تلك القيود التي رعتها بأخلاقها وحافظت على حدودها بخوفها من الله أثمرت في قلب خطيبها حبًّا وإكبارًا واعتزازًا، وأثمرت في نفس «خالد» رغبةً في الحصول على الزهرة المحرمة، فتكررت زيارات «خالد» لابن خالته في الكلية، حاول أكثر من مرة الحديث معها ولكنها كانت تنهي الحوار في سرعة ولباقة لتفلت من فخاخه، ولكن تفلتها الدائم من بين يديه لم يزده إلا إصرارًا على الحصول عليها، حتى فاجأها بمشاركته لها ولأصدقائها في ذلك العمل الخيري التطوعي الذي قامت به هي وأسرتها بالكلية لمساعدة بعض الأيتام المعاقين، لا تنكر أن وجوده معهم قد ساعدهم بشدة، وأن حضوره القوي قد أبهر الجميع، راحت الفتيات يبذلن جهدهن للفوز برضا

ذلك القوي الوسيم، بينما بذلت هي جهدها للإفلات من حصاره، والهرب من نظراته وكلماته التي تحمل أكثر من معنى، وعباراته التي يكتنفها الغموض، وانتهى ذلك اليوم بكارثة حين أمسك بيدها فجأة ليساعدها على عبور الطريق ولكنها جذبت يدها من يده في قسوة وهي تنهره بشدة وتتركه لتمضي وحدها، ولم تمض أيام حتى فاجأها خبر وفاة خطيبها في حادث سيارة، ولم يألُ «خالد» جهدًا للتخفيف عنها، ظل يتربص بها كصياد صبور حتى انتهت من دراستها وتخرجت من الكلية، تقدم لخطبتها عدة مرات كان الرفض دائمًا من نصيبه، حتى تدخل والدها وأقنعها أنه زوج مناسب لها وأنه سيطمئن عليها مع رجل يمكنه حمايتها والأهم أنه يحبها.. لم تدرك وقتها وهي توافق على أن تدخل تحت حمايته أنها ستحتاج إلى من يحميها منه.

***

مرت تلك الأشجار الجافة على جانبي الطريق أمام عينيها في سرعة كسنوات زواجها العجاف، لا يمكنها أن تنكر أنها قبل حدوث الأزمة كان تُعامل كملكة متوجة، لم يكن يألو جهدًا في إسعادها وإظهار حبه لها، ولكن كان هناك دائمًا حاجزًا داخليًا لديها، تشعر دائمًا بعدم الراحة، القلق يحيط بها وإن لم يتمكن من غزو داخلها بعد، حتى كانت صدمتها في وفاة أبيها بحادث سيارة قريبًا من عيادته، فرَّ الجاني ولم تتمكن الشرطة وقتها من العثور عليه، ولكن «خالدًا» لم يتركها لحظةً واحدة، بل وقف بجوارها يشد من أزرها، وبالغ في الاهتمام بها خاصةً بعد سفر أخيها إلى الخارج ليحصل على فرصة عمل في إيطاليا لدى أخواله هناك، وقد ساعده «خالد»

بشدة حتى استقر هناك وانقطعت أخباره عنها، ثم كانت الطامة الكبرى حين أظهرت نتائج التحاليل والفحوصات التي أجرتها هي وزوجها أنها عاقر لا يمكنها الإنجاب، بالغ هو في احتوائها والاهتمام بها، وبث الطمأنينة في نفسها بأنه لن يتركها، وأنها أهم عنده من أطفال العالم بأسره وأنه يحبها أكثر من أي شيء في هذه الدنيا، ملأ شعورها بالامتنان نحوه داخلها، فصرفت جل وقتها في العناية به والاهتمام بشؤونه، وغمرته بعطفها وحنانها، كان سعيدًا للغاية باهتمامها، يكاد يمس السماء من فرحته بامتلاك مشاعرها، حتى كانت بداية أزمتها.. أخرجها من ذكرياتها صوت باب السيارة المجاور لها يُفتح، ألقت نظرةً سريعةً على «عاصم» الذي وقف بجوار الباب وفى عينيه نظرة متوسلة تجاهلتها وهي تنزل من السيارة لتتجه نحو القصر في سرعة وقلبها الجريح يبحث عن شخص واحد فقط «سيليا».

***

احتضنت الصغيرة في شوق كأنما فارقتها لسنوات وليس لساعات، تتلمس في عناقها الدفء والأمان، احتوتها الطفلة في حنان قلق وهي تتساءل عن سبب شرودها، تأملت الصغيرة بنظرات شاردة كأنما هي في عالم آخر، عالم يبعد زمنًا عن وقتها الحالي، تتذكر فيه أيامها الهانئة في بيت أبيها، وسعادتها الزائفة في بيت زوجها، حتى حضرت إليها تلك السيدة التي راحت تتوسل لها لتتوسط لدى «خالد» لكي يطلق سراح ابنها الذي حبسه ظلمًا بتهمة ملفقة، وعندما حدثت زوجها بشأن الشاب، أجابها بهدوء: حبيبتي كل الأمهات يعتقدن أن أبناءهن أبرياء ومن

المستحيل أن يقترفوا أية جرائم.. أنا حقًّا أشفق على الأم المسكينة التي لا يمكنها تخيُّل أن صغيرها قد تحول إلى مجرم..

تابع وهو يحتويها بين ذراعيه في حنان قائلًا: أرجوكِ حبيبتي لا تسمحي للغرباء بدخول البيت في غيابي.. أنا أخشى عليكِ كثيرًا.. ولي الكثير من الأعداء قد يحاولون الانتقام مني بإيذائك، فالمقربين منى يعلمون كم أحبك، أرجوكِ حافظي على نفسك لأجلي، فلا يمكنني الحياة بدونك.

أومأت برأسها إيجابًا وهي تستسلم لعناقه الملهوف ومشاعره المحمومة، دون أن تدري أنها قد بدأت تخطو نحو أزمتها الكبرى، فبعد مرور أشهر عدة، ذهبا سويًا إلى فرح لابن أحد رؤسائه في العمل، شعرت بالغربة منذ اللحظة الأولى التي خطت فيها إلى المكان، حاول أن يعرفها على زوجات بعض زملائه ولكنها لم تستطع التآلف مع أيٍّ منهن، فعادت أدراجها تبحث عن زوجها، لتجده يتحدث مع أحدهم على انفراد في ركن شبه مظلم لم تتبين معه ملامح الرجل الذي يحدثه وزوجها يقول في خفوت: ضع النصف مليون في حسابٍ بنكي سأعطيك رقمه وأنا سأحرق حرز المخدرات الذي ضبطناه مع ابنك.

تراجعت في سرعة وهي تشهق في ذعر، قبل أن تتمالك نفسها وتفكر أن زوجها لا ريب يحاول الإيقاع بالرجل وأنها بالتأكيد مجرد خطة تم رسمها من قِبَل الشرطة للإيقاع بالرجل، ولم تشأ حتى أن تتحدث مع زوجها في الأمر، وإن بدأت الشكوك تساورها حتى كان اليوم الذي لم يدع لها مجالًا للشك، حين أتى رئيس زوجها في العمل العقيد «شوقي» إلى

منزلهم في زيارة مفاجئة، بدا زوجها مستاءً من حضوره دون موعد سابق، ثم طلب منها الاستعداد للخروج في دعوة مفاجئة لتناول الغداء بالخارج، كان يدفعها لدخول غرفتهما بينما تخبره أنها ستعد شيئًا لتقديمه للضيف، ولكنه أخبرها أنه سيقدم له مشروبًا بنفسه وأن عليها الاستعداد، أثار إصرار زوجها على إبعادها قلقها ودهشتها في آنٍ واحد، جلست في غرفتها لتستعد حين خطر على ذهنها خاطر أثار ذعرها، فقد ذهب بها تفكيرها أنه ربما هناك خطر محدق بزوجها ويرغب في حمايتها، بينما هاجمتها الشكوك التى ظلت تساورها منذ يوم الحفل، ترددت لحظات ولكن قلقها على زوجها وفضولها لمعرفة ما يسكن شكوكها حول ما حدث سابقًا اتحدا معًا لدفعها للتسلل على أطراف أصابعها لتسمع حديث زوجها مع ضيفه الذي بدا متوترًا وهو يقول في قلق: لقد علم المقدم «نبيل» بالأمر.

هز «خالد» كتفيه في لامبالاة: كان سيأتي يوم ويعرف.

زفر «شوقي» في توتر: لقد كلف أحد الصحفيين بنشر الأمر بعد أن حصل على أدلة ووثائق تثبت تورطنا في اغتيال «صالح الألفي».

قال «خالد» في تفكير: لم أرتح لـ «نبيل» هذا يومًا، يتمسك بمثاليات بالية ويظن نفسه حامى العدالة ومنقذ البشرية المقهورة، ولكن أية أدلة تلك التي تثبت تورطنا؟! أنا لا أترك دليلًا خلفي.

- لست أدري، ولكنه يبدو واثقًا، ولقد علمت من مصادري أنه زود ذلك الصحفي بأدلة ووثائق تشير إلينا. فما العمل؟

تراجع في مقعده وهو يقول في مكر: على أية حال هو لم يترك لنا

خيارًا.. هو الجاني على نفسه.. اختر له يا باشا قرص أم ذبح؟

أجابه في حقد: ذبح.

أطلق «خالد» ضحكةً شيطانيةً: اقرأ عليه الفاتحة.

- والصحفي؟

- لا يمكننا وضع البيض كله في سلة واحدة وإلا فسد الأمر برمته، يكفيه قرصة بسيطة، نلقي به في الحجز ونلفق له قضية مخدرات حتى يقبل الأيادي وبعدها ننظر في أمره، إن عمل معنا وأصبح كلبًا من كلابنا نطلقه على من نشاء.. أخرجناه وفتحنا له الأبواب المغلقة، وإن أصر على موقفه فقد جنى على نفسه. هل هناك شخص آخر يضايقك؟

هز «شوقي» رأسه في راحة قائلًا: كلا.. سأرسل لك أحد رجال الأعمال، كهدية مني إليك، سيدفع كل ما تطلبه مقابل أن تزيح ابن أحد أعدائه من طريق ابنه.

أطلق «خالد» ضحكةً ماكرةً: هدية مقبولة يا باشا.

كادت الأرض تميد بها وهي ترى زوجها على حقيقته، ذلك الرجل القوي الذي توهمت لفترة من الزمن أنه حامي العدالة، ما هو إلا مجرد مجرم منزوع الضمير، يمكنه أن يدمر حياة أبرياء ببرود منقطع النظير، انهمرت الدموع من عينيها كالسيل وهي تلقي بنفسها على فراشها، أخرجها من دوامتها صوته الملهوف وهو يحيط كتفيها بذراعه متسائلًا في قلق بالغ عما يبكيها.. تأملته لحظات غير مصدقة أن هذا الرجل الذي تفيض عيناه حبًا وعشقًا قد يكون بهذا الإجرام.. خرج صوتها باردًا حادًا كقطع الثلج وهي تقول في قسوة: طلقني.

حدق في وجهها لحظة بذهول، همس في دهشة: ماذا؟

أجابته وهي تنفض يده عن ظهرها في حدة: لقد سمعت كل شيء، أنت مجرم حقير ولا يمكنني البقاء معك لحظةً واحدة.

نظر إليها في عمق وهو يقول في هدوء: لقد بذلت كل ما في وسعي لإسعادك وتأمين مستقبلك، حتى تعيشي حياةً سعيدةً مرفهة.

هتفت في استنكار: أي سعادة على حساب حياة الناس؟ وأي رفاهية ثمنها دماؤهم؟!!

قال في هدوء لا يتناسب مع حدة الموقف: ليس في حياتي من هو أغلى منكِ ومن عملي، لقد أحببتك في أول يوم رأيتك فيه.. ولم أحب أحدًا قبلك.. ولم أحب شيء في حياتي مثلما أحببتك.

قالت في انهيار: لا يمكنني أن استمر في حياتي معك وأنت مستمر على ظلمك إلا إذا تبت وأعدت للناس حقوقهم.

همس في حذر: وإن لم أفعل؟

- ستطلقني إذن.

- أطلقك.. لقد تجرأتِ على نطقها للمرة الثانية.

- وسأحصل عليه إن لم تتب، وسأقف مع من ظلمتهم حتى لو اضطررت للإبلاغ عنك لإعادة الحقوق لأصحابها.

جلس على المقعد المقابل وهو يضع ساقًا فوق الأخرى قائلًا في سخرية: هل تريدين الإبلاغ عني؟ هل جننتِ حبيبتي؟

هتفت في قوة: بل أنت من فقد عقله، المجنون بحق هو من يلقي

بنفسه إلى قعر جهنم لأجل دنيا لا تساوى جناح بعوضة.

قال في برود: إذن أنت تعترفين أنني مجنون.. وهذا جيد فليس على المجنون حرج، صمت لحظات ثم نهض واقفًا أمامها وهو يتابع في قسوة: لقد بذلت جهدي لإسعادك، فعلت كل شيء من أجلك ولكنكِ لا تستحقين.

صاحت في ثورة: لم أطلب منك مالاً يومًا، لم أطلب منك أن تجعلني آكل من حرام، لم أطلب منك أن تجعلني أعيش على دماء الأبرياء، لقد اتفقنا قبل زواجنا أنني لن أستمر في حياتي معك إذا رأيت مظلومًا ولم تنصره، كل صباح كنت أوصيك بمعاملة الناس برحمة كلما سمعت ما يحدث في أقسام الشرطة من ظلم للناس واعتداء على حقوقهم وهتك كرامتهم، لا أدري كيف كنتُ بهذه السذاجة ولم ألحظ سخريتك دائمًا من وداعي لك عند الباب وتوصياتي التي صرت تحفظها وترددها بدلًا عني.. هل تظن أنني قد أقبل بالحياة معك بعدها؟ الساكت عن الحق شيطان أخرس.

قال في سخرية: أنتِ ساذجة ومثالية للغاية حبيبتي.. لو استمعت لكلامك سأفقد وظيفتي.

هتفت في أمل: لا مشكلة سأقف بجانبك.

أطلق ضحكةً عاليةً وهو يقول: ألم أقل لكِ إنكِ مثالية للغاية وساذجة.. لا يمكنني الحياة بدون سلطتي، سأكون كالسمكة التي خرجت من الماء.

- وهل ستخلد في منصبك؟! سيأتي يوم وتتركه، وسيأتي يوم

وتنكشف كل جرائمك فماذا ستفعل وقتها؟!

- اطمأني لن يحدث هذا فأنا أعرف قواعد اللعبة جيدًا، إذا أردت أن تكون فاسدًا بامتياز فعليك أن تؤسس شبكة من المنتفعين من الفساد ثم تحمي هذا الفساد بالقانون هكذا يفعل الكبار.. وهذا ما فعلته أنا!

- ألن تصل لسن المعاش!

- سأكون قد حصلت على سلطة من نوع آخر..السلطة الأقوى..سلطة المال سأكون قد أصبحت غنيًّا يحميني مالي.

- كلها فلوس حرام جمعتها من دم الناس.. كيف ستلقى الله؟ لن يمكنني الاستمرار معك، فلا فائدة ترجى منك.. طلقني

احمر وجهه وهو يقول في شراسة: لقد كررتها للمرة الثالثة فلا تلومي غير نفسك.

قالها وهو يندفع نحوها ويقبض علي عنقها، ويدفعها نحو حجرة خالية نسبيًا كانوا يعدونها كغرفة للأطفال: تذكري أنتِ من دفعني لهذا.

صاحت في ذعر: ماذا ستفعل؟

قال في غضب: ليس من المعقول حبيبتي أن أتركك لتبلغي عني.. ولا يمكنني في نفس الوقت أن أزج بكِ في السجن فأنا لا أحتمل البعد عنك.. لذا ستبقين هنا.

دفعها إلى الداخل وهو يقيد يديها خلف ظهرها بحبل غليظ ثم انحنى يقيد قدميها قبل أن يغلق عليها الباب بالمفتاح، ارتفع صوته من خلف الباب يبتعد قائلاً في أسف: لم أحب في حياتي أحدًا مثلما أحببتك ولكنكِ

لم تتركي لي فرصةً للاختيار.

***

جلست «جيهان» في سيارتها التي انطلق سائقها بها على الفور تلبيةً لاستدعاء «عاصم» العاجل لها، عشرات الأفكار السوداء طافت برأسها حتى استقر بها المجلس أمامه ليحكي لها كل ما حدث،استمعت له في تركيز حتى انتهى من روايته فهمست في حذر: وأين هي الآن؟

أشار إلى الأعلى قائلًا: في غرفة «سيليا».. أعلم أني جرحتها وخذلتها، فساعديني لتصفح عني.

تنهدت في تأثر: أتحبها لهذا الحد!

لم يشأ أن يخفي مشاعره عنها فهي أقرب الناس إلى قلبه، أومأ برأسه إيجابًا، تابعت فى حنان: ولمَ لم تصارحها بمشاعرك؟

أجابها في تردد: كنت أخشى ألا تبادلني نفس الشعور وتتركني للأبد وماعاد بمقدوري البقاء بعيدًا عنها، كما أن ابنتي مرتبطة بها للغاية.

ربتت على كتفه فى رفق وبداخلها راحت مشاعرها تضطرب بين حزنها على ماحدث وسعادتها لعثوره على حب حياته.

***

لم تدر كم مر عليها من وقت وهي منهارة على أرض الغرفة حتى أفاقت على صوت باب الغرفة يفتح و«خالد» يعبر الغرفة نحو النافذة الوحيدة التي استقرت في منتصف الجدار المقابل حاملًا شيئًا بيده لم تتبينه بدقة قبل أن تنتبه لما يفعله حينما راح يغلق النافذة الخشبية

بالمسامير، التفت إليها ليجذب سلسلةً حديديةً طويلةً تنتهي من طرفيها بأصفاد وضع طرفها في رسغها بينما وضع الطرف الآخر في إحدى فتحات السرير الخشبي الصغير الذي استقر بجوار دولاب صغير حمل رسومات طفولية، حدقت فيه بذهول وهي تهتف: ماذا تفعل أيها المجنون؟ هل ستحبسني؟

قال في حزن: أنتِ من دفعني لهذا، لم أرغب يومًا في إيذائك، كل ما رغبت فيه هو حبك الخالص ودعمك لي ووقوفك بجانبي.

- أقف بجانبك وأنت ظالم؟!!

- الزوجة المخلصة تقف بجوار زوجها مهما حدث.

- في أي شرع هذا؟ أعوان الظلمة كلاب جهنم.. ولن أكون عونًا لك على ظلمك أبدًا حتى لو قتلتني هنا.

هوى على وجهها بصفعة أدمت شفتيها، تطلع إلى الدماء التي سالت على ذقنها الجميل، ضرب الجدار بيده في قوة وهو يهتف في غضب: لا تجبريني على هذا ثانية.

مد يدًا مترددةً يمسحها، وشوقه إلى صاحبتها يقتله، احتواها في قوة يود أن يدفنها بين ضلوعه، بينما راحت تدفعه عنها بيدها الحرة وهي تموء كقطة حبيسة، حتى علا نحيبها فابتعد في غضب وهو يهتف بصوت هادر: أنتِ لي مهما حدث.. ثم تركها وانصرف مغلقًا الباب خلفه في عنف.

أخرجها صوت «جيهان» من ذكرياتها الأليمة وهي تقف على عتبة الباب الذي فتحته للتو، اقتربت منها في هدوء ودون أن تتحدث احتوتها

في حنان، فانهمرت دموعها على كتفها، ربتت «جيهان» على ظهرها في حنان هامسةً: سيكون كل شيء على ما يرام.

تنهدت في راحة كأنما هذا ما كانت بحاجة إلى سماعه، ولكن هل سيكون كل شيء على ما يرام حقًّا؟!!

الفصل الثالث عشر

"يبدأ الإنسان بالحياة، عندما يستطيع الحياة خارج نفسه" هكذا كان يرى «أينشتاين»، أما هي فترى أن الإنسان يبدأ بالحياة عندما يتحرر من قيوده، عندما يتنفس حريته، عندما يمتلك زمام حياته أو ينتهي من الحياة، هكذا أخذت تفكر وهي ترقد في حجرة «جيهان» التي تركتها وحدها بعد أن تظاهرت بالنوم لتفلت من إصرارها على الحصول على وعد منها بالبقاء في قصره.. تتساءل هل بإمكانها البقاء؟ أم هل بإمكانها الرحيل حقًّا؟!

أغلقت عينيها تهرب من نفسها، لتعود لأيامٍ اكتشفت فيها قوتها الحقيقية، حين كانت في زنزانة «خالد»، تلك الغرفة التي حبسها فيها لشهورٍ توقفت عن عدها.. توقفت فيها عن الحياة نفسها، تمنت الموت آلاف المرات، حاولت الوصول للموت فأضربت عن تناول الطعام الذي يقدمه لها من ماله الحرام، رفضت يده الممدودة بالطعام، لفظت ما أطعمها إياه رغمًا عنها، حتى اللبن الذي كان يجعلها تتجرعه بالقوة، كانت تبصقه أمامه، وكانت تدفع ثمن ذلك صفعات غاضبة تتلقاها على وجهها بكل ثبات، بل وصل بها الأمر أنها كانت تتلقاها بسخرية أيضًا، لينقلب السحر على

الساحر وترتد صفعاته إليه، فتارةً يضرب الجدار بقبضته حتى يدميها، وتارةً يجلس تحت قدميها يبكى كطفلٍ صغير، وتارةً يعود إليه كبره وغروره فينهال عليها ضربًا، وتارةً يخرج تاركًا صدى وعيده وتهديداته تتردد في الغرفة خلفه.

لم يتسرب اليأس إلى نفسها في الخروج من سجنها إلا حينما تناهى إلى سمعها حديثًا تليفونيًّا أجراه مع عمه الذي سأله عليها ولكن «خالدًا» أخبره أنها قد سافرت إيطاليا إلى أهلها هناك.. كادت يومها تفقد كل أمل لها في انتهاء أزمتها.. لولا أن استعصمت بربها، وتوجهت إليه بقلبها، تبثه همومها وتطلب عونه ورحمته بها، ومرت عدة أسابيع أخر، حتى كان هذا اليوم الذي جلس أمامها يقضم تفاحةً كبيرة تركها ليقول في حيرة: أتعلمين لقد بدأت استمتع بحبسك، فأنتِ كالعصفور الجميل نجد المتعة في الاستمتاع به بين جدران قفصه.. هل ظننتِ أنني حبستك لأنني أخشى من إبلاغك عني؟!

لم ينتظر إجابتها وهو يتابع قائلًا: الأمر لا يعنيني فليس لديك دليل، ولن يستمع إليك أحد، ويمكنني القول وقتها أننا مختلفين وأنكِ تسعين لإلحاق الضرر بي، بل يمكنني أن ألفق لكِ تهمة آداب فلن تتجرئي على فتح فمك بعدها.. ولكنك أهم ما امتلكت، أنتِ كمُهرة حرة، قررت منذ رأيتك أول مرة الحصول عليك.

هتفت في دهشة: لقد كنت مخطوبةً لابن خالتك.

قال في قسوة: لقد كان مهرك غاليًا، لقد جعلت روحه مهرك.

شهقت في ذعر: هل قتلته؟!

أجابها في سخرية: لم أفعل، هو من وقف أمام سائق السيارة الأرعن،

لقد فعلت الكثير من أجل الاحتفاظ بكِ ولكنك ناكرة للجميل.. عمومًا أنتِ الآن وحيدة وليس لكِ مكان يمكنك الذهاب إليه.. أنتِ ملكي.

- لا أستبعد أن تكون قد سعيت في سفر أخي وبيع شقتنا لأجل إذلالي.

هز رأسه نفيًا في قوة قائلًا ببرود مستفز: لم أسع قط لإذلالك، لقد حاولت السيطرة عليكِ فقط، وأنتِ نفسك تشهدين كم دللتك وعاملتك كملكة متوجة، ولكنكِ أنتِ من سعيت إلى ما أنتِ فيه الآن بتدخلك في أمور لا تعنيكِ.. هل تريدين شيئًا قبل أن أخرج؟

- أريد الذهاب للحمام.

قال في مرح مفاجئ وهو يربت على وجنتها: هذا حقك حبيبتي.. انظري كم أنا رجل ديمقراطي أمنحك كافة حقوقك.

تمتمت في سخرية: لقد خسرتك لجنة حقوق الانسان.

غمز بعينه قبل أن يقول بنفس اللهجة: قد أفكر في الانضمام لها لاحقًا.

فك أحد الأصفاد المغلقة مع حلقة حديدية، تأمل القيد الحديدي لحظات قبل أن يهتف:

وظننـــــت أنـــــك تعـــــرفين معنـــــى ســـــوار الياســـــمين
يـــــأتي بـــــه رجـــــل إليـــــك ظننـــــت أنـــــك تـــــدركين

صمت لحظةً وهو يضع القيد الحديدي أمام عينيها: هذا سوار الياسمين خاصتك.

ألقت عليه نظرةً ساخرةً فتابع في سخط: كنت كلما سمعت تلك الأبيات قبل زواجنا أظن أنني سأهديك سوارًا من ماس يحيط بمعصمك الجميل، لم أظن أن أضع معصمك في هذا القيد الحديدي كالمجرمين.

قالت في مقت: لقد أصبحنا في زمن مقلوب، الأبرياء في القيود، والمجرمين أحرار بل ويتقلدون أعلى المناصب!

- بل هذا هو الزمن الصحيح، لا مكان للمثاليات الغبية التي تؤمنين بها ولا مكان إلا للقوة.. هذا زمن الأقوياء وعلى الضعفاء أن يدفعوا ثمن ضعفهم.

تركته دون أن ترد عليه وهي ترسف في السلاسل متجهةً نحو الحمام بينما تبعها بقوله: اتركي الباب مفتوحًا حبيبتي.. ثم عاد يردد:

وظننـــــت أنـــــك تعـــــرفين   معنــــى ســــوار الياســـــمين
يـــــأتي بـــــه رجــــل إليــــك   ظننـــــت أنـــــك تـــــدركين

رمته بنظرة قاتلة وهي تصفع الباب في وجهه، فأطلق ضحكةً عاليةً قطعها رنين الهاتف، أسرع يرفع السماعة ليأتيه صوت العقيد «شوقي» قائلًا في توتر: أريدك أن تكون أمامي في الحال.. هناك مصيبة.

قالها وأغلق الهاتف دون انتظار رده، أسرع يدفعها بقوة نحو الغرفة، سقطت أرضًا في ضعف، تردد لحظة قبل أن يغلق الباب ويسرع بمغادرة المنزل.

ظلت جاثيةً على ركبتيها والضعف يدب في أطرافها وقد هزل جسمها على نحو مخيف لامتناعها عن الطعام، لفت نظرها تلك الانفراجة في باب

الغرفة، نهضت في لهفة حين تبينت أنه لم يغلق الباب جيدًا، هرولت نحو الهاتف، طلبت رقم عمه، انتظرت في توتر، كادت أعصابها تحترق، ولكن أحدًا لم يجب، عادت تطلب الرقم في إصرار حتى أجابها الرجل، فاندفعت تقول في لهفة: عمي «عبدالحكيم».. ارجوك أنقذني، تعال بسرعة.

هتف الرجل في دهشة: متى عدت من السفر؟ وممَّ أنقذك؟ هل اقتحم أحد المنزل؟ هل خالد معك؟ هل أبلغ الشرطة؟

أجابته في سرعة: كلا عمي.. أنا لم أسافر من الأساس، لقد حبسني «خالد» في الشقة لعدة أشهر.. أرجوك احضر حالًا، سأشرح لك كل شيء حين تأتي.

طمأنها الرجل بأنه سيكون لديها في غضون دقائق مرت عليها كسنوات عرجاء، حتى حضر الرجل، هرولت نحوه في ذعر: أخرجني من هنا أرجوك.

تطلع إليها الرجل في ذهول، فقد بدت شاحبةً على نحو مخيف، وقد نحل جسدها حتى ظهرت عظام وجهها، وقفت أمامه مكبلةً بالأغلال بين قدميها، وهي تتوسل له أن يذهب بها قبل عودة ابن أخيه

هتف الرجل في غضب: أخبريني ماذا يحدث؟

همست وهي تتحرك نحو الباب: سأخبرك كل شيء في الطريق، هيا أرجوك قبل أن يأتي، فربما يقتلك ويتهمني بقتلك!

حدق الرجل في وجهها بدهشة، غير مصدق لكل ما تتفوه به ولكن حالتها المزرية، والرعب المصاحب لكلماتها المتقطعة، جعله يذعن لرغبتها ويصحبها إلى منزله.

منحها الرجل الوقت الكافي لتغير ثيابها، أجلسها تتناول كوبًا من الحليب الدافئ، راحت تقص عليه كل ما حدث قبل أن تنهار قواها مرةً واحدةً وتسقط فاقدة الوعي.

***

تأملها الطبيب لحظات وهو يتفحصها في سرعة وخبرة قبل أن يوجه كلامه لعبد الحكيم قائلًا: لقد تعرضت للضرب والتعذيب، كما أنها تعاني من سوء في التغذية وانهيار عصبي حاد، لذا يجب إبلاغ الشرطة.

صرف «عبدالحكيم» الطبيب، بعد أن أقنعه أنه لا ضرورة لذلك وأنه أمر عائلي سيحله بنفسه.

لم يمض وقت طويل حتى اقتحم «خالد» فيلا عمه متجاوزًا الخادم في غلظة، أخذ يبحث عنها والشرر يتطاير من عينيه، برز له عمه من غرفة المكتب مرحبًا، تجاهل «خالد» ترحيبه وهو يقول في حدة: أين «ياسمين»؟

سأله في دهشة مصطنعة: هل عادت من السفر؟

هتف في عصبية: أين هي؟ لقد اتصلت بك وأنت حضرت وأخذتها من المنزل، لقد كان آخر رقم على الهاتف هو رقمك؟ علاوةً على أنها لا تعرف سواك.. فأين هي؟

جلس عمه واضعًا ساقًا فوق الأخرى وهو يشير له بالجلوس قائلًا: ما الذي يحدث؟

لم يستجب لإشارة عمه بالجلوس بل وقف يهتف في ثورة: لا شأن لأحد بم يحدث بيني وبين زوجتي.. أين هي؟ أخبرني قبل أن يحدث ما لا يُحمد عقباه.

نهض الرجل في غضب قائلًا في حدة: هل تهددني؟!!

أجابه في صرامة مخيفة: أنا لا أهدد.. أنا أنفذ فورًا!

قال الرجل في برود: ابذل أقصى ما فى وسعك وأرني ماذا ستفعل؟

رماه «خالد» بنظرة نارية قبل أن ينصرف وهو يرغي ويزبد متوعدًا الجميع.

***

جلس بجوار فراشها تقص عليه كل ما حدث، استمع الرجل لها في صدمة، لم يتخيل أن يصل ابن أخيه الذي رباه وهو لا يزال طفلًا صغيرًا إلى هذا الحد من الإجرام، لم يتصور أن يفعل هذا بزوجته..لم يظن أن السلطة المطلقة قد تفسد الإنسان بهذا الشكل، ولكن يبدو أن هذا ما وصل إليه ابن أخيه.. أفاق من شروده على توسلاتها له بأن يساعدها فى الحصول على الطلاق والسفر خارج البلاد.

ربت الرجل على كتفها مطمئنًا، وإن كان في داخله غير واثق من قدرته على إجبار ابن أخيه على تطليقها، لقد بدا كوحش غاضب، ولكنه لن يترك تلك اليتيمة التي ائتمنه أبوها عليها قبل وفاته وهو يسلمها له يوم زواجها، يومها وعد أباها بالحفاظ عليها وأنه لن يسمح أن يمسها سوء طالما في صدره نفس يتردد، وعليه الآن أن يفي بوعده، ويحفظ أمانته، يعلم أن مهمته لن تكون سهلة، فهو أكثر من يعرف كم يحبها ابن أخيه، ولكنه لا يعرف إلى أي حد قد يصل هوسه بها.

***

وقف «خالد» يبحث بعينيه عنها عقب استدعاء عمه، الذي جلس قبالته

في هدوء ينذر بالخطر، وهو يخيره بين زوجته وميراثه.

قال «خالد» في برود: لم أفهم.

أجابه عمه في هدوء واثق: تعلم أن زوجتك نفسها لا تعنيني.. كل ما في الأمر أن أباها رحمه الله كان صديقًا عزيزًا، ولم يوافق على منحك ابنته إلا لأنك ابن أخي.. أي أنها وصية ميت، والآن سأقوم باتصال من اثنين، إما أن أتصل بالمأذون، أو أتصل بالمحامي لأوصي بكل أموالي للجمعيات الخيرية.. أي أن طلاقها أمام ميراثك وأنت صاحب الاختيار.

جلس واضعًا ساقًا فوق الأخرى وهو يقول في سخرية باردة: ما الأمر يا عمي... هل تنوى أن تتزوجها؟

صاح الرجل في حدة: اخرس يا كلب، أنت لا تعرف ما معنى الصداقة ولا وصية رجل ميت وضع ثقته فيك وائتمنك على أعز إنسان لديه.

صمت لحظةً وهو ينهض ليمسك بسماعة الهاتف متابعًا بنفس اللهجة الحادة: هيا فليس لدي وقت.

صمت «خالد» في تفكير قبل أن يقول في بطء: اتصل بالمأذون.

***

أنهي المأذون اجراءات الطلاق، في حين ظلت هي غير مصدقة أن طلاقها قد تم، بدت الراحة على محياها الرقيق وهي تستوثق من المأذون حول كونه غير قادر على إعادتها إلى عصمته إلا بعقد جديد لأنه طلاق قائم على الإبراء، وقف «خالد» يتميز غيظًا وغضبًا وهو يسمع تنهيدة الراحة التي أطلقتها لأنه ما عاد بمقدوره مراجعتها، لم يستطع أن يملك نفسه وهو يرى عصفورته تفلت من أسره، قطع المسافة التى تفصله عنها

بقفزة واحدة، قبض على عنقها في قوة هاتفًا في قسوة: هل تظنين أنك بحصولك على الطلاق قد أفلتتِ من قبضتي، هل تظنين أن هناك من هو قادر على حمايتك مني.. إذا فكرتِ في الزواج مرةً أخرى فستجنين على نفسك وعلى المتعوس الذي اخترته، فقبل أن يجف حبر القسيمة سيكون دمه قد سال.. تذكري كلامي جيدًا وتذكري أنني لا أهدد وإنما أنفذ على الفور.

شحب وجهها،كادت تلفظ أنفاسها لولا أن جذبه عمه في قوة وهو يدفعه بعيدًا عنها صائحًا: ليس لك علاقة بها من الآن.. ولا تخطو بقدميك داخل هذا البيت مرةً أخرى.

وقفت تلتقط أنفاسها وهي ترقب نظرات «خالد» المتوعدة وعبارات التهديد التي قذف عمه بها قبل أن ينظر إليها قائلًا في لهجة جمدت الدم في عروقها: هل أنتِ راضية عما يحدث، لقد ضممته إلى قائمة ضحاياكِ.. قالها وهو يشير إلى عمه الذي هتف في غضب: هل تهددني يا كلب!!

قال في سخرية دون أن يزيح عينيه عن عينيها التي تجمدت في محجريهما: لقد أخبرتك من قبل يا عمى ولكنك تحمل ذاكرةً ضعيفةً.. أنا لا أهدد. ثم اتجه نحو الباب وهو يوجه كلامه لها: لا تظني أنكِ ستبتعدين عني كثيرًا، سأسافر لثلاثة أسابيع، فكري جيدًا، إما أن تعودي إليَّ بإرادتك، أو..... صمت لحظةً وهو يتابع قبل أن يغلق الباب: ثقي بأن الخيار الآخر لن يعجبك.

ظلت ترتجف بعد انصرافه وقد تحجرت عينيها على الباب، أفاقت على صوت عمه يهزها هاتفًا في قلق: هل أنتِ بخير يا ابنتي؟

أجابته في رعب: أرجوك ساعدني على السفر.. يجب أن أترك البيت وإلا سيؤذيك.

- «خالد» لا يمكن أن يؤذيني، لقد ربيته بعد وفاة أبيه، إنه بمثابة ابن لي، هو فقط غاضب، إنه يحبك للغاية، وربما جنونه بكِ هو ما جعله يتصرف بهذا الشكل.. وعمومًا من الغد سأجعل المحامي يعد لك أوراق سفرك.

تمنت لو صدقت ما قاله وآمنت أنه لن يؤذيه، وإن كانت في أعماقها تدرك جيدًا أن الرجل سيدفع ثمن ثقته بابن أخيه غاليًا.

***

فرك «عاصم» كفيه في توتر، أخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، تطلع إلى باب مكتبه الذي وقفت «جيهان» على عتبته في لهفة، همست في عتاب: لقد جرحتها جرحًا كبيرًا..ستحتاج لبعض الوقت حتى تهدأ.. وتخبرنا بقصتها كاملةً حتى نتمكن من مساعدتها.

شعر داخله بالندم يمزقه، إنها المرة الأولى التي يندم فيها على شيء فعله، كان دائمًا يخطو خطواته بدقة، يزن أقواله وأفعاله جيدًا، لم يكن يعرف ما معنى الندم، لم يذق هذا الشعور المؤلم من قبل، إنه شعور يمزق الروح ويحرق الأعصاب ويجعل مذاق الوقت مرًّا، إنه إدراك الحقيقة ورؤية الصورة كاملةً ولكن متأخرًا، كان عليه أن يطبق الحكمة القائلة «أن تتأكد خير من أن تتأسف».

***

جلست قبالة «جيهان» التى استقر عاصم بجوارها.. وافقت على مضض حرجًا منها، لم تكن ترغب في رؤيته، أوالحديث معه، داخلها ينزف، آلمها كثيرًا أن يكون أول من طعنها، جرحها أن يكون هو أول من خذلها وتخلى عنها، فشعور الخذلان لا تحس به إلا ممن علقت عليهم آمالك ووضعت فيهم ثقتك، ترددت كثيرًا قبل أن تقص عليهما حكايتها ولكنها تحت إلحاح «جيهان» الصامت بدأت تحكي كل ما حدث معها منذ التقت بـ «خالد» في حفل خطبتها حتى ختمت كلامها بالحادث المفاجئ الذي قُتل فيه عمه «عبدالحكيم»، وسرقة محتويات خزينة فيلته وقت وجودها بالمقابر، تلك الخزينة التي كانت تحوي كل أوراقها، أيقنت وقتها أنه لن يتركها، وأنه قد بدأ محاصرتها، حارت كيف تهرب من بطشه ونفوذه الذي يمتد كأذرع أخطبوط ليحيط بها كفريسة وحيدة بلا أهل أو مال أو أوراق، ولكن يكفيها أن الله هو ربها ويكفيها أنه من التجأ إليه فهو في حمايته، ومن توكل عليه كفاه، ومن توجه إليه بصدق فهو في معيته، وهكذا ساق الله لها عم «سليمان» ليكون سبب نجاتها، وليحميها الله بهذا الرجل الضعيف العجوز من بطش جبار مثل «خالد»، أو لعله صلاح والدها والخير الذي حرص عليه طيلة عمره حفظ الله له به ابنته، انتهت من روايتها دون أن يقاطعها أحدهما، تمنى لو احتواها بين ذراعيه وخفف عنها بعض ما وجدته وما زاده هو بتهوره، ولكن «جيهان» احتوتها بدلاً عنه، همس في خفوت: أنا آسف.

رفعت إليه عينين دامعتين، أدمتا قلبه، فتابع في أسف حقيقى: سامحيني.. لقد أسأت إليك رغمًا عني.

لم تجبه ولكن السيل المنهمر من عينيها أخبره كم أجرم بحقها، وكم أدمى قلبها، قبض بيده على مسند كرسيه ليمنع نفسه من تصرف آخر أكثر حماقة.

قالت في ألم: لا داعي للأسف.. أنا مجرد مربية سأذهب وتأتي غيرى.

هتف فى حدة: لا تتفوهي بهذه الترهات.. لو كنتِ هكذا بالنسبة إلينا لما جلسنا هنا، دعينا من هذا الآن يجب أن نعمل على إبقاءك بعيدًا عنه.. حتى لا يلقى بك في السجن بتهمة باطلة.

- ما عاد يعنيني..وعلى أية حال «خالد» لن يلقى بي في السجن قط، فكل ما يريده هو أن يجدني وساعتها لن يكون أمامي سوى الرجوع إليه أو دخول السجن، صمتت لحظةً وهي تردف في سخرية مريرة: وأنا واثقة أنه سيترك لي الاختيار فهو رجل ديمقراطي.

قال فى عزم: لن أسلمك له قط.

تمتمت في مرارة: لقد فعلتها من قبل.. فما الذي يمنعك من تكرارها؟

أدمت رجولته بكلماتها وهي تشير إلى طرده لها خارج قصره دون أن يتبين حقيقة الموقف ولكنه استعاد نفسه في سرعة وهو يقول في صرامة: أنا لا أكرر أخطائي.

همست فى حزن: عليَّ أن أستعد للرحيل.. أعتقد أن «خالدًا» سيكون هنا في غضون أيام وربما أقل.. سأقضى الساعات الباقية مع «سيليا» إن أذنت لي.

هتفت «جيهان» في دهشة: كيف سيصل إليك هنا؟!

ضرب جبهته بيده هاتفًا: رأفت.

رددت «جيهان» الاسم في دهشة فتابع: لا ريب أنه سيتصل بالشرطة.. لن يترك فرصةً كهذه تمر، خاصةً بعدما رآني أحاول إعادتها للقصر.

***

علا رنين الهاتف في قصر «عاصم»، امتدت يده في سرعة تلتقط سماعته ليأتيه صوت «حمدي» على الجانب الآخر وهو يشرح له في لهفة كل ما توصل إليه من معلومات عن «خالد» وعن القضية، وما أخبره به زميله الضابط بأن هذه إحدى وسائل «خالد» في إخراج السمك من المياه كما يحلو له القول دائمًا، وأنه يشعر بالأسف على تلك السيدة فلن تجد حجرًا تختبئ تحته، فالجميع يعلم كم أن «خالدًا» عديم الرحمة ولا ينجو أحد من قبضته، ولا يستطيع أحد مواجهته، فهو مسنود على حد قوله، والكل يحرص على كسب وده واتقاء شره.. أنهى مكالمته مع «حمدي»، غرق في تفكير عميق، لقد عرضها لخطر كبير بتهوره، إنها المرة الأولى التي يقدم فيها على فعل أحمق كهذا، لقد أعماه حبه وغضبه فتحرك كثور في حلبة مصارعة يرقص رقصته الأخيرة،راح يفكر فى سبل حمايتها.. هل يعرض عليها الزواج الآن فتكون في عصمته وتحت حمايته، تراجع عن الأمر فهي سترفض حتمًا، فلديها كرامة وعزة نفس تكفي مدينةً كاملة، ولن تقبل أن تتزوجه وهي متهمة بتهمة بشعة كهذه، خاصةً بعد ما صدق هذا الاتهام كغرٍ ساذج، أيضًا يثق بأن «رأفت» لن يفلت فرصةً كهذه من يده لإلحاق الضرر به.. أي أنها مسألة وقت حتى يجد «خالدًا» يبحث عنها فى قصره، انتفض عند هذا الخاطر، سارع بالصعود إلى حجرة «جيهان» حيث تجلس كلتاهما.

***

أخذت «جيهان» تتفرس في وجه «ياسمين» التي أطرقت بوجهها أرضًا، قالت في بطء: في كل الأحوال لا يمكنك الرحيل، ليس لأنه لا يوجد لديك مكان آخر يمكنك الذهاب إليه.. وليس لأن هنا أكثر أمانًا لكِ.. وليس من أجل «سيليا» التي تعلمين جيدًا كم هي متعلقة بك، ولكن من أجل أن تمنحي «عاصم» الفرصة ليكفر عن خطئه بحقك ويبسط عليك حمايته ويساعدك لتتخطي أزمتك.

فتحت فمها لتعترض ولكن «جيهان» أسكتتها بإشارة من يدها وهي تتابع في جدية: هذا حقك وأقل ما يمكن أن يقدمه لكِ مقابل ما قدمته لابنته.

- لم أفعل شيئًا يستحق ولا يمكنني البقاء.. لا أحد مثلي يعلم ما الذي قد يفعله «خالد»، لا أريد أن أسبب لكم الأذى ولا أرغب أن يتعرض وجود «سيليا» للخطر بسببي و..

قاطعها صوت عاصم الذي وقف على عتبة الباب المفتوح قائلًا في قوة: أنا قادر على حماية ابنتي وحمايتك.

تطلعت إليه لحظات في أمل قبل أن تعود لتطرق برأسها في أسىٍ، تابع كلامه وهو يخطو داخل الغرفة في هيبة: ستصحبين «سيليا» معكِ إلى الإسكندرية وسترافقكما «جيهان» إن كان هذا ممكنًا؟ قالها وهو يتوجه بالسؤال إلى «جيهان» التي أومأت برأسها دلالة الموافقة.

عاد يقول في حزم: حسنًا احزموا حقائبكم فسترحلون من هنا الآن، أعتقد أن «خالدًا» سيكون هنا خلال ساعة أو ساعتين على الأكثر ما إن يُبِلغ «رأفت» عن وجودك هنا.

تطلعت إليه في قلق، فتابع: أمامكم عشر دقائق من الآن..هيا أسرعوا.

***

لم تمض عدة دقائق حتي نزلت «جيهان» تتبعها «ياسمين»، وقف في البهو يتأمل كل أحبته يتهيؤون ليغادروا قصره، تركزت عيناه على محياها الرقيق الذي خط الانكسار علاماته عليه، أوصى «جيهان » بالعناية بهم، طمأنته في جدية بينما تعلقت الصغيرة بعنقه قائلةً: أريدك معنا بابا.

احتواها في حب وهو يربت على ظهرها ويستنشق رائحتها هامسًا: سألحق بكِ قريبًا حبيبتي، وسنلعب معًا على الشاطئ.

تحرك وهو لايزال محتضنًا ابنته ليقف أمامها، كانت مبعثرة الحال، ممزقةً من الداخل، بدت كأميرة تهدمت قلاع كرامتها، وتبعثرت حصون عزتها.

همس في خفوت: اعتني بنفسك جيدًا.

أطرقت لحظة في تأثر ثم انصرفت دون أن ترد عليه، شعر بالأسى وهو يتابعهم ينصرفون، تحمل كل منهن جزءًا من روحه، حياته فارغة بدونهن كشجرة عارية فى الخريف تتساقط أوراقها عنها، بينما تقف عاجزة عن التشبث بأوراقها وحمايتها من السقوط.

***

احتل «حمدي» مقعد القيادة يسترجع كلمات «عاصم» المقتضبة بضرورة إرسال ابنته و«ياسمين» إلى الإسكندرية فلا يمكنه أن يأتمن غيره على إيصالهم سالمين.

انطلق بالسيارة تاركًا «عاصم» خلفه يحتوي السيارة بعينيه، جلست

«جيهان» بجواره في المقدمة بينما غاصت «ياسمين » و«سيليا» في المقعد الخلفي حتى يبدو للناظر من بعيد أن السيارة خالية، انطلقت السيارة تنهب الارض نهبًا نحو الإسكندرية.

استدعي «عاصم» عم «سليمان» أولاً وشرح له الموقف ثم استدعى الجميع وشدد علي ضرورة الإجابة بشيء واحد فقط إذا سُئل أحدهم عن «ياسمين»؟ أنه قد تم طردها، شرح لهم بإيجاز أن زوجها الضابط يحاول إيذاءها وتلفيق التهم لها ويسعي لإلقاء القبض عليها حتي يجبرها علي العودة له.

***

ظلت «إيمان» جالسةً أمام النيل في شرود، عقلها يرفض الأمر برمته، فلا يمكنها أن تهدم بيتًا وتتسبب في حرمان أطفال من أبيهم، كمُعلمة ترى بوضوح أثر البيوت المتهدمة على نفسية الأطفال وتكوين شخصياتهم، ظلت تتذكر كلمات «فكري» التي رددها على مسامعها عن كونها لا علاقة لها ببيته المتصدع منذ زمن، وكيف كان سيتزوج من امرأة أخرى لولا عناية الله، وأنه لأول مرة يجد امرأةً تمتلك عقله قبل قلبه، وأن امرأةً مثلها ستساعده على العناية بأولاده حقًّا، وأنه يثق في حسن اختياره هذه المرة، ولن يظلم زوجته الأولى فستأخذ كافة حقوقها، ظلت تقلب الأمر على كافة وجوهه، الموضوع مرفوض برمته من جهة عقلها، ولكنه من جهة قلبها محل نظر، هي تميل إليه حقًّا، فهو رجل بكل ما تحمله الكلمة من معان، سيرته العطرة في الحي تخطف قلبها، مواقفه الرائعة مع سكان حيه تنبئ عن شخصيته الطيبة، حرصه على زيارة أهله ومساعدة أهل الحي الذين نشأ بينهم رغم ثرائه

تكشف عن معدنه الأصيل، إنه يختلف عن كل من عرفتهم في حياتها، هو رجل مر على أرض قلبها الجدباء فأحياها، أشرقت أنوثتها تحت ظل رجولته، توهج قلبها بشمس حبه.. ولكن عقلها يأبى أن يرضى بشيء كهذا، طال الصراع بين عقلها وقلبها بينما وقفت هى عاجزة عن حسمه.

***

مضت عدة ساعات قبل أن يرتفع رنين هاتفه لتطمئنه «جيهان» علي سلامة الوصول، طلب منها عدم الاتصال ثانيةً وأخبرها أنه سيتولى الاتصال بهم، أغلق الهاتف متمتمًا بكلمات الحمد، روحه تهفو إلى الاسكندرية التي تضم الآن كل أحبته.. روحه اللاهثة خلف طيف حبيبته الغائبة تتهاوى من فرط الألم لفراقها على هذا النحو.

أخرجه من تفكيره صوت «حنفي» يخبره أن هناك من يسأل على «ياسمين» على البوابة الخارجية.

ألقى ببصره من نافذة مكتبه ليرى «خالدًا» الذي بدا من وقفته المتلهفة وعينيه اللتين تفحصان المكان كذئب مفترس يستعد لاقتناص ضحيته أنه لم يحصل على الجواب الذي يريد من «سليمان» الذي وقف يشير للطريق إشارات مبهمة، وإن بدت عفويةً والرجل يحرص على إظهار ضعف بصره.. نظرات «خالد» المحبطة أخبرته أن «سليمان» أجاد تمثيل دوره وضلله.

لم تمض دقائق حتي كان يجلس أمام «عاصم» الذي تفحصه في دقة قبل أن يرسم علي شفتيه ابتسامةً مصطنعةً وهو يقدم نفسه: أنا المقدم «خالد شداد».

قال «عاصم» في لهجة عملية: مرحبًا.. ماذا تريد؟

أجابه وهو يتفحص الغرفة بعينيه: لقد كشفت تحرياتنا عن وجود المجرمة الهاربة «ياسمين المغربي» هنا في قصرك.. فأين هي؟

- صاحبة الشبكة؟ لقد قمت بطردها اليوم حالما قرأت الخبر في الجريدة.

هتف في لهفة لم تخف على «عاصم»: أليس لديك أية فكرة إلى أين ذهبت؟

- لقد طردتها على الفور، بالتأكيد لن أسألها بعد طردها إلى أين تنوي الذهاب كما أن امرأةً خطيرةً مثلها لن تعدم وسيلة، ولكني أعتقد الآن أنها أكثر خطورةً مما ظننت.

- ماذا تعني؟

أجابه في مكر: أنت برتبة مقدم وتأتي بنفسك لإلقاء القبض عليها وبدون عساكر أو قوة أمنية مرافقة.

أجابه «خالد» في ثبات: لم أشأ أن تدخل القوة الأمنية إلى قصرك احترامًا لك، فأنت لم تكن تعرف على أية حال أنها امرأة خطيرة.

- يبدو أنك تعرفها جيدًا.

- لقد سجنتها من قبل.. أرجو أن تخبرنى إذا وصلتك أي معلومة عنها.. قالها وهو يمد يده بالكارت الخاص به.

التقطه من يده، ألقى عليه نظرةً سريعةً قبل أن يضعه على مكتبه قائلاً في لهجة أقرب إلى البرود: مع السلامة.

شعر «خالد» بالضيق وهو ينصرف.. ها هو يعود خاليَ الوفاض مرةً

أخرى، ها هي زهرته تفلت من بين يديه بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من العثور عليها، لن يكف حتى يجد ياسمينته، زهرته التي كلما اشتدت عليها الظروف زادت عودها اللين قوةً وصلابة.. ولكنه سيعثر عليها حتمًا فهو أيضًا صياد ماهر.

الفصل الرابع عشر

وقف «عاصم» خلف نافذة مكتبه يتابع «خالدًا» الذي توقف أمام شجرة الياسمين في شوق وامتدت يده يقطف إحدى أزهارها قبل أن يغادر حديقة القصر في سرعة.. ضرب بقبضته سطح النافذة، كان غاضبًا من نفسه لأنه سقط في فخ حقير كهذا وكاد يلقي بها لوغد مثله.. كاد يلقي بزهرة نقية مثلها تحت حذاء أسود ملوث، تأمل شجرة الياسمين التي قطف أحد أزهارها، بدت زهور الياسمين البيضاء نجوم لامعة متناثرة فوق الأغصان الخضراء، الزهور الساقطة أرضًا تحيط بالشجرة كأنما هى انعكاس للصورة الموجودة بالأعلى، تابع بعينيه إحدى الأزهار التي ما عادت تجد قوة للتشبث بغصنها والاستمرار في مكانها لتلقي بنفسها على الأرض، يبدو حالها كحال ياسمينته ولكنه لن يسمح لها بالسقوط سيتشبث بها بقوة، لن يفرط بها بعد الآن أبدًا مهما حدث ولو دفع حياته فداءً لها.

***

طرق «خالد» باب مكتب «رأفت» بعد أن أذنت له السكرتيرة بالدخول، دخل في ثقة بينما أخذ «رأفت» يتفحصه بعينيه حتي استقر به المقام في الكرسي المواجه له قائلًا في لهجة عملية: لقد تلقينا البلاغ عن المجرمة

الهاربة ياسمين المغربي من مكتبك.

قال «رأفت» في ضيق: لقد أبلغت عن مجرمة، المفترض أن يتم شكري وليس تعطيلي، والحضور للتحقيق معي وكأنما أنا متهم، كمن ينقذ مصابًا ملقًى على قارعة الطريق، يتم التحقيق معه وربما تم سجنه في النهاية، لقد جعلتم الناس يكرهون التعاون معكم.

- لمَ كل هذا يا فندم.. كل ما في الأمر أننا ذهبنا لإلقاء القبض عليها فلم نجدها، ففكرت أن أسمع منك، فأي معلومة مهما كانت تافهةً في نظر سعادتك يمكن أن تكون مفتاح القضية.

- ليس لدى معلومات وليس لدي الوقت للحديث بشأن قضية لا تخصني.

قال «خالد» بصبر مصطنع: آسف لإزعاجك.. ولكن أليس لديك أي فكرة إلى أين يمكنها الذهاب؟

طفح الكيل بـ «رأفت» الذي وقف معلنًا انتهاء المقابلة وهو يقول في سخط: أنا لا أعرف الساقطات ولا أعرف إلى أين يمكن أن تذهب ساقطة مثلها.. الذي يمكنه أن يفيدك هو «عاصم»، فهي كانت تعمل لديه وهو من كان يحاول إعادتها؟

ردد «خالد» في تفكير: إعادتها؟! لقد أخبرني أنه طردها.

أجابه «رأفت» بنفاد صبر: لقد طردها وكان يحاول إعادتها.. لا أعرف ولكن يبدو أنها مهمة بالنسبة إليه.. قالها وهو يشير إلى الباب في عجرفة قاطعًا عليه الطريق أمام أي استفسار آخر: المقابلة انتهت، لدي الكثير من العمل.

جز «خالد» على أسنانه وهو يبتسم ابتسامةً مصطنعةً ويهز رأسه شاكرًا، خرج من المكتب وفى داخله يتوعد «رأفت» لأنه طرده من مكتبه ونعتها بالساقطة.

***

جلس «خالد» إلى مكتبه، أمسك بورقة بيضاء راح يخط عليها بعض الدوائر المتقاطعة، كتب فيها عدة أسماء، توسطها اسمى «عاصم» و«ياسمين»، أخذ يتطلع الي الورقة مفكرًا، تُرى ما الذي قد يربط بينها وبين «عاصم».. لمَ يطردها ثم يحاول إعادتها؟ ولمَ لم يخبره بأنه قد لحق بها؟ ظل يفكر للحظات قبل أن يرفع سماعة الهاتف المجاور له، انتظر حتى سمع صوت محدثه فقال في لهجة آمرة: أريد كل المعلومات عن «عاصم أكرم» في خلال ساعتين.

تراجع فى مقعده، شبك كفيه أمام وجهه فى تفكير وسؤال واحد يتردد فى عقله، كيف سيجعل سمكته تخرج من المياه هذه المرة؟

طال تفكيره قبل أن تبرق عيناه وهو يضغط زر مكتبه مستدعيًا العسكري الواقف على الباب طالبًا منه إحضار متهمًا بعينه من الحجز.

لم تمض لحظات حتي دفع العسكرى رجلًا فى أوائل الثلاثينات من عمره إلى داخل الغرفة فى غلظة، أشار «خالد» إلى العسكري بالخروج وأشار إلى المتهم بالجلوس، جلس الرجل في تردد، باغته «خالد» بسؤاله: هل تريد الخروج من قضيتك؟

أجابه الرجل في لهفة: بالطبع!

ابتسم «خالد» في ظفر: إذن ستنفذ كل ما أطلبه منك وأنا سأرسلك إلى النيابة بدليل براءتك.

قالها وابتسامة شيطانية ترتسم على شفتيه.

***

غادر «عاصم» مبنى الشركة، توقف أمام هاتفٍ عمومي، سارع يطلب رقم شقته بالإسكندرية التي تضم كل أحبته بين جنباتها، وقف ينتظر على أحر من الجمر.. لكن أحدًا لم يجبه، ملأ التوتر داخله، وتعاظم القلق في نفسه وهو يعيد الكرة للمرة الثالثة، تحركت «ياسمين» مرغمة لتجيب على الهاتف تحت إلحاح المتصل، واستجابة لرغبة «جيهان» التي دخلت لتوها تستحم بعد عودتهم من الخارج، رفعت سماعة الهاتف كأنما ترفع جبلًا وهي تلقى السلام على سامعها بصوتها العذب، اخترقت تنهيدة حارقة أذنها تلاها صوته يقول في لهفة: كيف حالك؟

اكتسى صوتها بصرامة قاسية وهي تجيب: الحمد لله.. ابتعد صوتها وهي تنادي على «جيهان» التي خرجت تجفف شعرها بمنشفة متسائلة عن هوية المتصل، أجابتها وهي تغادر الردهة: عاصم بك.

رفعت جيهان السماعة في حين دخلت هي إلى غرفة «سيليا»، ابتعدت «جيهان» بالهاتف حتى لا تتطاير كلماتها فتصل إليها، أخذت تسأله عن سر الحزن البادي في صوته، ولكنه لم يجبها وإنما قال مغيرًا دفة الحديث: كيف حال قطتي الصغيرة؟

ابتسمت «جيهان» حال ذكر تلك الفتاة الصغيرة التي تشع مرحًا وانطلاقًا وتنثر البهجة حولها بكلماتها العربية المتكسرة وخفة ظلها وبراءتها وفطرتها

النقية، أجابته في اقتضاب: لقد أعجبتها الإسكندرية للغاية.. اطمئن إنها تقضي وقتًا ممتعًا.. هل تحدثت مع «ياسمين»؟

- بدت كمن مسه صاعقة كهربية، وتركت الهاتف على الفور.

- هي فقط بحاجة لبعض الوقت تداوي فيه جراح كرامتها، فقد عز عليها ألا تثق بها وأن تصدق أنها قد تكون بهذه الأخلاق، وهذا يعني الكثير، يمكنك الحضور بعد غد وقضاء بعض الوقت معنا.

وعدها بالحضور وهو يُغلق سماعة الهاتف، ثم أسرع يطلب عدة أرقام وهمية متتالية قبل أن يترك الهاتف وينقد صاحبه أجره.

***

جلست «ياسمين» في الشرفة المطلة على البحر، تملأ رئتيها بهواء البحر المشبع باليود، كم تعشق الإسكندرية بكل تفاصيلها، الكورنيش المزدحم بالناس وباعة الفول والترمس والجيلاتي وبائعي البالونات الملونة المتجولين على رصيف الكورنيش، والتاكسي الأصفر الخاص بالمدينة الساحرة، إنها مسقط رأس والدتها، هنا نشأت أمها وترعرعت حتى وصلت إلى سن السادسة عشرة وانتقلت مع أسرتها إلى القاهرة وهناك تزوجت أباها، ولكنها ظلت تحرص على الحضور إلى الإسكندرية كل صيف تروي ظمأها للمدينة الجميلة، وتلقن أبناءها عشق عروس البحر، لطالما أحضرتها أمها إلى محطة الرمل، تتجولان في شوارعها العامرة، وتأكلان الفشار والأيس كريم وتقتني لها بعض الكتب من أرصفتها، كان أكثر ما أسعدها لدى حضورها إلى هذه الشقة هو موقعها فهي تطل على البحر مباشرةً وفى أقرب أماكن الإسكندرية إلى قلبها، في محطة الرمل، لا تنكر

أنها قد استعادت الكثير من صفاء نفسها وكأنما عادت إليها روحها، شعرت كأنما عادت طفلةً صغيرةً تلهو بيد والدتها، تملكها الحنين وهي تراقب المنطقة من الأعلى، قررت أن تجعل «سيليا» تحصل على بعض الذكريات الجميلة التي تضمهما وحدهما، لقد تعبت «جيهان» من مرافقتها للصغيرة وحدها بالأمس وتحتاج لأن تحصل على قسط من الراحة، وعليها أن تودع تلك العائلة الرائعة التي احتوتها.. بأن تحصل على أفضل الذكريات مع صغيرتها البريئة، عليها أن تقتنص تلك اللحظات قبل أن تواجه مصيرها المحتوم.

***

راح «علاء» يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، تأملته والدته في صمت لحظات قبل أن تسأله عما يشغله

أجابها كأنما يحمل عبء السنين على كتفيه: لقد رحلت، ولا أعلم إلى أين؟

قالت في حكمة: هي لا تصلح لك يا ولدي وأنت لا تصلح لها.

التفت لها قائلًا في دهشة: لمَ؟ إنها المرأة الوحيدة التي تفتح لها قلبي.. إنها النموذج الذي ظللت أحلم به طيلة عمري.

- لقد عرفت من «أم أحمد» والناس هناك الكثير يا ولدي، أنها امرأة مطلقة، وزوجها يسعى خلفها بكل طاقته، ولا قبل لنا بمواجهته.

- سأحميها بحياتي، ستصبح زوجتي وسأكون مسؤولًا عنها، وسأتحدى العالم من أجلها.

قالت في حنان: أعلم أنك رجل يا ولدي ويمكنك حماية مدينة بأسرها،

ولكني أريد أن أفرح بك مع امرأة لم يسبق لها الزواج، امرأة تحبك وتحبها.. أما «ياسمين» فمسكينة لا مكان في قلبها للحب.

- عندما أساعدها في حل مشاكلها ستجد مكانًا للحب.

- لن يمكنك الارتباط بها، ولن أسمح لك بهذا.. صمتت لحظةً قبل أن تقول في حسم: هي ليست لك فـ«عاصم» يحبها.

حدق في وجهها بذهول قائلًا: من أين علمتِ بهذا؟

أجابته في حنكة: إنه ولدي الذي لم أنجبه، علمت من نظراته لها وضيقه الغير مبرر من حديثك معها.. إنه أكثر من أخ لك يا ولدي، ولا يمكننا أن ننسى فضله علينا.. لذا لا تنظر إلى امرأة هو يريدها، وتناسبه أكثر مما تناسبك، أريدك أن تنعم بحياتك يا ولدي ولابد للحب أن يكون متبادلًا فالحب من طرف واحد تعاسة.

ألقى ببصره في شرود نحو حوض زهوره المهجنة، إنها تشبه حبه الهجين، إنه حب نبت بلا أصل قوي، لا يدري متى أحبها، ولكنه وجدها فجأةً تحتل عالمه وتملأ تفكيره، تسعده تلك الكلمات القليلة التي تبادلاها كلما تذكرها، يسعده خيال ابتسامتها التي لم يرها إلا مرات نادرة، سيكون عليه الآن أن يقوم بالمهمة الأكثر مشقةً في الحياة، سيكون عليه الآن أن يقتل هذا الحب، فما أتعسه من قاتل، يقتل زهرًا وليدًا نبت في أعماق قلبه، وعليه الآن أن يودعه قبره.

***

بذلت جهدًا كبيرًا في التخفي فارتدت نظارةً شمسيةً تخفي نصف وجهها، وجعلت حجابها يتكفل بإخفاء جبهتها وجانبي وجهها، ساعدها

هذا التخفي على الاستمتاع باليوم، والانطلاق مع الصغيرة، تجولتا معًا على الكورنيش وتناولتا الترمس والفشار وختمت معها بالأيس كريم، واشترت لها بعض الكتب التي تنوعت بين القصص الصغيرة وقاموس مترجم للغة الألمانية، وبعض اللعب كما أحضرت لها هديةً خاصةً بها لتظل كذكرى للصغيرة تذكِّرها بها وبهذه الأيام الجميلة، حرصت على التقاط بعض الصور لـ «سيليا» في أماكن متعددة لتساعدها على صناعة ذكريات لها داخل بلدها، انطلقت الصغيرة لتستحم بمساعدة «ياسمين» التي صارت أقرب الناس إليها، إنها أقرب إليها حتى من والدتها التي لا توجد لها في ذاكرتها سوى بعض الذكريات القليلة التي تتلخص في الشجار والصراخ وتحطيم الأشياء بالمنزل وبعض الصور التي ضمتها وهي طفلة بعمر العامين بأمها المشرقة الجميلة التي تنير ابتسامتها وجهها يحيط بها والدها بذراعه القوى ويظلل عليهما بهيبة رجولية لا تليق إلا بأبيها، تحاول أن تختزن تلك الصورة لأمها دائمًا لتمحو بها الصورة التي تفتحت عليها عيناها، صورة المرأة المحطمة المنهارة على الدوام، تقارن بين حنو «جيهان» عليها ورفقها بها وبين صرامة جدتها الألمانية وذلك البغض الذي كانت تلمحه في نظراتها نحوها أحيانًا، كثيرًا ما كانت تنعتها بأقذع الصفات إذا ما أخطأت ولا تكف عن تهديدها بإرسالها إلى والدها ليقتلها كما قتل أمها، كانت تعيش في حيرة شديدة بين صورته في ذهنها قبل أن يفارقها، وبين الصورة التي ترسمها له جدتها، كانت تتذكر كم كان حنونًا مرحًا يدللها كثيرًا، ويصحبها برفقته دائمًا، ولكنها صارت تخشاه كثيرًا وتخشى من لقائه من كثرة ما رددت جدتها على مسامعها أنه قتل أمها

وأن أباها مجرم وسيقتلها إن رآها، ولكن كل هذا اختفى حين رأته يضحي بحياته لإنقاذها، ويُغدق عليها بحنانه وعطفه، أدركت أن جدتها كانت كاذبةً بشأنه، وتمسكت بالبقاء معه، ستفعل كل ما بوسعها كي تجعله فخورًا بها، لن تعود إلى ألمانيا أبدًا، إنها تحب عائلتها الجديدة هنا، تحب «جيهان» فهي جدة حنونة للغاية وقد أخبرتها أنها ستحب عمتها «سارة» كثيرًا حتى صارت متشوقة لرؤيتها، كما أخبرتها أن لها عم يدعى «آسر» يشبه أباها إلى حد بعيد، وأنها ستحبه كثيرًا أيضًا وسيأتي في وقت قريب للترحيب بها، كما أخبرتها عن عمتها «فريدة» وأولادها وكيف أن لديها ابنة في مثل عمرها وأنهما ستكونان صديقتين يومًا ما، صارت تنتظر هذا اليوم الذي تلتقي فيه عائلتها بأكملها، إن للعائلة دفءَ وسحر خاص لا يعرفه إلا من عاش وحيدًا بلا عائلة، وحُرم من دفئها.

***

جلست «جيهان» في الشرفة تتأمل البحر، لديها مشكلة ولا يمكنها الاتصال بـ «عاصم»، يجب أن تنتظر اتصاله القادم.. عليها الذهاب للقاهرة فى الغد فابنتها «فريدة» بحاجة إليها،لا يمكنها أن تتركها بمفردها كما لايمكنها السماح لها بكشف أمر وجودها بالاسكندرية، ولا يمكنها أن تترك المكان هنا أيضًا قبل حضوره، يمكنها أن تسافر في الفجر وتعود في المساء، ولكن يجب أن تخبره أولًا، أخرجها من تفكيرها صوت «ياسمين» الهامس وهى تضع أمامها بعضًا من الكيك والشاي، منحتها ابتسامةً شاكرةً وهي تتناول فنجان الشاي قائلةً: كيف حالك اليوم؟

أجابتها في راحة: كيف لا أكون بخير وأنا في الإسكندرية!

- أتحبين المدينة إلى هذا الحد؟

أجابت في حنين: أنا من عشاقها.. قضيت فيها أجمل أيام حياتي.

باغتتها بسؤالها: لمَ رفضت الحديث مع «عاصم»؟ ألا زلت غاضبةً؟

- ليس لي الحق في أن أغضب منه.. أنا مجرد مربية لابنته.

- لو كنتِ كذلك لما كنا جالسين هنا الآن.. ولكن لمَ أنتِ غاضبة إلى هذا الحد؟ فـ «عاصم» لم يتهمك بشيء.. زوجك السابق هو من فعل!

أجابتها في غضب: ولكنه صدق هذا الكلام الحقير..

- أي شخص مكانه كان سيصدق هذا أو على الأقل سيساوره الشك.. هو لا يعرفك منذ فترة طويلة على أية حال، وغضبه له ما يبرره، فلقد ائتمنك على ابنته وبيته، ولقد قدم اعتذاره مراتٍ عدة، وهو الآن يعمل على حمايتك وتأمينك بدليل أنه أرسلني وابنته معكِ كي لا تكوني هنا بمفردك، ألا ترين أنه يخاطر بابنته في موقف كهذا.. كل هذا لا يُعد كافيًا بالنسبة لك؟

حارت في البحث عن جواب تقدمه لنفسها قبل أن تمنحه لها.

***

طبعت «جيهان» على جبين «سيليا» قبلةً حانية، وقفت تتأمل الصغيرة النائمة، يعلم الله كم ارتبطت بتلك الطفلة الجميلة التي ملكت عليها قلبها، لقد أبكتها بالأمس عندما أخبرتها أن جدتها الألمانية كانت قاسيةً للغاية معها وأنها سعيدة لأنها حصلت على جدة حنونة مثلها، شعرت بالألم لأجلها ولكنَّ عزاءها أن الله عوضها بـ «ياسمين»، فهي تحب الصغيرة بصدق وتعاملها بلطف بالغ وتعتني بها أكثر من أم، لذا ترى أن «عاصمًا» قد أحسن اختيار زوجة المستقبل، فهي امرأة صالحة، صبورة حنونة، ذات أصل طيب، إنها

الزوجة التي يمكنها أن تداوي جراحه وتمسح آلامه، وهي الأم المناسبة لابنته اليتيمة، إنها واثقة أن «ياسمين» تُكِّن لـ «عاصم» بعض المشاعر الخاصة رغم أنها امرأة كتومة للغاية، لا تعطيك إلا ما تريدك أن تعرفه، ولكنها عاقلة أيضًا، أي أن غضبها الشديد منه لم يكن عقلها خلفه، بل كان قلبها الجريح خلف هذا الحزن، تثق أن عقلها الراجح كان سيصل بها إلى تفهم الموقف وتقدير انزعاج رب عملها من أمرٍ كهذا إذا كان شخصًا عاديًا بالنسبة لها، خاصةً أنها تقوم بتربية ابنته الوحيدة، ولكن الخذلان الذي ملأ قلبها والجرح الذي سببه لها منبعه مشاعر خاصة سكنت قلبها، يمكنها تمييز ذلك جيدًا، لم تشعر بالاستياء لأن «ياسمين» تخفي عنها أمرًا كهذا، فهي تخفيه أيضًا عن نفسها، ولكنها واثقة أنها ستتمكن يومًا ما من البوح بما في داخلها، عندما تنعم بالحرية ستتحرر مشاعرها.

***

مضت ثلاث ساعات منذ انصراف «جيهان» لم تتحرك فيها «ياسمين» من الشرفة، تحدق إلى البحر أمامها في صمت، لطالما عشقت البحر، يغمرها بالسكون، تستعيد صفاءها الداخلي أمام أمواجه المتكسرة على الرمال.. غرقت بعينيها في أمواجه تغسل نفسها بمياهه، تتذكر نفسها على شاطئه طفلةً بين يدي أبيها، لم تكن تحمل للدنيا همًّا، البسمة لا تفارق شفاهها، والضحكة تتراقص في عينيها، لا تكف عن المزاح، ولا تمل من الكلام، أما الآن فها هي على شاطئه وحيدة، حزينة، تحمل على كتفيها هموم الدنيا، تشعر بثقل الحياة، تتمنى لو كان أخوها أو أحد أخوالها بجانبها الآن لتلقي برأسها على كتف أحدهم وتحتمي به من الخطر المحدق بها، أخرجها رنين

الهاتف من شرودها، قفزت كالملسوعة تنظر إلى الهاتف في توتر وعشرات التخمينات تدور في ذهنها حول هوية المتصل، حسمت قرارها وهي ترفع سماعته حتى لا يوقظ الصغيرة، أتاها صوته العميق القوي يهز جنبات نفسها: كيف حالك الآن؟ «ياسمين» أجيبيني.

حدقت إلى السماعة في دهشة، كيف عرف أنها هي دون أن تتفوه بكلمة، همست في جمود لا يتناسب مع دهشتها: «سيليا» نائمة، هل أوقظها لك؟

قال بصوت معذب: أنا آسف.. سامحيني لم أتصرف بشكل متهور كهذا من قبل طيلة حياتي.. لقد تصرفت كمجنون ولكني لم أقصد إيذاءك قط.

قالت في حزن: أنا أعمل لديك، وأي شخص آخر في مكانك كان سيتصرف هكذا، وهذا حقك فلا يمكنك السماح ببقاء امرأة مثلي في منزلك.

أحنقه أن تساويه بأي شخص آخر، آلمته نغمة الحزن في صوتها، فقال في حدة مفاجئة: كفي عن هذا الكلام الفارغ، أنتِ لا تدركين شيئًا، سأصل إليكم بعد ساعتين، استعدى لنذهب سريعًا.

صمت لحظة قبل أن تشق تنهيدته الحارقة أسلاك الهاتف لترسل رعدةً على طول عمودها الفقري وهو يقول في شوق: افتقدتكم كثيراً.

ظلت تحدق في الهاتف بعد أن أغلق الخط، تهز كلماته الأخيرة أركانها، هل حقًّا سمعت منه هذه الكلمات؟ هل كان يشملها في صيغة الجمع هذه؟ عقلها لا يصدق أنه قد وجه لها هذه الكلمات منذ قليل، ولكن قلبها استقبلها وراح يفك شفرتها في سهولة ويسر.

***

راقبت عينان ماكرتان «عاصم» وهو يغادر كابينة الهاتف، وقف يتهيأ لعبور الطريق، انطلقت تلك السيارة لترتطم بـ «عاصم» تاركة إياه ملقى في وسط الطريق، وصاحبها ينطلق بها في سرعة مرددًا في جذل: «إصابة فقط»، بينما تردد في أذنيه صراخ سائق «عاصم» الذي أوقف نهر الطريق ليحمله بمساعدة بعض المارة وينطلق به نحو المستشفى وهو يتصل بـ «حمدي» من هاتف السيارة ليلحق به.

الفصل الخامس عشر

وقف «حمدي» يتأمل صديق عمره الذي رقد على سرير المستشفى، يعتصر الألم داخله، يبتهل إلى الله كي ينجيه، فـ «عاصم» ليس مجرد صديق له، بل هو أخ لم تنجبه أمه، هما أقارب من جهة والدته رحمها الله، كانا رفيقي دراسة، كان «عاصم» دائمًا هو سنده، يدافع عنه ويقف أمام الجميع لحمايته، يعلم كم عانى صديقه في حياته، ولكنه كان دائمًا النموذج للقوة والصلابة، حين سافر خارج البلاد، شعر «حمدي» بالوحدة، خشي أن ينساه صديقه هناك في غمرة الحياة الجديدة وضغوطاتها، ولكنه لم يفعل بل ظل يرسل إليه الخطابات والأموال أيضًا ليساعد بها أفرادًا من عائلته، حتى في محنته لم ينس أهله، كان بارًّا بأهل والدته بشدة رغم بساطة حالهم، لذا تصحبه دعواتهم طيلة الوقت، ويسعد «حمدي» كثيرًا حين يسمع دعواتهم له عندما يصلهم ببره وعطاياه، بعد عودته من ألمانيا وتأسيس شركاته، حرص على توظيف شباب عائلته داخلها وعلى رأسهم هو، سالت الدموع من عينيه وهو يتأمل وجه صديقه الشاحب، أكب على يديه يقبلها، بينما انشغل قلبه بالابتهال إلى الله ليخرجه سالمـًا مما هو فيه.. صحيح أن الأطباء طمأنوه بأنها كدمات ورضوض وجرح في الجبهة، وأنه سيبقى تحت الملاحظة لديهم حتى

يستعيد وعيه، ولكنه لن يطمئن حتى يفتح صديقه القوي عينيه ويسخر منه كعادته دائمًا.

***

هرولت «جيهان» و«سارة» داخل المستشفى في لهفة، الخوف والقلق يسيطران على مشاعرهما، صعدتا إلى حيث رقد في غرفته، أكبت عليه «جيهان» في لهفة، بينما حاصرت «سارة» «حمدي» بأسئلتها عن الحادث وكيفية حدوثه والآثار الناجمة عنه، أجابها بما يعرفه، قاطعتها «جيهان» وهي تطلب منه ضرورة السفر إلى الإسكندرية لإحضارهما بسرعة، أوصته بضرورة إخفاء ماحدث عنهما والذهاب بهما إلى المزرعة، وقفت «سارة» تتأمل أخيها في حنان، تهللت أساريرها حين بدأت جفونه تهتز، تأوه في ألم وهو يشعر بثقل في رأسه وأطرافه، خرج اسم «ياسمين» واسم ابنته خافتًا من بين شفتيه، أسرعت «جيهان» تطمئنه عليهما وتخبره بأنها قد أرسلت «حمدي» لإحضارهما، هدأ قليلًا وهو ينظر إليهما و«سارة» تربت على وجنته في حنان قائلةً: حمدًا لله على سلامتك.. كدت أموت من الرعب عندما أخبرتني ماما بما حدث لك.

ربت على كفها في إرهاق بينما خرجت «جيهان» متسللةً من الغرفة في حذر، وقفت في الرواق مترددة، لا تدري هل ما ستقدم عليه صحيح أم أنها ستدمر كل شيء.. تريد أن تخبر ابنها بما حدث لأخيه، تظن أن هذه لحظة مناسبة لتذيب جبال الجليد بينهما، تعتقد أنه قد حان الوقت لإنهاء عداوة سقاها جدهما ورعاها على مدار سنوات حتى أثمرت في قلبيهما دون أساس لها أو جذور، لا تريد أن يبقى كل منهما وحيدًا يصارع الدنيا

وحده، تريد لكل منهما يتكئ على أخيه، أليس الأخ هو سند أخيه، ألم يستجب الله عز وجل لسيدنا موسى فقال "**سنشد عضدك بأخيك**".. ترى أن الوقت قد حان ليشد كل منهما من أزر الآخر، ترى أن الوقت قد حان ليعرفا معنى الأخوة وليذوقا نعمةً حُرما منها بسبب كِبر جدهما وغروره، تعلم جيدًا أن رفضه لزواج ابنه من «أم عاصم» لم يكن سببه الطبقية وحدها، ربما كان هذا هو السبب المعلن، ولكنها وحدها تدرك السبب الحقيقي خلف كل هذا، كان غيرته على ابنه وشعوره بفقدان السيطرة عليه هو ما دفعه لكل هذا، فقد جعله حبه لزوجته أقوى وجعله مستقلاً وهذا ما لم يشأ الجد قط أن يحدث، لم يرد لابنه قط أن يخرج من عباءته، أراد أن يُحكم سيطرته على ابنه كما أحكم سيطرته على إخوته، ولكن هذا الزواج كان ضربةً قاتلةً له، فالزوجة من مركز اجتماعي بسيط، لم يكن هذا ليشكل فارقًا لو كان هو من اختارها لابنه، أما أن تتحرر إرادة ابنه فيختر لنفسه ويفلت من سيطرته، فهذا ما أثار غضبه وما زاد الطين بلةً هو تلك القوة التي لمحها في زوجة ابنه، والتي أدرك أن سيطرته على حياة ابنه ستنتهي نهائيًا، تلك القوة التي ورثها «عاصم» فيما بعد، «عاصم» الذي حمل الكثير من صفات جده الشكلية فجاء أقرب أحفاده شبهًا به ولكنه يختلف عنه في صفاته الشخصية فقد ورث حنان والدته وصلابتها وورث كرم أبيه وأخلاقه، وورث قوة جده وصرامته وحزمه، أما «آسر» فكان أكثر أبنائها شبهًا بأبيه، كان حانيًا مرهف الحس والمشاعر، طيب القلب ولكنه يحمل داخله قوة الجبال وثباتها، ولكن جده لوث فطرته وصب داخله جام كرهه لمن يظن أنهم السبب في فقدان سيطرته على ابنه، بل لقد ارتكب

الجريمة الأفظع، فملأ نفس ابنها البريء بالحقد على أخيه حين أوهمه أن أباه قد فضل أخاه عليه وتركه وإخوته من أجله، وأن «أم عاصم» هي السبب في موت أبيه وحرمانه منه مدى الحياة، لم تكن تعرف كل هذا فالجد كان يقضي أغلب الوقت مع حفيده، كانت تتركه معه حتى يخفف من وحدة عمها وحتى يكون عوضًا له عن ابنه الذي غيبه الموت، وعندما تفاقم الأمر حاولت عبثًا أن تخبر ابنها الحقيقة ولكن ابنها كان قد ترعرع على كراهية أخيه، كان يدمي قلبها ذلك الصراع الدائر بينهما، تعلم أن «عاصمًا» لم يسع لمعاداته قط، تعلم أنه يتجنب أي صدام بينهما لأجلها، وعليها الآن أن توقف هذا العبث، اتجهت في حسم نحو قسم الاستقبال بالمشفى لتنهى ما عقدت عليه العزم وهي تدعو الله أن يلهمها الصواب.

***

علا رنين هاتف مكتب «آسر»، التقط السماعة في آلية، أتاه صوت سكرتيرته على الهاتف تخبره أن والدته على الهاتف، أجاب في لهفة: أين أنتِ.. لقد مررت عليكِ في الصباح فلم أجدك أين كنتِ؟

أجابته في سرعة: أنا في المستشفى.. تعال بسرعة.

رد في قلق: مستشفى؟ لمَ؟ هل أنتِ بخير؟ هل «سارة» بخير؟

قالت كمن يلقي حملاً ثقيلاً على كتفيه: أخوك هو المصاب؟

رد في دهشة: أخي.. أخي من؟

أجابته في غضب: أخوك «عاصم».. هل لديك أخ غيره؟.. لقد صدمته سيارة، أنا في انتظارك، ثم أسرعت تلقي إليه باسم المستشفى وتغلق الخط دون أن تعطيه أي فرصة للمناقشة.

ظل لثوان يحدق في الهاتف، مشاعر عدة انتابته حين أخبرته أن «عاصمًا» في المستشفى.. لم يكن من بينها مشاعر التشفي قط، بل أدهشه أن مشاعر القلق كانت من بينها، لا يدري هل يكره «عاصمًا» حقًّا؟ لقد نشأ على فكرة واحدة مفادها أن والده فضَّل أخاه عليه، وأن أمه كانت السبب في حرمانه من أبيه حيًّا وميتًا، ربما الآن بعد زمن أدرك أن جده كان يبالغ كثيرًا في إلقاء اللوم على «عاصم» وأمه، ويدرك أيضًا أن «عاصمًا» قد عانى كثيرًا من ظلم جده.. ولكنه تربى على كراهيته لأخيه حتى صارت كمعتقد لديه، ومن المستحيل إعمال العقل في معتقدات لم تكتسبها عن طريق العقل.

***

استبد بها القلق حين تجاوزت عقارب الساعة الوقت الذي تستغرقه المسافة في وصوله إليهما، ألقت نظرةً علي الحقائب التي أعدتها فور انتهاء مكالمته لها، عادت تنقل بصرها إلى الصغيرة التي نامت على الأريكة بعد أن ملت من الانتظار في الشرفة ترقب السيارات في انتظار وصول أبيها.

اشتد قلقها حين طلبت منزل «جيهان» لتخبرها الخادمة أن لا أحد بالمنزل، لم تستطع منع نفسها من الاتصال بمكتبه لتسأل عنه ولكن السكرتيرة أجابتها في آلية بأنه غير موجود، وكذلك «حمدي».

كادت تفقد صوابها حين مرت ثلاث ساعات أخرى دون أن يصلها خبر من أحد.. حدسها ينبئها أن مكروهًا أصابه، لم يخطئ إحساسها بشأن حدث سيئ للمقربين منها من قبل، قبل وفاة أبيها بعدة أيام كانت تشعر بذلك، لحظة وفاته حدسها أنبأها بأن شيئًا سيئًا قد حدث له، والآن

تشعر بنفس الشعور، سيقتلها القلق الذي صار ملازمًا لها، لم تحتمل أعصابها أكثر من ذلك، فعاودت الاتصال بمكتبه، رفعت السكرتيرة السماعة لتجبها بنفس الآلية، سمعت في الخلفية صوت السائق الذي دخل المكتب لتوه، فقالت في لهفة: دعيني أكلم عم «عبد الرحيم» من فضلك..

ناولته السماعة وهي تغمز للسائق بعينيها وتكتم ضحكتها، أخبرها الرجل بعبارات وجيزة بما حدث وأنهى المكالمة باسم المستشفى وعنوانه، فأخذت الحقائب والصغيرة وغادرت المدينة الساحرة.

***

وصل إلى المستشفى بخطًى مترددة، تظاهر بالجمود أمام نظرات والدته المتفحصة وهو يسأل عما حدث في لهجة حاول أن يضفي عليها البرود، أجابته وهي تختبر أثر كلماتها على وجهه: لقد صدمته سيارة مسرعة وهو يعبر الطريق.

همس في هدوء: هل تحتاجون شيئًا الآن؟

أجابته في إصرار: أخوك بحاجة إليك، هل تظن أنني اتصلت بك لتدفع لنا تكاليف المستشفى مثلًا؟!!

وقف حائرًا لا يدري ماذا عليه أن يفعل فقال في تردد: ماذا تريدين مني؟

جذبته من يده وهي توقفه أمام غرفة «عاصم» قائلةً: أريد أن تقف بجوار أخيك.. أن يجدك بجواره في محنته. قالتها وهي تفتح الباب وتدفعه برفق للداخل.

فجأةً وجد نفسه داخل الغرفة، وقف يتأمل «عاصم» وقد أحاطت

الضمادات برأسه، تذكر جده على الفور وكيف أن «عاصم» يشبهه كثيراً، لثوانٍ دوت في رأسه كل العبارات السيئة التي رددها جده على مسامعه فعاد أدراجه في سرعة إلى الخارج كأنما رأى الشيطان وجهًا لوجه.

أدركت «جيهان» ما يعتمل في نفس ولدها فلحقت به وهي تقول في صرامة: أخوك بحاجة إليك فلا تتركه، أنت ابن «أكرم رستم» وهو كذلك ابن «أكرم رستم»، أولاد «أكرم» لا يتركون أحدًا في محنة دون أن يساعدوه، أنت لن تترك أخاك وحده.. لو راجعت كل تفاصيل حياتك لن تجد أن «عاصم» قد تسبب لك بأي أذى، دع عنك كل ما زرعه فيك جدك فلم يزرع فيك خيراً، وأخوك الآن بحاجة إليك أكثر من أي وقت مضى.

ثم تركته وعادت إلى غرفة «عاصم» وداخلها يحترق لعجزها عن إعادة ابنها لطريق الصواب.

***

دخلت إلى الغرفة غاضبة،، حاولت أن ترسم على ملامحها الهدوء، التقت عينيها بعيني «سارة» التي فهمت ما يعتمل في نفسها على الفور، فاندفعت إلى الخارج وهي تنادي أخيها في ذعر مفتعل قبل أن تعود أدراجها إلى الغرفة بسرعة البرق، مما جعله يندفع خلفها والقلق ينهش داخله،تطلع «عاصم» في دهشة إلى أخيه الذى اندفع داخل الغرفة فى لهفة قلقة، استعاد «آسر» جموده فى سرعة بالغة أمام نظرات أخيه المتساءلة، قال فى لهجة جامدة: حمدًا لله علي السلامة، ثم التفت لـ «جيهان» قبل أن ينصرف: إذا احتجتم شيء يمكنكم الاتصال بي.

هم بالخروج عندما سمع صوت «عاصم» ينادى باسمه في وهن،

التفت إليه دون أن يتحرك من مكانه، فقال «عاصم» في ضعف: شكرًا على الزيارة.

أسرع يغادر الغرفة دون أن يرد كأنما يهرب من شبح يطارده..

***

شبح السيدة المجهولة يطارده كلما أغمض عينيه، يشعر بأنه يعرفها جيدًا ولكنه عاجز عن تحديد هويتها، في كل مرة تقترب منه بثيابها البيضاء، يصيبه الذعر والرعب ويشعر بثقل شديد في أطرافه يجعله يعجز عن الحركة، وفى كل مرة يزداد ضغط أصابع السيدة حول عنقه، يشعر بابتسامتها المتشفية ولكنه لا يرى ملامحها، أخذ يفتش في عقله حول من تكون تلك السيدة الغامضة، هل تكون زهرة الياسمين خاصته، إنها تشبهها بشكلٍ ما ولكن شيئًا في عقله الباطن يخبره أنها ليست هي.. عندما يعثر على زهرته سيبحث أمر سيدة كوابيسه لاحقًا.

***

ساد الصمت لحظات بعد خروج «آسر» السريع من الغرفة، لم يقطعه إلا صوت «عاصم» الذي خرج على الرغم منه واهنًا وهو يطلب من «ساره» اصطحاب «جيهان» إلى المزرعة، ولكن طلبه قوبل برفضهما الشديد فعاد يقول في إصرار: «حمدي» سيأتي بعد قليل وسيبقى معي، هناك ما هو أهم من بقائكما بجواري.. أريد منكما الذهاب إلى المزرعة حيث سيتركهما «حمدي» هناك، وقد يكون زوجها السابق يراقب المزرعة ويذهب لإلقاء القبض عليها، فيجب أن يكون هناك أحد لمساعدتها وحماية «سيليا» في نفس الوقت.

قالت «جيهان» في تفكير: أنت محق سنذهب الآن وأنت انتبه لنفسك جيدًا.

هتفت «سارة »فى دهشة: لا أفهم شيئًا.. زوج من؟ ومن سيقبض على من؟

دفعتها «جيهان» أمامها وهي تقول: سأشرح لكِ كل شيء في الطريق.

تابعهما بعينيه وهو يستعيد كل ما حدث له، حاول أن يربط الأمور ببعضها ولكن عقله بدا مشوشًا مرهقًا فأغمض عينيه لتحتل صورة أخيه رأسه وهو يرى القلق في عينيه حين اندفع إلى غرفته.. لطالما أثرت في نفسه علاقته السيئة بأخيه، لم يكن أبدًا سببًا فيها، ولم يجد أبدًا سببًا لها، حتى شرحت له «جيهان» سبب معاداة إخوته له، حقًّا لم تكن تعنيه «فريدة» كثيراً، فـ «سارة» تكفيه، كما أن «فريدة» تذكره بـ«جده» في عنجهيته الفارغة، أما أكثر ما كان يؤلمه فهو أخوه.. كان كلما قرأ القرآن يقف دائمًا عند طلب سيدنا موسى حين طلب من الله الدعم والعون لآداء رسالته، لم يطلب مالاً ولا جاهًا ولا قوةً ولا جيشًا، بل طلب أخاه ليشد من أزره، لطالما تمنى أن تكون علاقته بأخيه طبيعية، ولكن يبدو أن بذرة الكراهية التي ألقاها «رستم باشا» في نفسه قد أثمرت.. لا يدري متى تموت تلك النبتة الشيطانية ويمكن اجتثاثها من الصدور.

***

وصلت «ياسمين» إلى القصر، استقبلها الجميع بالترحاب، أسرعت تصعد بالصغيرة إلى غرفتها وهي تطلب من «أحلام» البقاء بجوارها

ومساعدتها على الاستحمام وتغيير ثيابها، نزلت درجات السلم ركضًا وهي تطلب من «حنفي» في طريقها أن يعد الطعام لـ«سيليا».. جلست خلف عجلة القيادة في سيارة «عاصم»، توقفت على البوابة لتخبر «سليمان» بما حدث في عجالة، حاول أن يرافقها ولكنها رفضت معللةً عدم جواز ترك القصر بلا حراسة خاصة والصغيرة داخله، ثم أسرعت تستقبل الطريق وقلبها ينبض في عنف.

***

تطلع «عاصم» إلى تلك الطبيبة الشابة التي بدا على ملامحها الجدِّية وهي تفحص التقارير الخاصة به، بينما وقف الطبيب يفحصه في اهتمام، قبل أن يطمأنه بكلمات مهنية، في حين اقتربت منه الطبيبة وهي تقول في غموض: هل تظن أن حادث السيارة هذا كان حادثًا عاديًا؟

أجابها في شك: ماذا تعنين؟

هزت كتفيها في لامبالاة وهي تنصرف: عداوات رجال الأعمال كثيرة، وقد يدفع خصومهم الكثير للتخلص ممن يقف في طريقهم، والفاسدون كثر.

قال في حذر: عم تتحدث تلك الطبيبة؟

أجابه الطبيب في أسف وهو يتابعها حتى غابت خلف الباب الذي أغلقته خلفها: إنها طبيبة متميزة، أتنبأ لها بمستقبل باهر في هذا المجال، إنها عبقرية بحق ولكنها تهدر وقتها ونفسها، فهى منذ وفاة خطيبها بعد عقد قرانه عليها بأيام عقب إلقاء القبض عليه وبحوزته بعض المواد المخدرة، وانتحاره داخل محبسه، وهي ترفض تصديق الأمر برمته، وتظن أن هناك

من دس له المخدرات وتصر على أنه قُتل ولم ينتحر.. مسكينة لا يمكنها تجاوز الصدمة حتى الآن.

شرد «عاصم» ببصره وهو يسأل الطبيب عن اسمها، وقد شغلت قصتها ذهنه إلى أبعد حد.

***

حادث سيارة.. ترددت تلك الكلمة في عقلها وهي تخطو داخل المستشفى في جزع، هل ستفقد كل من أحبتهم في حادث سيارة، هل ستفقد كل من حاولوا حمايتها بنفس الطريقة، هرولت داخل أروقة المستشفى تبحث عن غرفته، قلبها يكاد يخرج من بين أضلعها من رعبها عليه، وقفت تلتقط أنفاسها الهاربة أمام باب الغرفة التي تحتويه.

طرقت الباب في خفوت، مدت يدًا مترددةً تفتح الباب، دلفت إلى الداخل في هدوء، أدار رأسه ليراها واقفةً أمامه، لم يصدق عينيه، تهللت أساريره وهو يهتف باسمها في سعادة، خطت إلى داخل الغرفة في ارتباك، وقفت أمام فراشه قائلة: كيف حالك الآن؟

أجابها وهو يعتدل مشيرًا لها بالجلوس: كيف حالك أنت؟ أين «حمدي»؟

- لا أدري.. لم أره.

- كيف أتيتِ إذن؟

قالت في تردد: لقد أتيت فور علمي بما حدث لك، تركت «سيليا» في القصر وحضرت إلى هنا.

صاح في حدة: كيف تفعلين هذا؟ كيف تعرضين نفسك و«سيليا» للخطر؟

شعرت كمن تلقى طعنة في قلبه، كانت تظنه سيفرح لقدومها ولكنه بدلًا من ذلك يصيح في وجهها، لملمت كرامتها الجريحة وهي تنهض من مكانها قائلة: الحمد لله لقد اطمأننت عليك.. سأنصرف الآن.

أشار لها بالجلوس وهو يقول في إرهاق: اجلسي.. لم أقصد مضايقتك لم أستطع تخيل أنه كان من الممكن أن تتعرضا للخطر.

أقلقها صوته المرهق فقالت في توتر: هل أنت بخير؟

- أنا بخير للغاية لأنك هنا.. طالما أتيتِ فقد صفحت عني.

غرد قلبها فرحًا، همست في ارتباك: هل تناولت طعامك؟ هل أحضر لك شيئًا تشربه قبل أن أنصرف؟

- لن تنصرفي من هنا قبل أن يأتي «حمدي» فسيرافقك في طريق العودة.

- هل تظن عودتي إلى القصر أمرًا مناسبًا.. أعتقد أنه من الضروري أن أبحث عن مكان آخر، أخشى أن أجر عليكم المتاعب.

- سنفكر في هذا لاحقًا.. هل يمكنك أن تخمني من حضر لزيارتي في المستشفى اليوم؟

انقبضت عضلات وجهها وهي تسأله في حذر، ارتاحت قسماتها حين نطق باسم أخيه، فقالت في سرور: هذه الزيارة قد تكون البداية لعودة العلاقات بينكما.. ربما جاء الوقت ليرمي كل منكما حقيبة الذكريات السيئة خلف ظهره.

- وهل ألقيتِ أنتِ بحقيبة ذكرياتك السيئة أم لازلت تحملينها؟

أجابته في مرح: لقد ألقيتها منذ زمن، ولكنها لازالت تجرى خلفي.

ضحك وهو يقول: أنتِ أجمل مخلوقة عرفتها في حياتي.

أطرقت بوجهها أرضًا في حياء، فتابع دون أن يسحب كلماته هذه المرة: أخبريني لمَ لم تفكري في الزواج بعد أن تركتِ زوجك السابق؟

تنهدت فى ألم: صحيح أنني تركته ولكنه لن يتركني.. صمتت لحظة ثم تابعت: لا يمكنني أن أتسبب في موت أحد، يكفي من ماتوا بسببي حتى الآن.

- لم تتسببي في موت أحد، هو المجرم المسؤول عن كل هذا.

- لقد قتل خطيبي ليصل إليّ، وقتل عمه لأنه كان يحميني، ولا أستبعد أن حادث السيارة الذي مات فيه والدي كان مدبرًا.. وأنت أيضًا، لا أستبعد قط أن يكون هذا الحادث مدبرًا لك ولكنه فشل هذه المرة.. يجب أن أبتعد عنكم، لا أريد أن يمسكم سوء بسببي.

- أتخشين على حياتي؟

أطرقت برأسها أرضًا في حياء، لم يشأ أن يضغط عليها فتابع في هدوء: اطمئني.. لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، أتعرفين لقد التقيت بالعديد من البشر، لكني لم ألتق بامرأة مثلك، لديها كل هذه المشاكل ويحيط بها الخطر من كل جانب، ثم هي في النهاية قادرة على أن تضحك وتساعد من حولها وتكون مصدر بهجة وراحة لهم.

قالت في شرود: لقد عودني أبى رحمه الله أن أبحث عن المنحة في كل محنة تمر بي في حياتي.. كان دائمًا يجلسني في حجره أنا وأخي يوم الجمعة، ويقرأ معنا سورة الكهف ويقص علينا قصة سيدنا موسى عليه السلام والخضر وكيف أن هناك أمورًا قد تبدو في ظاهرها شرًّا ولكنها

تحوى في داخلها الخير الكثير..، كان يعلمنا إن الله أحن على عباده من الأم بولدها، وأن أي قضاء ينزل علينا فلنتذكر إنه قضاء من حبيبنا، والحبيب لا يقضي على من يحبه بالشر، وأن التجارب القاسية هي لإخراج أفضل ما فينا، كل ما علينا أن نستقبلها بشكل صحيح وأن نبحث عن المنحة في المحنة، وقتها سنشعر بالرضا ونحن نكتشف آثار رحمة الله بنا في كل أمورنا، لذا أرى أن ما حدث هو خير لي، خاصةً أنني لم أرض بالظلم ولم أقف في صف الظالم.

اعتدل وهو يميل نحوها قائلًا في لهجة خاصة: أنتِ محقة، لقد تقابلنا.

غرقت في خجلها، حارت كيف تهرب من عينيه المسلطتان عليها، تطلق نحوها سهامها، لم ينقذها من قذائف عينيه إلا طرقات «حمدي» المرحة علي باب الغرفة، تبعها صوته وهو يقول: أنا أذهب إلى الإسكندرية وأنتِ هنا؟

قالت في حرج: أنا آسفة، لم أكن أعرف.

هتف كملك يجلس على عرشه: عفونا عنك.. ثم اتجه نحو «عاصم» وهو يربت على كتفه قائلًا: كيف حالك بدوني؟

أجابه «عاصم» بمرح مماثل:في أحسن حال.. هيا قم بتوصيل «ياسمين» إلى المنزل.

صاح في استنكار: لقد ذهبت إلى الإسكندرية «صد رد» كما يقولون ولم أسترح لحظةً واحدةً والأسوأ أنني لم أتناول أي طعام حتى الآن..

سآكل أولاً ثم نتحدث لاحقًا، لقد طلبت طعامًا من مطعم قريب سيصل خلال دقائق.

قال «عاصم»: حسنًا لتأكل «ياسمين» معنا.. إن لم تأكل فأنت أيضًا لن تأكل.

صاح «حمدي» في توسل: أرجوكِ سأفقد وعيي ولن تجدى من يَقِلُّك إلى المنزل.

ضحكت في رقة وهي تهز رأسها دلالة الموافقة، همت بقول شيء لولا أن قاطعتها طرقات على الباب، قفز «حمدي» ليفتح الباب هاتفًا في تقدير: أرسل تحياتي لمدير المطعم إنه رجل ملتزم بمواعيده.

جلس «حمدي» أمام الطعام وعيناه تبرقان في سعادة وهو يقول في مرح: سأوزع عليكم الطعام..

ناول قطعة لحم صغيرة للغاية لـ«عاصم» قائلاً: بما أنك مريض وليس لديك شهية للطعام فيكفيك هذه.

ثم ناول قطعة أصغر لـ «ياسمين» وهو يتابع: بما أنك لست جائعةً وربما ستتناولين العشاء مع «سيليا» فتكفيك هذه.. وأنا بما أني أقود السيارة منذ الصباح، ولم أتناول شيئًا طيلة اليوم فيكفيني هذا.. قالها وهو يجذب مائدة الطعام بالكامل أمامه وينقض عليه.

ضحكا بينما انهمك في تناول الطعام حتى ربت بيده على بطنه فى سعادة جعلتها تضحك قائلة: من أكل كثيرًا نام كثيرًا.. نسأل الله السلامة.

قال «حمدي» في مرح: أنتِ تجيدين القيادة، ابقي مستيقظة، فإذا

نمت تولى القيادة مكاني.

زجره «عاصم»: «حمدي» انتبه للطريق جيدًا.

قال في مكر: لا تقلق فأنا أيضًا سأكون بداخل السيارة.. أم أنني لست مهمًّا!!

وقفت على مقربة منه وهي تفتح حقيبتها وتخرج منها مصحفًا صغيرًا أنيقًا، ناولته له قائلة: سيخفف من وطأة البقاء في المستشفى كثيرًا.

التقطه منها شاكرًا، تابعهما ببصره يغادران الغرفة و «حمدي» يطلب منه انتظاره ليهزمه فى لعبة الشطرنج

عاد ببصره إلى مصحفها، قَبّلَه فى إجلال، وضعه علي صدره وشعور بالرضا يملؤه.

***

تبعت «ياسمين» «حمدي» وهو ينزل سلالم المستشفى في سرعة، وقف أمام بوابة المستشفى الخارجية يسألها عن مكان سيارة «عاصم»، أشارت إلى شارع جانبي فقال وهو يشير إلى سيارته التي قبعت بجوار الرصيف المقابل وقد برزت مقدمتها في الشارع بشكل عشوائي يدل على عجلة صاحبها في مغادرتها: انتظريني هنا؛ سأصف سيارتي بشكل جيد، ثم سنذهب بسيارة «عاصم» حتى أتركها لكم هناك.

أومأت برأسها موافقة وهي تقول: سأحضر السيارة وأنتظرك هنا حتى ننطلق على الفور

قال في قلق: كلا انتظريني هنا.. لا تتحركي حتى أعود إليك.

هزت رأسها في طاعة وهي تقف مكانها تراقبه يعبر الطريق أمام عينيها، انزوت بجوار جزء بارز من السور الخارجي، موجة عارمة من القلق اجتاحتها لا تدري لها سببًا، تشعر بداخلها يرتجف، رفعت بصرها إلى الأعلى حيث غرفته، ترى هل هناك ما يسوء، تُرى هل قلقها متعلق به؟ جاءتها الإجابة بأسرع مما تتوقع وهي تسمع تكةً معدنيةً خافتةً بالقرب منها وجسم معدني بارد يحيط برسغها، بينما صوته يهمس بجوار أذنها بأبيات «نزار» الشعرية التي كرهتها:

وظننـــت أنـــك تعـــرفين   معنـــى ســـوار الياســـمين
يـــأتي بـــه رجـــل إليـــك   ظننـــت أنـــك تـــدركين

حدقت في وجه «خالد» الذي ظهر أمام وجهها فجأة كأنما برز من العدم، نقلت بصرها بين ابتسامته الباردة وبين تلك الأصفاد الحديدية التي أغلقها على معصمها وهو يقول في لهجة آمرة: سيري معي بهدوء، فأنتِ تعلمين ما الذي يمكنني فعله؟

تلفتت حولها بحثًا عن «حمدي» الذي وجدته محاطًا بمجموعة من الرجال يتهيؤون لافتعال شجار معه، دارت بعينيها تبحث عن مهرب ولكنه لم يمنحها الفرصة وهو يدفعها دفعًا نحو سيارته التي أوقفها على مقربة منها، زج بها داخل سيارته مغلقًا الباب خلفها في إحكام، دار حول السيارة ليحتل مقعد القيادة وهو يطلق صفيراً منغومًا وقد علت شفتيه تلك الابتسامة المقيتة، ألقت نظرةً قلقةً على «حمدي»، تتبع مسار عينيها قائلًا في تشفٍ: هل تبحثين عن ذلك المغفل الذي كان برفقتك؟ لاريب أنه مشغول بالشجار مع

أحدهم، وقد ينتهى به الأمر إلى أن يقضي ليلته في أحد أقسام الشرطة.

احتقن وجهها وهي ترى «حمدي» وسط مجموعة من بلطجية «خالد»، في حين تابع هو فى لهجة خاصة: لقد كلفني الوصول إليك الكثير.. ربما حياة «عاصم» قد تكون ثمنًا باهظًا، ولكنك تستحقين حبيبتي.

شهقت في ذعر وقد تأكدت ظنونها بشأن الحادث، فتابع في غضب: لم انزعجتِ هكذا، هل هناك شيء بينك وبينه؟

قالت في حدة لتخفي رعبها على «عاصم»: هل قتل روح أمر عادي، أتظن أن التخلص من الناس ودهسهم تحت عجلات السيارات هو شيء يستحق الفخر.

هتف في مرح مفاجئ وهو يرفع يده كمن يهتف لأحد الزعماء: بالروح بالدم نفديكِ يا زهرتي الغالية.

همست في مرارة: بأرواح الناس ودماؤهم.

- ليس مهم روح من؟ لكن يجب أن تبقى روحي حيةً لتمسك بروحك الهاربة حتى...

قاطعته فى غضب: إلى أين تأخذني؟

أجابها وهو يغنى: على عش الحب وطير يا حمام.. صمت لحظةً وهو يداعب وجنتها قائلًا: علي عشنا الجميل عصفورتي.

تطلعت إليه في ذعر، قفزت إلى ذهنها صورة تلك السلاسل والأغلال التي ظلت ترسف فيها لأشهرٍ عدة، فصاحت في رعب: ألن تأخذني للقسم؟

ضحك وهو يُقلد «سهير البابلي» في مسرحيتها الشهيرة «ريا وسكينة»: «أودى المـُدام عند الضابط» قالها وهو ينفجر ضاحكًا لفترة

طويلة قبل أن يتوقف فجأة قائلًا في صرامة مفاجئة: تريدين الذهاب للقسم؟!! أنا القسم بأكمله.

أطرقت برأسها وهي تنظر إلى يدها المغلولة بالأصفاد الحديدية، هاهى تعود للعذاب مرة أخرى، ها هى تعود لتتجرع وحدها مرارة لياليها المسجونة خلف قضبان الظلم والقهر.

***

وقفت «إيمان» تراقب العمال وهم ينتهون من وضع قطع الأثاث المدرسي في أحد فصول مدرستها الجديدة، تأملها «فكري» لحظات، لقد عانى كثيرًا الأيام الماضية، فلقد امتنعت تمامًا عن زيارة والدته وأغلقت كل الطرق إليها، إصرارها على حماية بيته وخوفها من معاناة الأطفال حال الانفصال جعله يوقن أنه قد وجد بغيته، هي امرأة حنونة، رقيقة، ذات خلق، والأهم أنها ذات قلب، قلب يحب الخير للجميع، قلب يعطى بسخاء، امرأة تفكر في غيرها أكثر مما تفكر في نفسها، اقترب منها هامسًا في خفوت: أهنئك.

انتفضت في ذعر، التفتت نحوه في حدة قائلةً: شكرًا لك سيد «فكري»، ولكن غير مسموح لك بالتواجد هنا.

قال في مكر: لمَ، فعلى حد علمي هي مدرسة لأهل الحي.. وأنا من أهل الحي.

هتفت في يأس: اسمعني جيدًا.. ما تطلبه مستحيل، ولا يمكنني أن أعيش على أنقاض أسرة، أطفالك بحاجة إليك.

قال في حب: أتعلمين كلما تحدثتِ هكذا كلما سقطت في غرامك

أكثر.. أعشق قلبك الكبير هذا، رغم أني أحسد نفسي لأنى أصبحت مالكه.

حدقت في وجهه بذهول لحظات قبل أن تنفض عن نفسها تلك الرجفة التي سرت على طول عمودها الفقري وهي تقول في حدة: لا تتجاوز حدك في الكلام.

قال في لهجة مسرحية: أنا أعتذر معلمتي، يمكنك معاقبتي كما تشائين ولكن عليكِ أن تسمعي من تلميذك أولاً حتى يمكنك عقابه بشكل صحيح، أليس هذا هو العدل؟ أعتقد أن مكتب المدير قد تم الانتهاء من وضع الأثاث به ويمكننا الانتظار هناك وشرح الأمر حتى نصل إلى قرار نهائي ريثما ينتهي عمالي من نقل كل قطع الأثاث.. قالها وهو يقودها إلى المكتب دون أن يمنحها الفرصة لتعترض، وقد قرر أن تكون تلك هي الجولة الأخيرة.

***

تنهدت في ألم وهي تشعر بأن الدنيا قد فقدت معناها، ها هي تعود بقدميها مع «خالد» إلى سجنه، تتذوق ثانيةً طعم الأيام المُرة التي عاشتها من قبل، كلمات «مطر» تشرح ما تشعر به، تتحدث بلسانها وتكشف عما يحترق بداخلها.. فتصبح الحياة في فمها مريرة كما يقول هو:

مُـرٌّ بدمــي طعْـمُ الدُّنيــا
مُـرٌّ بفَمــي حتّى السُّكّـرْ!
لَســتُ أرى إلَّا ما يُحــذَرْ.
عَيْنــايَ صــدى ما في نَفْســي
وبِنَفســي قَهْـرٌ لا يُقهَـرْ.
كيفَ أُحــرِّرُ ما في نفســي
وأنــا نفســي.. لم أتحَــرّرْ؟!

ابتسمت في مرارة وهي تتذكر تاريخها مع هذا الشاعر، أحبته لحب أبيها له، كان والدها يحرص على جمع أشعاره وقراءتها لهم، كان يعجبها أسلوبه الساخر وبساطة كلماته وعمقها، لكنها لم ترتبط به حقًا وتلتصق بأشعاره إلا بعد أن فقدت حريتها على يد «خالد» فأصبحت تجد في أشعاره متنفسها، وفى أحلامه فرصتها في الحرية التى شعرت حين فقدتها أنها ميتة على قيد الحياة، إنها مؤمنة تمامًا بما قاله «جان جاك روسو» أُفَضِّلُ الحريةَ المحفوفةَ بالمخاطرِ عن السلامِ المُكَبَلِ بالعبودية.. قررت أن تضع كلامه موضع التنفيذ، ففتحت باب السيارة المجاور وهي تلقي بنفسها خارجها، أعقبها صياح «خالد» وسبابه الذي أطلقه وهو يضغط مكابح سيارته في قوة جعلت صرير عجلاتها يدوى في أذنيها كفحيح عشرات الأفاعي،رأت بطرف عينها عجلات تلك السيارة القادمة من جهتها، استسلمت تمامًا وهي تستقبل نهايتها ممنيةً نفسها اللحاق بأبيها وأمها.

الفصل السادس عشر

فجأة هدأ كل شيء من حولها، توقف الصراخ، توقفت عجلات السيارة على بعد سنتيمترات من جسدها، شقت كلمات الحمد أفواه الواقفين، فتحت عينيها لتطالعها جمرتا «خالد» الغاضبتين وهما تطلقان الشرر نحوها، أطلق سبابًا خافتًا وهو يجذبها من ذراعها لتنهض، نهضت نافضةً يده في قوة وهي تهتف في حدة: دعني لن أعود إليك ولو على جثتي، ثم التفتت حولها لتوجه كلامها إلى الناس الذين تحلقوا حولهما: هذا الرجل يريد خطفي.. أرجوكم أرسلوني إلى قسم الشرطة، لا تجعلوه يخطفني أمام أعينكم.

تطلع الناس في شك إلى الأصفاد الحديدية التي تحيط بمعصميها في حين علا صوته ليرهب الواقفين وهو يقول بلهجة صارمة: أنا ضابط بالمباحث وهي مجرمة هاربة ومن يساعدها على الهرب الآن سألقى القبض عليه بتهمة عرقلة سير العدالة.

تراجع الواقفين في رهبة وقد نفثت لهجته الثقة في كلماته، تطلعت إلى الناس في يأس، حتى عاد الأمل إليها بكلمات ذلك الشاب الصغير المتشككة وهو يسأله: أين سيارة الشرطة؟ ولمَ يلقى القبض عليها وحده؟

وهل اعتاد أن يتجول بالأصفاد الحديدية؟!

تدخل أحد الرجال الواقفين، بدا على وجهه سيم الصلاح وهو يُعقِب على كلام الشاب، دون أن يمنح «خالدًا» الفرصة للكلام، تولى زمام الموقف قائلًا: لن تسمح لنا ضمائرنا بترك امرأة تعاني الخطر وحدها بينما ننصرف إلى بيوتنا آمنين، سنذهب إلى قسم الشرطة، فإن كانت صادقةً فقد أنقذناها ولم نسلمها إلى مجرم، وإن كانت مجرمةً فقد سلمناها بأيدينا إلى الشرطة ويمكنه استلامها من هناك.

أيده الواقفين وأحاط بعض الناس بهم وهم يتجهون نحو القسم جميعًا.. تنهدت في راحة، بينما راح داخله يحترق ليخرج لهيب النار مع زفراته الحانقة.

***

اقتادهم الناس إلى قسم قريب وسط سخط «خالد» وغضبه وثورته وهو يطلق التهديدات للجميع، أسرعت هي الي ضابط القسم تطلب منه السماح لها بإجراء مكالمة تليفونية، صاح «خالد» في قوة: لن تصلي إلى أحد، ثم التفت للضابط وهو يتابع في لهجة آمرة: أنا سأتولى التحقيق بنفسي.

هتف الضابط في غضب: هل أنت مجنون؟ من تظن نفسك؟ أرنى بطاقتك.

قال بنفاد صبر: أنا المقدم «خالد شداد».. أين مأمور القسم؟

شيء ما في لهجة «خالد» جعل الضابط يتراجع عن عصبيته وهو يقول فى تردد: أرني ما يثبت.

صاح «خالد» في قوة: انتباه يا حضرة الضابط.

علي الرغم منه ضم الضابط ركبتيه، وكاد أن يقف بوضع انتباه، لولا أنه خشي أن يكون نصابًا، فأشار للعسكري الواقف في الخلف ليصطحبه إلى مكتب المأمور، آمرًا إياه ألا يغفل عنه.

رمقه «خالد» بنظرة باردة متوعدة جعلت أوصاله ترتجف للحظة قبل أن ينفض عن نفسه ما به وهو يبادله النظر في تحدٍ، تابعته بعينيها حتى غاب خارج الحجرة وهي تلتفت للضابط متوسلةً أن يسمح لها بإجراء مكالمة هاتفية، أشار لها إشارةً مستاءة، أمسكت على إثرها بالهاتف لتطلب رقم القصر في سرعة وهي تبتهل إلى الله أن يجيبها أحدهم قبل أن يعود هو، بعد الرنة الثالثة أتاها صوت عم «حنفي» على الطرف الآخر، هتفت في لهفة: أنا في القسم.. أبلغ مدام «جيهان» بسرعة

ناول «حنفي» السماعة لـ «جيهان» التي كانت مارة بالقرب منه وهي تسأله عن هوية المتصل، أجابها بأن «ياسمين» في القسم، التقطت السماعة متسائلة فى ذعر عما حدث.

أجابتها في سرعة: لقد عثر «خالد» عليَّ، وأراد أن يذهب بي إلى بيته، ولكني استنجدت بالناس، فذهبوا بنا إلى قسم الشرطة وهو الآن لدى المأمور وأخشى أن يتركوني له.

قالت «جيهان» في توتر: في أي قسم أنتِ؟

جذبت يده سماعة الهاتف لتغلقها في عنف قبل أن تلقى إليها باسم القسم، رفعت عينيها إليه لترى تلك الابتسامة الظافرة ترتسم على شفتيه في حين علا صوت المأمور من خلفه وهو ينهر الضابط لتعطيله لـ «خالد»

عن أداء مهمته، حاول الضابط الدفاع عن نفسه ولكن المأمور انهال عليه باللوم والتقريع على قصر نظره وانعدام فراسته حتى يصدق متهمةً في قضية آداب ويُكذب ضابط شرطة.. أوقف «خالد» سيل اللوم الذي أغرق به المأمور ضابطه قائلًا في عنجهية: لا بأس إنه ضابط صغير يبدو حديث التخرج، لذا نعذره لأنه عديم الخبرة.

همهم الضابط بكلمات اعتذار مبهمة، وداخله يغلي لأنه سقط كغر ساذج في فخ امرأة ساقطة، جعلته يهين ضابط شرطة أعلى منه رتبة، يحمد الله أن الضابط بدا متسامحًا، ولم يطلب معاقبته، وإن عاودته شكوكه حين توسلت هي لهم أن ألا يتركوه يأخذها وأن يتولوا هم التحقيق معها، ولكن توسلاتها ذهبت أدراج الرياح والمأمور ينهرها ويطلب منها أن تكف عن الادعاءات الباطلة على ضباط الشرطة.

كفكفت دمعها وهي ترفع رأسها في إباء، بينما «خالد» يقتادها خارج القسم في تشفٍ: هل تظنين أنكِ قادرة على الهرب مني؟

قالت في مرارة: ماذا تريد مني؟

- أريد الكثير.

- ليس لدي ما أمنحه لك.

- لا تبخسي نفسك قدرها حبيبتي.

- إلى أين ستأخذني.. لقد أبلغت صديقة لي في اتصالي التليفوني بعنوان بيتك، وستبحث عني هناك.

هوى على وجهها بصفعة قوية أدمت شفتيها، وجعلت خصلات شعرها الأسود الناعم تنسل من تحت حجابها كأنما تعلن حمايتها لحرمة

وجهها، رفعت إليه أعين ملتهبة من الغضب وهي تهوي بالأصفاد المكبلة لكلتا يديها على جانب وجهه فتدميه قائلةً في قوة: لا أسمح لكلب مثلك أن يمد يده القذرة على وجهي.

تطاير الشرر من عينيه وهو ينطلق بالسيارة قائلًا في برود مفاجئ: تريدين الذهاب إلى القسم.. حسنًا، تذكري أن هذا هو اختيارك.

وانطلق بسيارته ينهب الأرض نهبًا نحو القسم، أوقف السيارة أمام باب القسم مباشرةً، دفعها أمامه في قسوة حتى مكتبه، وقف العسكري ينتظر أوامره، صاح فى غضب: ألقِ بها في الحجز..نصف ساعة فقط تأتي بعدها لتقبل قدميّ.. دع النساء في الحجز يتعاملن معها، النساء فقط.

تطلعت إليه في رعب هاتفةً: ماذا ستفعل؟

دفعها العسكري أمامه في غلظة، ألقى بها فى غرفة حجز ضيقة وهو يوجه كلامه لسيدةٍ بعينها : أمامك نصف الساعة لتجعليها لائقةً بتقبيل قدمي «البك».

تأملتها السيدة بنظرة متفحصة قبل أن تشير بيدها إلى ثلاث سيدات جلسن بجوارها، تحركت النساء الثلاثة فور إشارتها فأحطن بالوافدة الجديدة بما يُشبه نصف دائرة، تراجعت في رعب حتى التصقت بالباب وهن يقتربن منها بلا رحمة.

***

تطلعت «سارة» إلى «سيليا» في توتر وهي تسحب الترمومتر الزئبقي من أسفل ذراعها فى رفق، اتسعت عيناها في ذعر والمؤشر يشير إلى

ارتفاع حرارة الصغيرة إلى الأربعين، ركضت لتخبر «جيهان» بالأمر.. حدقت فيها والدتها التي لم تفق بعد من صدمة احتجاز «ياسمين» في قسم الشرطة، هرولت إلى غرفة الصغيرة، تطلعت إلى الطفلة التي راحت تهذى باسم «ياسمين»، طلبت من «أحلام» و«سارة» مساعدتها على الاستحمام، وإبقاءها تحت الماء لفترة مناسبة، ثم إعطاءها خافضًا للحرارة ريثما يأتي الطبيب، أطاعوها في سرعة في حين ترددت هي لحظات قبل أن تمسك بسماعة الهاتف في عزم، لتجري اتصالًا قد يدمر «عاصمًا» تمامًا أو يعيد الدماء المتفرقة لتجري في نفس العروق.

***

وقفت تستمع إلى رنين الهاتف في مكتب ابنها، التردد يسيطر عليها، همت بإغلاق الهاتف لولا أن أتاها صوت ابنها على الهاتف يسألها عن أحوالها، ترددت لحظة قبل أن تأمره بضرورة إحضار طبيب أطفال إلى مزرعة أخيه دون أن تخبره بأية تفاصيل.

لم يمض الكثير من الوقت حتي كان «آسر» يخترق الحديقة بسيارته برفقة الطبيب، قادته «جيهان» في صمت نحو غرفة الصغيرة، راح الطبيب يمارس عمله في سرعة، بينما وقف «آسر» يتساءل عن هوية الطفلة حتى هوى جواب والدته على رأسه كالصاعقة وهي تخبره أنها ابنة أخيه، حدق في وجهها لحظات قبل أن يردد في ذهول: ابنة أخي.. أخي من؟

هتفت في حدة: أخوك «عاصم».. هل سأظل أجيب دائمًا بنفس الإجابة؟!

نقل بصره من وجه والدته إلى الطفلة الصغيرة التي رقدت في إعياء والطبيب يوقع الكشف الطبي عليها، التقت عيناه بعينيها لحظةً لتمد له

يدها وهي تقول في ضعف وبلغة عربية متكسرة: أنت عمو «آسر»؟ أليس كذلك؟

أومأ برأسه إيجابًا بينما لازالت آثار المفاجأة بادية على وجهه، عاجلته الصغيرة بضربة سريعة وهي تتابع: أنا غاضبة منك عمو فأنت لم تأتِ لزيارتي منذ قدومي إلى هنا.. لقد اشتقت إليك كثيرًا.

اقترب من فراشها وهو يقف عاجزًا أمام كلماتها البريئة التي اخترقت قلبه على الفور، أخرجته الصغيرة من حيرته وانتشلته من عجزه عن الرد عليها حين همست في وهن: أعلم أنك أدركت خطأك الآن وأنك آسف عليه، لذا سامحتك.

مال نحوها وهو يقول في حنان: لم يخبرني أحد أنكِ قد أتيتِ.

تعلقت بعنقه قائلةً: إذن أنت لم تكن مخطئًا.. أنا أحبك كثيرًا عمو، وقد أخبرني أبي أنك ستحبني كثيرًا جدًا.

كان الطبيب قد أنهى عمله، أخذ يكتب الأدوية المطلوبة في روشتته، وقف لحظات حائرًا لمن يوجه تعليماته لولا أن أنقذته «جيهان» وهي تبتعد به لتسأله عن حال الصغيرة وصحتها، ألقى الطبيب نظرة على «آسر» الذي جلس أمام الصغيرة كالمسحور قبل أن يوجه حديثه إلى الطفلة قائلًا في مرح: هل يمكنك صغيرتي أن تطلبي من عمك أن يعيدني إلى حيث أحضرني؟

أجابته في سرعة: كلا بالطبع، كيف يتركني وأنا مريضة ويذهب معك وأنت سليم؟

ضحك الجميع والطبيب يجيب: وجهة نظر تُحترم.. حسنًا سأتدبر أمر عودتي.

حل «آسر» ذراعيها الصغيرتين من حول عنقه وهو يهمس في تردد: سأجلب لكِ الدواء.

جذبته من يده وهي تطبع قبلة على إحدى وجنتيه قائلةً: لا تتأخر حتى لا أموت.

هتف في سرعة: لا تقولي هذا سأعود سريعًا.

أمسكت والدته بذراعه قائلةً في تحذير: لا ينبغي أن يعلم أحد بأن «عاصم» لديه ابنة فهذا خطر عليها.

همس في دهشة: لمَ؟

أجابته في اقتضاب: عندما تعود سأخبرك.

***

غاب لساعة أو يزيد ظل الفضول خلالها ينهش داخله، آلاف التساؤلات تمرح في عقله، منذ متى كان لدى «عاصم» طفلة؟ ولمَ يخفي أمرها، وما الخطر على الصغيرة في إعلان وجودها؟ عاد على جناح السرعة، جلس بين يدي والدته لتفسر له الأمر برمته، طلبت منه أمه وعدًا بعدم إفشاء السر أو التصرف بأي شكل قد يضر أخاه، أعطاها كلمته التي تثق بها كثيرًا، فراحت تقص عليه كل ما حدث بالتفصيل، حتى توقفت عند ما حدث لـ «ياسمين»، شعر بالضيق من نفسه فقد استشاره «رأفت» في أمرها وهو من أشار عليه بإبلاغ الشرطة عنها، أحس بالذنب تجاهها، فقد تسبب في وقوعها بين يدى وغد مثله، خاصةً بعد ما فعلته مع «سيليا».. نهض من مكانه وقد قرر أن يصلح ما أفسده بجهله بحقيقة الوضع وعداوته الغير مبررة لأخيه، أوقفته «جيهان» متسائلةً عما ينوي فعله، أجابها في سرعة:

سأعرف أولًا أين «ياسمين».

هم برفع سماعة الهاتف ولكن رنينه الوليد أوقف يده لحظة، ناول الهاتف لوالدته التي استمعت للمتصل لحظات قبل أن تهتف: هل لديك أية معلومات عن «ياسمين»؟ أين كنت حين أمسك بها؟

أجابها «حمدى» فى سرعة: لقد صنع لي فخًا، وأدخلني في شجار مفتعل مع بلطجية وقفوا بجانب سيارتي التي ذهبت لإحضارها، ولكني أدركت الأمر سريعًا وتخلصت منهم، ورأيته وهو يصحبها في سيارته مقيدة بالأصفاد، تتبعتهما حتى رأيتها تلقي بنفسها من سيارته، واقتادهما الناس إلى قسم الشرطة، ثم خرجا وأخذها هو إلى القسم الذي يعمل به ولم تخرج حتى الآن.. ولقد اتصلت بعدة محامين وسندخل لإخراجها.

- أخشى أن يؤذيها داخل القسم، ادخل بأسرع ما يمكنك، قبل أن يفعل شيئًا.

أخبرها «حمدي» قبل أن ينهي المكالمة أنه سيفعل كل ما بوسعه لإخراجها، واتفقوا في النهاية على عدم إخبار «عاصم» بشيء حتى لا تسوء حالته.

***

راح «حمدي» ينقل بصره بين بوابة القسم الكبيرة وبين ساعته في قلق، حتى حضر المحامين، دخل برفقتهم إلى مكتب «خالد» الذي استقبلهم في برود وهو يستفسر عن سبب طلبهم مقابلته، أجابه أكبر المحامين سنًا في مهنية: نحن هنا بخصوص المتهمة «ياسمين المغربي».

قال في برود أشد: ليس لدينا متهمة بهذا الاسم.

صاح «حمدي» في حدة: هل تمزح، لقد رأيتك بنفسي تدخل بها القسم.. أين هي؟

ضرب «خالد» سطح مكتبه بقبضته في غضب وهو يقول في صرامة مرعبة: الزم حدك وإلا ألقيت بك في الحجز بتهمة الاعتداء على موظف أثناء تأدية وظيفته.

قال «حمدي» في إصرار: أنا واثق أنها هنا.. افتح الحجز لنرى.

أطلق «خالد» ضحكةً عالية، بترها بغتة وهو يقول: وهل ستقوم سيادتك بتفتيش القسم؟!!.. صمت لحظةً ثم تابع في لهجة مخيفة: انصرفوا من أمامي الآن وإلا ألقيت بكم جميعًا في الحجز.

فتح «حمدي» فمه ليعترض، ولكن المحامين أسكتوه وطالبوه بالانصراف وهم يخبرونه أنه ليس باستطاعتهم فعل شيء والمتهمة ليست موجودة في القسم ولا يوجد محضر من الأساس.

قال «حمدي» في اعتراض: ولكني متأكد أنها هنا.

لم يجبه أحدهم حتى أصبحوا خارج القسم فقال أحدهم في خفوت: يمكننا التقدم ببلاغ للنائب العام بتهمة احتجاز نساء دون محضرٍ رسمي.

قال الأكبر سنًا في تحذير: ولكن لو ثبت خطأ الادعاء فسيتم حبسك بتهمة البلاغ الكاذب وإزعاج السلطات.

رد آخر مؤيدًا: وهو بالتأكيد سيرتب نفسه، فمن الواضح أنه ليس سهلًا على الإطلاق.

رد ثالث: يبدو أنه لن يترك هذه السيدة أبدًا.

هتف «حمدي» في غضب: ما العمل إذن؟ هل سنتركها بين يديه؟

هزوا رؤوسهم في عجز وأحدهم يقول: نحن آسفون بحق ولكن دورنا يبدأ بعد المحضر وليس قبله.

تركوا «حمدي» يتحدث مع نفسه وهو يردد: هل سنتركها هكذا؟ من الممكن أن يؤذيها.. ماذا سنفعل؟

انفض المحامين من حوله، فأسرع إلى أول هاتف عمومي ليتصل بهم في المزرعة ويخبرهم بما حدث قبل أن يعود إلى مكانه ليظل مرابضًا أمام القسم.

***

ألقى «عاصم» نظرةً قلقةً على الساعة المعلقة أمامه على الحائط، لقد مضى الكثير من الوقت منذ ذهابهما، كان من المفترض أن يعود «حمدي» منذ ساعة على الأقل، حدسه ينبئه أن هناك شيء قد حدث، أرهقه عجزه وجسده المكدود في الفراش، امتدت يده تطلب الرقم الداخلي للمشفى ليجري اتصالًا بالمزرعة، صوت رنين الهاتف على الطرف الآخر بدا في أذنيه كصافرة إنذار، أوقفها «حنفي» وهو يجيب على الهاتف ملقيًا السلام على المتصل، فقال «عاصم» في لهفة: هل وصلت «ياسمين»؟

أجابه «حنفي» في تردد: الست «ياسمين» في القسم..لقد اتصلت بنا وطلبت نجدتنا و..

قاطعته «جيهان» التى رمته بنظرة عتاب وهى تلتقط سماعة الهاتف لتقول فى لهجة حاولت أن تبدو هادئة: «حمدي» أمام القسم يتابع كل شيء وقد اصطحب معه عددًا من كبار المحامين.. وسينجحون في إخراجها إن شاء الله.

قال في سخرية مريرة: محامين؟!! هذا لو اعترف أنها موجودة لديه من الأساس.

هتفت في قلق: أنت مريض دع هذا الأمر لـ «آسر».

صاح في حدة: آسر؟! ومن أخبره؟ كيف تفعلين هذا؟

أجابته في سرعة: «آسر» يسعى لمساعدتك حقًا.. صدقني إنه ليس بهذا السوء.

أنهى الاتصال في غضب دون أن يعلق على كلامها فهذا ما كان ينقصه.. استدعى الطبيب الذي أقبل مسرعًا، حين علم برغبته فى الخروج من المستشفى، ألقى الطبيب نظرة سريعة على وجهه الشاحب قبل أن يقول في مهنية: لا يمكنك المغادرة فلازلت بحاجة للبقاء تحت الملاحظة.

أحكم «عاصم» إغلاق بذلته وهو يقول في صرامة: أمامك خيارين، إما أن أكتب لك إقرار بأني قد خرجت علي مسؤوليتي، أو أخرج وأتركك تتحمل المسؤولية كاملة.

لم يملك الطبيب أمام إصراره سوى أن يطلب من الممرضة أن تجعله يوقع على الإقرار، في حين طلب منها «عاصم» أن تحل الضمادات التي تحيط برأسه لتضع بدلًا منها شريطًا طبيًّا لاصقًا صغيرًا يخفى جرح جبهته بينما قلبه ينزف فى ألم.

***

غادر المستشفى نحو مكتبه مباشرةً، أجرى اتصالًا هاتفيًا قصيرًا، جلس بعدها ليطلب رقمًا، انتظر حتي سمع صوت محدثه، قال في لهجة عملية: هل يمكنني التحدث إلى العقيد شوقي؟

سأله الخادم عن هوية المتصل في آلية، فأجابه في هدوء: مليونير يريد خدمة.

ساد الصمت لحظة، التقط «شوقي» السماعة وهو يقول في حذر: من المتحدث؟

- «عاصم أكرم» رئيس مجلس إدارة شركة «عاصم أكرم» للمقاولات، هل يمكنني مقابلتك لعدة دقائق، أريدك في أمر هام.. ما رأيك أن نلتقى بعد ربع الساعة من الآن؟

- أين؟

ألقى إليه بعنوان أحد أرقى الفنادق فى القاهرة وهو يغادر مكتبه على الفور.

***

جلس «خالد» لحظات يتأمل الأوراق التي أمامه، وقع على بعضها وهو يناولها للعسكري الواقف ينتظر أوامره في احترام، رفع رأسه قائلًا: ما الأخبار؟

قال العسكري في لهجة ذات مغزى: تستغيث منذ ما يقرب من ربع الساعة.

أشار إليه ليحضرها، غاب العسكري لدقائق ثم عاد يدفعها أمامه، بدت في حالةٍ مزرية، تمزقت أجزاء من ثيابها، تورم وجهها، وفقدت أحد أظفارها، وسقط عنها حجابها، بدا من الواضح أنها تشبثت به وربطته كيفما اتفق، وإن فقد سيطرته على بعض الخصلات الناعمة التي هربت منه، نظر إليها شامتًا وهو يأمر العسكري بالانصراف، نهض من خلف

مكتبه قائلًا فى لهجة مسرحية: حبيبتي ماذا حدث لكِ؟ ماذا فعل بكِ هؤلاء الوحوش؟

نظرت إليه في مقت، فتابع بنفس اللهجة المستفزة: إنها نصف ساعة فقط.. هل يمكنك احتمال البقاء بين أيديهم أكثر؟!!

عادت تنظر إليه في غل دون أن ترد، عيناها بدتا ككرتي لهب وهي تتابعه يجلس على سطح مكتبه كمراهقٍ يجلس على سور مدرسته قائلًا في حنان مصطنع: كلا بالطبع لايمكنني إلقاؤك بين أيديهم مرةً أخرى حبيبتي، ولكن يجب أن تثبتي لي أنكِ ندمتِ على ما فعلتِ وتقدمي إثبات حسن النية بأن توقعي على هذه الأوراق.

نقلت بصرها بين الأوراق وبينه في تساؤل فهتف في قلق مصطنع: هل قطعوا لسانك بالداخل حبيبتي؟ الوحوش!! سأحاسبهم على فعلتهم.

تطلعت إليه في سخرية قائلةً: ما هذه الأوراق؟

- عقد زواج وتنازل.

بدا على ملامحها عدم الفهم فقال وهو يقفز ليقف أمامها مباشرةً: لقد كان طلاقك مني بائنًا حسب إصرارك.. قالها وهو يهوي على وجهها بصفعة قاسية أدمت شفتيها وألقت بها مترين للخلف، تابع في غل: وستدفعين ثمن إصرارك هذا غاليًا.

سالت دموع القهر من عينيها وهي تتحسس الدماء التي سالت من شفتيها ترافق دماء كرامتها التي انتهكت بين جدران سجنه، فتابع في غلظة: ستوقعين على وثيقة زواجنا من جديد.

قالت في تحدٍ: لن أفعل ولو مزقتني إربًا.. أفضل الموت على العودة إلي مجنونٍ مثلك.

قال في برود: ليس من اللائق أن تخطئي في زوجك يا عروسة، وعلى كل حال أنا لا أطلب موافقتك فهي شيء لا قيمة له، فهنا أوامري تُنفذ بالكامل، تذكري أنك هنا في ملعبي، ولا تقلقي سيكون كل شيء قانونيًّا تمامًا، فأنا رجل القانون ولا يمكنني مخالفته أبدًا.

ألقت عليه نظرة ساخرة وهي تبتسم في مرارة قائلة: حقًا، أنت لا تخالف القانون، أنت تمتهن القانون.. صمتت لحظةً التقت عيناه بعينيها وقد برق العزم فيهما وهي تتابع في سخرية: لم تخبرني عن الورقة الثانية، أي تنازل؟ هل سأتنازل لك عن بقية حياتي.

- لا يمكنك التنازل عما لا تملكينه، فبقية حياتك ملكي أنا.. ستتنازلين عن الميراث.

- ليس لدي ميراث لأتنازل لك عنه.

- لا تقللي من قيمة نفسك حبيبتي، أنتِ تساوين وزنك ذهبًا، كل ما أريده هو أن توقعي بالتنازل عن الثروة التي جَعَلْتِ الرجل المسكين يكتبها لك في أواخر أيامه التي انتهت على يديك.

- أي رجل؟

- عمي.. عمي المغفل الذي كتب نصف ثروته باسمك، وتبرع بالنصف الثاني للجمعيات الخيرية.

- عمك كتب نصف ثروته باسمي؟!

قال في شك: ألم تكوني تعرفين؟

أطلقت ضحكةً عاليةً وهي تجيب في تشفٍ: بالطبع لا وهل كنت سأظل في مصر إن كنت أعلم.

ضاقت حدقتاه وهو يقول في غضب: أي أنني أنا من أخبرتك.

ضحكت قائلةً: ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، لو كنت زيفت توقيعي، أو استعملت إحدى طرقك القانونية الملتوية، لم أكن سأعرف أو أطالب به قط.

- لن أتعبك، كل ما أريده هو توكيل رسمي عام وأنا سأتولى الباقي.

- وإذا رفضت؟

قال في لهجة مسرحية: من حقك يا روحي، أنا رجل ديمقراطي، وحرية التعبير مكفولة للجميع.. صمت لحظة ثم اكتست لهجته بصرامة قاسية وهو يقول: ولكن يجب أن تعرفي أنني أترك كل فرد يتحمل نتيجة قرارته.

الفصل السابع عشر

جلس «عاصم» واضعًا ساقًا فوق الأخرى وهو يقول في لهجة عملية: سمعتك جيدة للغاية سيادة العقيد وهي ما تجعلك أنسب شخص لهذه المهمة.

قال «شوقي» في مكر: ومعلوماتي عنك أنك مثال لرجل الأعمال العصامي الذي بدأ من الصفر رغم الخلاف الذي بينك وبين أخوك «آسر رستم».

- هذا جيد، أنا أحب أن أتعامل مع من يفهمون عملهم جيدًا، وبالتأكيد أنت تعرف عنى أنني دائمًا عند كلمتي.

- هذا صحيح، ما المطلوب؟

- هناك شخص يزعجني وأنا لا أحب الإزعاج.

- مهمتي هي تخليص الناس مما يزعجهم.

قال «عاصم» في استهانة: لا تكن واثقًا حتى تعرف مصدر الإزعاج!

همس «شوقي» في ثقة: لا يوجد مصدر للإزعاج لا يمكنني التخلص منه.

مال نحوه قائلًا: حتى ذراعك الأيمن.. المقدم «خالد شداد»!!

اتسعت عينا «شوقي» في ذهول وهو يردد: «خالد»؟ ولكن هذا مستحيل

تراجع «عاصم» في مقعده وهو يقول في جدية: لا يوجد مستحيل مع خمسة ملايين جنيه، أعلم أنه ليس سهلاً عليك التخلص من ذراعك الأيمن، ولكن كما صنعته يمكنك صناعة غيره، وعليك أن تعرف أنه قد أصبح خطرًا عليك أنت نفسك، وأن غروره سيدمره ويدمرك معه، والدليل على كلامى..من يعلم غيره بقصة تلك البنت المدعوة «لامار»؟ التي كادت تموت حين أجهضها ابنك عنوة، والتي بسببها تم تلفيق تهمة للطبيب الذي أنقذ حياتها حتى لا يتكلم، ومن غيره يعلم أن ابنك مدمن مخدرات؟ كل تلك المعلومات التي أخبرتك بها والتي لم أخبرك بها بعد، هي حقائق لا يعلمها غيره، أليس كذلك؟

أدرك «عاصم» أنه أصاب هدفه بدقة حين امتقع وجه «شوقي»، وأطل الغدر واضحًا من عينيه وهو يستعيد نفسه قائلاً في شك: لم تريد التخلص من «خالد»؟

- لدى أسبابي.

- وما الذي يضمن لك أنني لن أتحد مع «خالد» ضدك؟

هز «عاصم» رأسه نفيًا وهو يقول: أنت أكثر ذكاءً من أن ترتكب حماقةً كهذه، فأنت تعلم جيدًا أن مثلي لن يكشف أوراقه بسهولة، وأن لدي من وسائل التأمين ما يجعلك أنت و «خالد» في عداد النسيان إذا أصابني مكروه، كما أنك لن تغامر بخسارة خمسة ملايين جنيه من أجل خائن مثله.

برقت عينا «شوقي» في جشع وهو يقول: موافق.

- نصف المبلغ سيكون لديك غدًا، والنصف الآخر بعد التنفيذ.. والآن أريد خدمةً صغيرة.

- خارج الخمسة ملايين؟

- كل شيء بثمنه، لقد احتجز «خالد» سيدةً لديه، تلك التي كانت زوجته، أريدها أن تخرج معي اليوم مع نشر خبر براءتها غدًا في الجرائد.

- لمَ؟

أجابه «عاصم» في لهجة عادية: رغم أني لا أحب الأسئلة الكثيرة، لكني سأخبرك، تلك السيدة لديها معلومات تهمني، لذا أريدها تحت تصرفي، وأريدها أن تعلم أن سلطتي تفوق سلطته حتى تثق فيَّ وتعطيني كل المعلومات التي أريدها دون أن أدفع مليمًا واحدًا.. قالها وهو يدفع نحوه بحقيبة جلدية صغيرة قائلًا: هذه الحقيبة تحوي خمسين ألفًا من الجنيهات ثمن خدمة اليوم.

تطلع «شوقي» إلي الحقيبة في جشع ثم قال: أنت داهية.

قال «عاصم» في سخرية: نحن تلاميذ أمامك يا.. يا باشا.

***

ترجل «عاصم» من سيارته التي وقفت أمام القسم، تبع «شوقي» في هدوء، وهو يشير بيده لـ «حمدي» إشارةً صامتةً أعادته إلى مكانه ليقف مراقبًا، بينما خطا هو إلى داخل القسم في ثقة، جلس في مكتب «خالد» الذي ألقى نظرةً ساخرةً على «عاصم» وهو يقول: يبدو أن الأمر يتعدى كونها مجرد موظفة لديك.

تجاهله «عاصم» وهو يوجه بصره إلى «شوقي» الذي قال في صرامة: أحضر المتهمة «ياسمين المغربي».

صاح «خالد» في شراسة: ليس لدي متهمة بهذا الاسم.

جلس «عاصم» باسترخاء على الكرسي المواجه لمكتب «خالد» قائلًا في برود: هذا الكلام الساذج يمكنك قوله لأى شخص إلا أستاذك.. ومن العيب أن يلعب التلميذ على أستاذه.

قال «شوقي» في صرامة: أحضر السيدة.

بدا «خالد» كنمر شرس يستعد لافتراس من يقترب من ضحيته وهو يقول بصوت كالفحيح: لن تخرج من هنا إلا على جثتي.

لم يجبه «شوقي» وهو يتجه نحو الباب ويأمر العسكري الواقف بالخارج بإحضارها..أسرع العسكري ينفذ الأمر، وما هي إلا لحظات حتي دخلت هي منهكةً ذابلةً وقد تورمت عيناها وتمزقت ثيابها، هتفت فى إصرار: لن أوقع مهما فعلت.

تطلع «شوقي» إلى «خالد» في تساؤل، في حين لم يلتفت لها مطلقًا بل ظل على جلسته المسترخية ظاهريًا وإن انقبضت أعماقه بشدة، استقرت عيناها علي ظهر «عاصم» في خوف، أخرجها منه صوت «شوقي» وهو يقول: نحن آسفون سيدة «ياسمين»، من الواضح أن هناك خطأً في الإجراءات، ثم التفت لـ «عاصم» وهو يتابع: أكرر أسفي يا «عاصم بك» يمكنك اصطحاب المدام، وغدًا ستجد خبر براءتها منشورًا في الجرائد.

نهض «عاصم» من كرسيه في ظفر، وهو يوجه شكره لـ «شوقي» بينما ألقى نظرةً متحديةً على «خالد» الذي وقف يتميز غيظًا، تطلعت هي

إليه في لهفة، كادت تهتف باسمه وتلقي بنفسها بين ذراعيه، لولا أن أمسك بمرفقها وهو يقودها للخارج قائلًا بلهجة رسمية: تفضلي مدام «ياسمين».

سارت أمامه حتي وصلا إلي خارج القسم تنهد في راحة وهو ينظر إليها، علا الغضب ملامحه وظلل عينيه وهو يقول: المجرم، سأجعله يدفع ثمن ما فعله بك غاليًا.

تطلعت إليه في حب وهي تقول في لهفة: لمَ خرجت من المستشفى.. قد تتأثر صحتك بهذا؟

أجابها في سرعة: هل ظننتِ أنني قد أتركك بين أيدي هؤلاء الوحوش بمفردك، هيا «حمدي» بانتظارنا.

سارت أمامه خطوات، ثم توقفت لحظةً فقال فى قلق: ماذا هناك؟

همست في ألم: ذراعي يؤلمني وقدمي لا يمكنني السير عليها بسرعة.

تطلع الي قدمها المتورمة في غضب، انحنى يريد حملها ولكنها تراجعت في حرج وهي تقول: يمكنني السير ولكن ليس بسرعة.

ظهر حمدي أمامهما وهو يحمد الله على خروجهما سالمين، قبل أن يسرع لتنفيذ أمر «عاصم» بإحضار سيارته، ساعدها على ركوب السيارة وهو يركب بجوار «حمدي» الذي احتل مقعد السائق والفضول ينهشه ليعرف كيف أخرجها ولكن «عاصمًا» قطع عليه تساؤلاته وهو يميل لينظر في مرآة السيارة المجاورة له قبل أن يقول: أريدك أن تضلل السيارة التي ستتبعنا.

انطلق «حمدي» بالسيارة وهو يجوب الشوارع في سرعة وينحرف

انحرافات مفاجئة، حتي قال: أعتقد لو أنه لازال هناك من يتبعنا لكره نفسه.

أشار «عاصم» لأحد الشوارع الجانبية، فانحرف «حمدي» فيه، ثم أشار لشارع كبير يقطع هذا الشارع، سار فيه بضعة أمتار قبل أن يشير له بالتوقف أمام عمارة ضخمة وهو يترجل من السيارة في سرعة قائلًا: سننزل هنا وأنت انتظر ربع الساعة ثم انصرف.

أشار لها بالنزول، ناولها سترته لترتديها، نزلت إلى الشارع وهي تتلفت حولها في حرج، كانت في حالة مزرية، حافية القدمين، ممزقة الثياب، متورمة العينين، الدماء تسيل من قدميها، شعرت أن الجميع ينظرون إليها فقالت في ارتباك: يمكنك تركي هنا وأنا سأجد حلًّا، يكفيك ما فعلته حتى الآن.

قال بعدم اكتراث: لا تتفوهي بالسخافات.. هذه العمارة لها بابين، هناك باب على الشارع الآخر سنستقل سيارة أجرة من هناك.

عبر بها إلى الباب الآخر للعمارة الذي يطل على الشارع الخلفي وسط دهشة المارة ونظراتهم المتسائلة، ظل يشير لعدد من سيارات الأجرة حتى توقف أحدهم ونظرات التساؤل والريبة في عينيه، أجاب على أسئلته المتشككة المطلة من عينيه وهو يفتح باب السيارة: تعرضنا لمحاولة سرقة بالإكراه.. ثم ألقى إليه بالعنوان.

تردد السائق لحظات ولكنه دس في يده ورقة من فئة المائتي جنيه وهو يقول: انطلق بنا فنحن بحاجة للذهاب إلى الطبيب.

سال لعاب السائق وهو ينطلق بالسيارة حتى وصل إلي بداية الشارع

الذي تقبع فيه فيلا «عاصم»، أوقفه على رأس الشارع، اقتادها إلى فيلته سيرًا على الأقدام، أسرع بواب الفيلا بفتح بوابتها حين أتاه صوت «عاصم» يأمره بفتحها وعدم إخبار أي كائن بحضوره.

تطلع البواب إليها في شك وهو يهز رأسه ويتمتم بكلمات السمع والطاعة، خطت إلى داخل الفيلا في توتر، تطلعت إلى حذاء «عاصم» الذي أصر عليها أن ترتديه عندما نزل بها على رأس الشارع، في ظروف أخرى كان هذا كافيًا لأن تغرق في الضحك، فقدميها الصغيرتين كانتا تغرقان في حذاءه كأنما تسير داخل مركبتين، كادت تتعثر فيهما أكثر من مرة لولا أنه كان بجانبها دائمًا، جلست علي إحدى الأرائك الموجودة في البهو، بينما ذهب هو إلي المطبخ، وأحضر ما في الثلاجة من معلبات، وبعض مكعبات الثلج وهو يضعها بين يديها قائلًا: تناولي بعض الطعام، وهناك بعض الثياب هنا خاصة بـ«جيهان» يمكنك اختيار ما يناسبك منها، وسأقوم بعمل كمادات ثلج لك ريثما يأتي الطبيب لرؤيتك

هتفت في خوف: لا داعى للطبيب، يكفينا ما نحن فيه من مشاكل.

تطلع إلي آثار التعذيب التي بدت عليها، وإلى ارتجافة جسدها التي استفزت رجولته، تمنى أن يحتويها بين ذراعيه يمنحها ما تريد من أمان، ولكن حياءها أوقفه مرةً أخرى عند ذلك الحاجز الغير مرئي، جز على أسنانه فى غضب: سأجعل هذا السافل الحقير يدفع ثمن كل أذًى لحق بكِ، هذا وعد مني.

وكأنما فجرت كلماته إحساسها بما حولها فأجهشت ببكاء حار: أرجوك اتركني أرحل، لا تظن أنك بإخراجي قد انتصرت عليه، بل على

العكس لقد أطلقنا الوحش الكامن بداخله، ولن يتراجع حتى يقضي عليك.. يجب أن أرحل أو أعود إليه.

حالة هستيرية من البكاء سيطرت عليها، راح جسدها كله ينتفض في ذعر، كأنما تجلدت طيلة الوقت أمام عدوها ثم انهارت حين صارت بمنأى عنه، تنعي كرامتها التي أريقت على أرض زنزانته، وكبرياءها الذي تحطم على جدران سجنه.

ربت علي رأسها وهو يقول في حنان طاغ: كفي عن هذا الهراء فلا يمكنني تركك تواجهين هذا الوغد وحدك.

صاحت في انهيار: لمَ؟ لأجل «سيليا» لقد أصبحتُ خطرًا عليها، «خالد» لن يتركني حتى يعرف كل شيء، ووقتها لن يرحمك وستكون الفرصة قد أتته على طبق من ذهب لينتقم منك أشد انتقام على إخراجك لي.. هذا إذا تركك حيًّا من الأساس، أرجوك دعني أرحل، دعني أواجه مصيري وحدي، هذا قدري.

قال بنفس اللهجة الحانية: أتخشين عليَّ إلى هذا الحد؟

صاحت في ثورة: لم لا تريد أن تفهم؟ هو لن يتركك، سيقتلك.

هم بأن يصرخ فيها بأنه يحبها، وأن حياته رخيصة مقابل أمانها وحمايتها، وأنه مستعد للزواج منها في الحال فقط إذا وافقت هي، ولكنه أصبح يعرفها ككف يده، هي لن تقبل بهذا قط، بل قد يزيد هذا من إصرارها على الرحيل، نهض وهو يمسك بجبهته ليجلس علي الأريكة المجاورة، همس في إرهاق: هل يمكننا تأجيل هذا الكلام إلى وقت آخر؟

هتفت في قلق: بم تشعر، هل أستدعي لك الطبيب؟

قال في إرهاق واضح: أنا بخير فقط أحتاج لبعض الراحة.. هيا تناولي طعامك.

- فلنطمئن عليك أولًا، ثم يأتي أي شيء بعد ذلك.

- اسمعي الكلام ولا تتعبيني أكثر.

قالت فى عناد: لن آكل إلا إذا أكلتَ.

قال في استسلام: حسنًا سأشرب اللبن..

أنهت كوبها، وضعته بجوارها قبل أن تتراخى يدها بجوارها فجأة وتسقط نائمة.

تأملها لحظات بدت كملاك معذب، تمنى لو رأى «خالدًا» أمامه الآن لفتك به، لا يدري كيف سولت له نفسه أن يلحق بها الأذى! لا يدري كيف هانت عليه وقد أحبها يومًا! أي شيطان يسكن بداخله ليعذب امرأةً ببراءتها ونقائها! أي وحش هو ليؤذيها بهذا الشكل، جثا علي ركبتيه أمامها يتفحص قدميها المتورمتين جراء خلع ظُفر من كل قدم، أسرع يحضر مطهرًا وقطنًا وشاشًا لينظف لها جروحها، عدل وضع رأسها بحذر ثم حملها ليضعها في غرفة نوم جانبية، ألقى عليها بغطاء، ظل يتأملها لحظات قبل أن يتجه نحو الأريكة التي كانت ترقد عليها ويجلس بانتظار الطبيب الذي حضر بعد وقت قصير، أخذ يفحصها في دقة، بينما وقف هو يراقب الطبيب الذي انتهى من الفحص فهرع يسأله عن حالها في لهفة، أجابه الطبيب في مهنية: لديها بعض الكدمات والرضوض، ولكن خلع الأظافر بآلة حادة بالتأكيد سيسبب التهابات في قدمها وسيجعلها لفترة من الوقت غير قادرة على السير عليها، يجب أن تنتظم في العلاج كما يجب تغيير الضمادات

باستمرار حتى لا يتلوث الجرح وقد يتسبب في غرغرينا لا قدر الله.. ولولا ثقتي بك وصداقتي لـ «حمدي» الذي أبلغني أنكما تعرضتما لحادث سرقة بالإكراه ومحاولة اعتداء عليها، لأبلغت الشرطة، فقد عانت المسكينة من التعذيب.

ربت «عاصم» على كتفه قائلًا في هدوء: شكرًا لك.

أوصاه الطبيب بضرورة متابعة علاجه هو الآخر حتى لا تحدث له مضاعفات.

***

دار «خالد» في مكتبه كنمر جريح، خُطِفَت فريسته أمام عينيه، توقف حين علت طرقات على باب حجرة مكتبه، سمح لصاحبها بالدخول ليصب جام غضبه عليه، توقف العسكري حائرًا، لا يدري ماذا فعل ليغضب رئيسه بهذا الشكل، هل أزعجه طرقه على الباب إلى هذا الحد، وقف العسكري المسكين ينقل بصره بين الباب وبين رئيسه الغاضب لحظات قبل أن يقول في آلية: العقيد «شوقي» يريد سيادتك يا فندم.

صاح في ثورة: ألم أقل لك أيها الغبي لا أريد أن يدخل عليَّ أحد؟!

جال العسكري ببصره في الحجرة الواسعة وهو يبحث عمَّن سبَّبَ دخوله كل هذا الغضب لرئيسه، مما زاد من ثورة «خالد» فهتف في غضب: أخرج ولا تدخل أو تسمح لأحدٍ بالدخول.

أغلق العسكري الباب في خوف، لم تمض لحظات حتي ارتفع الطرق على الباب ثانية، مما حدا بـ «خالد» أن يقذف الباب المفتوح بقطعة مذهبة من طقم مكتبه، تفاداها العقيد «شوقي» الذي دخل للتو وهو يقول في

صرامة: ما هذا الهراء؟ هل تظن نفسك في بيتك؟ نحن هنا في العمل.

قال «خالد» بصوت كالفحيح: لم أخرجتها؟ كم دفع لك؟

كتم «شوقي» غضبه وهو يقول من بين أسنانه: كان يجب أن أفعل ذلك، لقد أصبح «عاصم أكرم» خلفها، ومن الواضح أنها مهمة لديه لدرجة أنه دفع خمسين ألفًا من الجنيهات ثمن إخراجها ونشر براءتها في الجرائد.

أعماه غضبه وهو يقول في اندفاع: إذن الأمر هكذا لقد تم شراؤك!

هوى «شوقي» على وجه «خالد» بصفعة مدوية وهو يقول: أنت تتحدث إلى من صنعك.

تحسس «خالد» موضع صفعته وهو يهتف في شراسة: بل أنا من صنعتك، أنا من جعلتك قادرًا على تنفيذ كل عملياتك القذرة، وكما صنعتك سأهدمك.

قال «شوقي» في هدوء لا يتناسب مع الموقف: أنت مثل ابني، وسأعتبر نفسي لم أسمع تلك الترهات التي تفوهت بها الآن، فأنا مدرك أنك لست في حالتك الطبيعية.. عندما تهدأ سنتحدث.

غادر «شوقي» المكان وهو يتمتم بين نفسه: على نفسها جنت براقش.. سنتحدث حقًا عندما تهدأ وتصبح جثةً هامدة.

تابعه «خالد» ببصره وهو ينصرف، أسرع إلى هاتفه، طلب رقمًا، انتظر حتى سمع صوت محدثه فقال في اقتضاب: سيتم التنفيذ وأنتظر مكافأتي.

***

فتحت عينيها في إرهاق وهي تتطلع إلي أشعة الشمس التي أنارت

الفيلا، حاولت أن تتحرك ولكنها شعرت بأطرافها ثقيلةً للغاية، وآلام مبرحة تنتشر كالنار في كل جسدها، تأملت تلك الغرفة التي رقدت فيها، لا تتذكر أنها قد دخلتها على قدميها، آخر ما تذكره هو ثورتها عليه التي امتصت آخر طاقة لديها، كادت تذوب خجلًا وهي تسمع طرقاته على باب غرفتها التي صاحبت صوته يستفسر عما إذا كانت قد استيقظت، اعتدلت بصعوبة وهي تأذن له بالدخول، انزاح الباب ليكشف عنه يحمل صينيةً عليها طعام الإفطار وكوبًا من الحليب، قائلًا بابتسامة كبيرة: كيف حالك اليوم؟

قالت في جلد: الحمد لله أفضل بكثير.. الفضل يرجع بعد الله عز وجل إليك.

وضع الإفطار أمامها وهو يتفحصها في اهتمام: أتمنى أن يعجبك، فأنا لم أعد إفطارًا منذ زمن.

- لست أدري كيف يمكنني شكرك!

- بألا تشكريني.

ضحكت في رقة فتابع في جدية: سيأتي «حمدي» بعد قليل ليصحبك إلى منزل آمن مع سيدة عجوز رائعة.. لم تخبريني بعد! ما الذي كان يريدك أن توقعي عليه؟

أجابت في شرود: كان يريد أن يعيدني إلى عصمته، ثم المفاجأة الأكبر أن عمه قد كتب نصف ثروته باسمي وتبرع بالنصف الآخر للجمعيات الخيرية، رحمه الله لم يشأ أن يعين الظالم على ظلمه حتى بعد وفاته، ورفض أن يترك ماله لـ «خالد»، ومن الواضح أنه كان قد انتهى من تسجيل ثروته يوم الحادث، وأنا لم أكن أعلم شيئًا عن هذا الأمر، ولولا

«خالد» لما علمت بالأمر أبدًا.

ابتسم قائلًا: ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

ارتفع رنين جرس الباب، تطلعت إليه في توتر، لم يخف عليه ارتجافُها، فقال مطَمْئنًا: اهدئي إنه «حمدي».

قالت في خوف: تأكد أولًا قبل أن تفتح الباب.

شعر بالغضب يملأ داخله، أتاه صوت «حمدي» الذى دخل مثيراً عاصفة من المرح خلفه وهو يحمل الكثير من الأطعمة وبعضًا من الجرائد، استقبلته على عتبة غرفتها وهي تتحامل على نفسها، هتف «عاصم» في ضيق: ما الذي أخرجك من سريرك؟

قالت في توتر: خشيت أن أتركك بمفردك.

قال «حمدي» في مرح: قولي الحقيقة، لقد جذبتك رائحة الطعام الشهي الذي أحضرته، هيا فقد أحضرت لكما إفطارًا رائعًا مثلي.

لم يعلق أحدهما على قوله، تحاملت على نفسها لتجلس على الأريكة، هم «عاصم» بمساعدتها ولكنها رفضت قائلةً: يمكنني تدبر الأمر بنفسي.

قال «حمدي» مازحًا: تخيلي كان هذا المجنون يريد حبسي بالأمس عندما أصررت أنك موجودة داخل القسم وقال لي ببرود منقطع النظير: هل تريد تفتيش القسم؟

ضحكت قائلةً: هذا هو «خالد».

تسلل شيء من الغيرة داخله حين عبر اسمه شفتيها، فقال في حدة مفاجئة: هيا لتتناولي الإفطار حتى يمكنك أخذ دواءك.. ثم التفت لـ «حمدي» سائلًا إياه عن جرائد الصباح

أجفلتها حدته المفاجئة بينما أجاب «حمدي» في اهتمام: خبر البراءة منشور كما طلبت بالضبط.

ناول إحدى الجرائد لـ «عاصم» الذي ألقى نظرةً سريعةً على الخبر ثم ناوله لها وهو يتنهد في راحة، ألقت نظرةً سريعةً على الخبر، همست في امتنان: لست أدري كيف يمكنني شكرك؟ لن أنسى صنيعك هذا مدى الحياة!

تجاهل كلامها كأن لم يسمعه و«حمدي» يسأله كيف انتزعها من بين يديه.

أجاب في هدوء: استعنت بالعقيد «شوقي» لإخراجها مقابل مبلغ من المال وطلبت منه تخليصنا من «خالد» مقابل خمسة ملايين جنيه.

قالت في توتر: لا تثق بهذا الرجل، لا يمكنه أن يضحى بـ «خالد» فهو ذراعه الأيمن، كما أن «خالدًا» لديه ما يدينه ويلقي به لبقية عمره خلف القضبان.

- أعلم هذا جيدًا ولكننا لن نخسر شيئًا في كل الأحوال، فلو نجح في تخليصنا منه فهذا جيد، ولو لم يفعل.. فقد ألقينا ببذور الشك والعداوة بينهما، وسينشغل كل منهما بمحاربة الآخر حتى نستعد جيدًا للقضاء على كليهما.

هتف «حمدي» في إعجاب: لقد أصبحت تفكر بشكل جيد رغم أن الرجل لم يضربك مثلي.. سأكافئكما بأفضل إفطار يمكنكما تذوقه في حياتكما.

همت أن تخبره أنها تذوقت للتو أسعد إفطار في حياتها، إفطار من

يد الرجل الوحيد الذي ملك قلبها، إنها المرة الأولى التي يحصل على قلبها رجل، لم تحب من قبل حتى عرفته، حتى خطيبها الأول، راقها حبه لها، لكنه لم يغزُ قلبها، أما «خالد» فقد ظل يحوم حوله لكنه لم يدخله قط، انتبهت على صوته الحاني يسألها عن سر شرودها، هزت رأسها بإشارات لا معنى لها وهي تقول: أريد أن أرد لك ما دفعته لـ «شوقي» ليخرجني.. وسيبقى معروفك هذا دينًا في رقبتي ما حييت.

قال فى حدة: أهذا كل ما تحملينه لي؟ العرفان بالجميل؟ لا أريدك أن تحملي هذا المعروف في رقبتك، ويمكنك اعتبار هذا مقابل ما فعلته مع ابنتي، أي أنني لست صاحب فضل عليكِ كما تسعين طيلة الوقت لإثبات ذلك لي ولنفسك.

تمتمت فى ارتباك: أعتذر إن كنت ضايقتك وإن كنت لا أعرف سببًا لذلك، ولكنى آسفة على كل حال.

قال وهو يحاول أن يهدئ من نفسه: لا داعي للأسف.

-كنت أريد الاطمئنان على «سيليا».

- في الطريق يمكنك أن تهاتفيها فقد يكون التليفون مراقبًا.

انهمرت الدموع من عينيها في صمت وهى تدفن وجهها بين كفيها قائلةً بصوتٍ معذبٍ: أنا آسفة بحق، لقد أصبحت غارقًا في المشاكل بسببي، دخلت فى حربٍ مع «خالد» ليس لك فيها ناقة ولا جمل، وقد يصبح «خالد» خطرًا على ابنتك أيضًا، وأنا أصبحت عبئًا عليك، حتى المكان الذي ستخفيني فيه أصبح مشكلة، وأخوك الذي علم بأمر ابنتك بسببي، رباه ما الذى فعلته بك؟

جلس قبالتها وهو يهمس فى حنان: لم تنظرين إلى النصف الفارغ من الكوب؟

أجابته في سخط: لقد أصبح الكوب كله فارغًا.

أطلق ضحكةً قصيرة هامسًا في رقة: دعينا نملؤه معًا إذن.

مست كلماته شغاف قلبها، تطلعت إليه في أمل، غاصت في عمق عينيه، العقيق الأسود في عينيه يلمع بصورتها، ترى نفسها في عينيه أجمل نساء الأرض، تُرى أتلك المشاعر التي تنبض في عينيه خلف حجبها السوداء لها، أم هي انعكاس مشاعرها؟ ترى أتلك المشاعر حقيقة أم أنها مشاعر العطف والشفقة ونبض رجولته ونخوته؟ كم تعشق تلك العينين، تبدوان كسحب سوداء تلمع في يوم مشرق، أخرجها من شرودها تلك الابتسامة التي لمعت في عينيه بعد أن غاصت داخلها وهتكت سترها، حاولت أن تستر روحها، جاهدت لتخرجه من نفسها وهي تتمتم في ارتباك: هل تعتقد أنه من الممكن أن يقوم «آسر» بإيذاء «سيليا»؟

هز كتفيه في حيرة وهو يقول: لست أدري.. لا أعلم حجم شجرة الكراهية التي زرعها «رستم باشا» في نفوس إخوتي، ولا أعلم متى تؤتي ثمارها؟

قالت في ثقة: لا أظنه يؤذيها، فهو لم ينجب أطفالًا بعد، وتبقى «سيليا» هي الحفيدة الوحيدة التي تحمل اسم «رستم باشا»، وأظن أن «جيهان» قد لمست فيه جانبًا ما ولهذا أطلعته على سرك، أنا أثق بها، وأعلم أنها لن تضرك أبدًا.. سيجعل الله لك في هذا الأمر خيرًا كبيرًا إن شاء الله.

قال بابتسامة خفيفة: ها قد عادت «ياسمين» التي أعرفها، أنتِ... قطع «حمدي» كلامه وهو يخرج من المطبخ قائلًا في مرح: الإفطار يا بشر.

***

دار «خالد» في مكتبه الذي قضى به ليلته، ينتظر تقارير رجاله الذين نشرهم في كل مكان يمكن أن يذهب إليه «عاصم»، لقد جمع الكثير من المعلومات حوله في الفترة الماضية، رجله الذي يراقب المزرعة أخبره بذهاب سيدتين إلى هناك استطاع من أوصافهما أن يعرف أنهما «جيهان» وابنتها، ولكنه لم يستطع تعرف هوية الرجلين اللذين حضرا إلى المزرعة وبقي أحدهما وعاد الآخر، لكنه حتى الآن لم يستطع أن يعرف أين قضى «عاصم» ليلته، وأين ذهب بياسمينته.. ولكنه سيعلم حتمًا.

***

انتهوا من تناول الإفطار، قال «عاصم» في هدوء: سأخرج أنا أولًا، ثم ستخرج أنت لاحقًا.. ستضلل من خلفك وعندما تطمئن إلى أنه ليس هناك من يتبعك ستذهب بها إلى شقة المنيل وتتركها برفقة مدام «سعاد».

هز «حمدي» رأسه دلالة الفهم وهو يقول: لا أعتقد أنه يعلم أنها هنا وإلا لهاجمكما بالأمس.

أجابه في هدوء: أعلم ولكن يجب أن نحتاط.. ربما تبعك وأنت قادم من يدرى؟ سأذهب الآن إلى المزرعة.

ضحك «حمدي» قائلًا: وأنا سأذهب إلى الحمام.. أتبع قوله بأن نهض من مكانه، في حين ناولها «عاصم» مغلفًا مغلقًا وهو يقول في اهتمام: احتفظي بهذا، بداخله مبلغٌ من المال في حال احتجتِ إلى شيء، كما أن بداخله رقم هاتف سيارتي، انتبهي لنفسك جيدًا، موعد الحقنة التالية بعد ساعتين، سيتوقف بكِ «حمدي» أمام إحدى الصيدليات لتأخذيها، وقد جعلت الطبيب يكتب لكِ بديلًا للحقن، هل أنتِ بحاجة لشيء آخر؟

كادت تخبره أنها لا تريد شيئًا في هذا العالم سوى بقائه بجوارها، لا تريد سوى سلامته، لا تريد أن ترى عينيها سوى وجهه الذي يخفي خلف صرامته وحزمه الأمان والحنان، تمالكت نفسها وهي تهز رأسها نفيًا هامسةً في خفوت: انتبه لنفسك جيدًا.. هل هناك أوراق أو شيء هام أو ثمين تخشى عليه هنا، فلا أستبعد أن يقوم بمحاولة سطو على الفيلا.

دار بعينيه في الفيلا لحظة قبل أن يستقر بصره عليها وهو يقول بلهجة خاصة: أثمن ما في هذه الفيلا سيخرج معي، لا تخاطري بنفسك أبدًا، حافظي على سلامتك لأجل.. بتر عبارته وهو يتابع: لأجل «سيليا»، لا يمكنها العيش بدونك.

خرج «حمدي» قائلًا في مرح: هيا يا رفاق سنرحل.

ودعها «عاصم» وهو يغادر حاملًا قلبها معه دون أن تدرك أنه قد ترك قلبه بحوزتها.

***

تأمل شوقي تلك الأوراق التي استقرت بين يديه، إنها دليل الإدانة الوحيد ضد «خالد»، الدليل الوحيد الذي استطاع الحصول عليه ضد تلميذه النجيب الذي لا يترك أبدًا دليلًا خلفه، إنها من قضايا «خالد» الأولى، كانت بداية صنعه لذراعه اليمنى، تلك الذراع التي استخدمها كثيراً للبطش بمن يقف في طريقه والتي درت عليه الكثير من المال، تلك الذراع وجب الآن قطعها بعد أن صارت خطرًا عليه.

***

تطلعت «ياسمين» إلى تلك العجوز التي استقبلتها في بشاشة وترحاب

كبيرين وهي تعرفها بنفسها قائلةً: أنا مدام «سعاد»، لقد أخبرني «عاصم» بقدومك وأوصاني بضرورة العناية بك، وأخبرني بشأن حادث السطو المسلح الذي تعرضتِ له، فلينتقم الله من المجرمين الذين آذوكِ يا ابنتي، ولكن اطمئني طالما أنتِ في كنف رجل حقيقي مثله فلن يمسك أحد بسوء بعد ذلك.

تمتمت ببعض كلمات الشكر وهي تؤمن على دعوات السيدة لـ «عاصم» بالحفظ والسداد والتوفيق في حياته كلها، امتلأت نفسها حبًّا وإكبارًا له حين أخبرتها السيدة بقصتها معه، وكيف آواها بعد أن لفظها ابنها وزوجته، دخلت إلى غرفتها التي أعدتها السيدة، وقفت خلف النافذة تراقب حركة السير في الشارع، انتبهت لظرف «عاصم» في يدها، قبلته، ثم فتحته لتجد به مبلغًا كبيرًا من المال، وورقةً مطوية كتب عليها بخط أنيق رقم هاتف سيارته وجملة واحدة، حملت بين طياتها أجمل معاني الحب وحروف الجملة القصيرة تتألق أمام عينيها «انتبهي لنفسك بأقصى طاقتك، لأجلنا جميعًا»

ابتسمت، قبلت الظرف، وهي تستلقى علي الفراش، وعلي وجهها ارتسمت ابتسامة حالمة.

الفصل الثامن عشر

تطلع «هاشم الشوباشي» إلى خطيبة ابنه، تلك الطبيبة الشابة التي انتهت من الفحص الروتيني لزوجته في تلك الزيارة التي تحرص عليها منذ وفاة ابنه منتحرًا في محبسه، لم تتخلف الفتاة عن زيارتهم منذ ستة أشهر، كم كان ابنه محقًّا بشأن اختياره لها، إنها فتاة رائعة بحق، لقد وقفت كالجبل تدافع عن سمعة ابنه وشرفه، إصرارها العجيب على براءة ابنه من تلك التهمة وعلى أنه قُتل ولم ينتحر، جعله يبحث خلف الأمر بكل طاقته، ولكنه لم يعثر على شيء، لم يعثر على أي دليل يقوده إلى أحد، ولكن الفتاة ذات رأى مختلف، هي واثقة من المتهم بشكل عجيب، ولكن دون أدلة، كل ما تقوله إنها واثقة، ثقتها هذه دفعته إلى إعادة البحث خلف اتهامها لهذا الضابط، ولكنه لم يصل إلى شيء فلا علاقة للضابط بشيء، فلقد قُبض على ابنه في كمين مروري، وتم اقتياده للقسم الذي يعمل به هذا الضابط وقد لقي ابنه مصرعه عقب سفر هذا الضابط لمحافظة أخرى بيوم واحد، أى أنه لم يكن فى المدينة وقتها، وتم معاقبة الضابط الثاني الذي وقعت في نوبته الحادثة، هو يريد أن يصدق خطيبة ابنه، ولكنه لا يريد أن يتهم الناس بالباطل وينساق وراء عواطف فتاة شابة كادت وفاة خطيبها في ظروف مأساوية تذهب بعقلها.

***

اتجه عاصم بسيارته إلي المزرعة، أعطى أوامره لــ «سليمان» بضرورة إغلاق البوابة جيدًا، ألقى نظرةً ساخطةً على سيارة «آسر» التي استقرت علي جانب الممر المرصوف بالحصى أمام القصر.. خطا إلى الداخل لتصطدم عيناه بآخر شيء يتوقعه، فهذا «آسر» يحبو علي الأرض بينما «سيليا» مستقرة علي ظهره، وهو يسير بها كأنه جواد عربي أصيل مقلدًا لها صهيل الحصان بينما تناثرت ضحكات ابنته في أرجاء البهو الواسع، كما تناثرت لعبها مما دل على تاريخ طويل من اللعب والمتعة، انتبها لوجوده فجأةً فقفزت الصغيرة من فوق ظهره، هرولت نحو أبيها تحتضنه وترحب بعودته، وانهمرت أسئلتها عليه كالسيل عن سر الجرح الذي بجبهته وعن سبب غياب «ياسمين»، وأين هي الآن؟

أجابها إجابات مقتضبة وعيناه مركزتان على «آسر» الذي نهض في خجل وهو يقول في تردد: حمدًا لله علي سلامتك.

ضاقت حدقتاه وهو يتفرس في ملامح «آسر» محاولاً أن يستشف منها ما خلفه، أن يكشف عن نواياه، ولكنه بدا أمامه كصندوق أسود مغلق، فربت على ظهر ابنته وهو يصرفها في رفق لتلعب مع «سارة» و«أحمد»، بينما ألقى أوامره بضرورة عدم اقتراب أحد من غرفة مكتبه وهو يقود «جيهان» و«آسر» في اجتماع مغلق داخله.

***

وقف «عاصم» أمام مكتبه هاتفًا في حدة: هل يمكنني أن أفهم ما الذي يحدث هنا؟

أجابت «جيهان» في سرعة: أنا من استدعيت «آسر» إلى هنا، كنت مصابًا

في المستشفى، و«سيليا» مريضة حرارتها تجاوزت الأربعين، و«ياسمين» في قسم الشرطة، كنت بحاجة للمساعدة، وكان يجب على أخيك أن يقف بجوارك في محنتك، فهذا واجبه.

خطا «آسر» نحوه في رجولة وهو يقول في هدوء: أعلم أن الأمر صعب عليك، فلو كنت مكانك لكنت أنا آخر شخص ترغب في مساعدته في وقت كهذا، ولكن هناك حقيقة واحدة لا تقبل الجدل، هي أننا إخوة، شئنا أم أبينا، قبلنا هذا أو رفضناه، تبقى تلك الحقيقة التي لا يمكننا الهروب منها، بل أصبح لزامًا علينا التعامل معها.

نظر إليه «عاصم» في شك، هم بقول شيء ما لولا أن قاطعه استئذان «سليمان»، وهو يعتذر عن مقاطعتهم ليخبره أن «خالدًا» بالخارج بانتظار إذنه بالدخول!

قال «عاصم» في سرعة: انتظر خمس دقائق ثم ائذن له.. ثم التفت إليهما: انتظراني بالخارج

قال «آسر» في سرعة: أنا سأبقى معك.

أيدته «جيهان» وهي تؤكد على كلامه: نعم ابق مع أخيك، لا تتركه بمفرده.

قالتها وهي تنصرف دون أن تترك لأحدهما فرصة التعليق على كلامها.

***

خطا «خالد» إلى داخل المكتب في عجرفة، ألقى نظرةً ساخرةً عليهما وهو يقول في مرح مصطنع: ترى هل يعود الفضل إليَّ في اجتماع الإخوة الأعداء؟!

قال «عاصم» في خشونة: ماذا تريد؟

أجابه في مكر: أنت تعلم جيدًا ماذا أريد.

قال «عاصم» في برود: لا أعلم ما الذي تحتاجه الضباع، فلست خبيرًا بعالم الحيوان.

كظم «خالد» غيظه وهو يتظاهر بالبرود: أريد «ياسمين».

قال في سخرية: أنا لا أبيع الياسمين.

أطلق «خالد» ضحكةً مصطنعة: لم أكن أعلم أنك خفيف الظل، أنا أريد زوجتي.

- وما شأني بذلك.. أنا لست المأذون.

- ستعيدها إليَّ.

- وما الذي يجبرني؟

بدا «خالد» أشبه بثعلب يتأهب للإيقاع بفريسته وهو يقول في مكر: ابنتك.

توترت عضلات وجه «عاصم» للحظة في حين ظل «آسر» صامتًا يراقب صراع الكلمات الدائر بينهما و«خالد» يتابع بصوت كالفحيح: ابنتك المخطوفة من ألمانيا والتي لم تصل للسن القانونية بعد، أعتقد أن شيء كهذا كفيل بحرمانك من ابنتك مدى الحياة، وبإيداعك السجن لسنوات.. والآن لنبدأ اختبارنا الصغير.. تُرى من ستختار ابنتك أم حبيبة القلب؟

قال «عاصم» في برود مصطنع: ما المطلوب؟

أجابه «خالد»: هل انخفضت نسبة ذكائك؟ كنت أظنك أكثر ذكاءً، فالطريقة التي أخرجتها بها تشي بأنك داهية، أمامك طريقين لا ثالث

لهما، إما أن تسلمني «ياسمين»، أو أسلم ابنتك للسفارة الألمانية.

أجابه «عاصم» على الفور: سأسلمك «ياسمين».

ضاقت حدقتا «خالد» وهو يقول في شك: بهذه السهولة.

- لا يوجد لديَّ أغلى من ابنتي.. ولكن ما الذي يضمن لي أنني بعد أن أسلمك إياها، ألا تعود وتؤذي ابنتي؟

- كلمتي.

أطلق «عاصم» ضحكةً عاليةً قائلًا في سخرية: حقًّا!!

هتف «خالد» في شراسة: ليس لديك الفرصة للاختيار.

قال «عاصم» في صرامة مخيفة: أنا أملك خياراتي دائمًا، فما أن تخرج أنت من هنا، سأخفي ابنتي ولن يستطيع أحد العثور عليها وسيكون عليك إثبات أنها موجودة من الأساس، وسأقلب الأمر عليك.

- لن يمكنك إخفاءها العمر بأكمله.

- أنت محق في ذلك، لذا أريد مقابل «ياسمين» ضمانًا قويًا يضمن سلامة ابنتي.

قال «خالد» في حذر: ماذا تريد؟

أجابه في بطء: الوثائق والأدلة التي تحتفظ بها كأدلة إدانة للعقيد «شوقي».

أطلق «خالد» ضحكةً عاليةً قطعها ليقول: هل تظنني بهذه السذاجة؟ أنت لم تترك لي الخيار.

قال «عاصم» في برود: ابذل وسعك ولنرى من يضحك في النهاية.

صاح في غضب: سلمني «ياسمين» ووعد مني لن أؤذى ابنتك ولن يعرف أحد بأمرها.

اكتسى صوت «عاصم» بصرامة قاسية وهو يقول: خذ وقتك في التفكير.. المقابلة انتهت.

انصرف «خالد» وهو يرغي ويزبد، يكاد ينفجر من الغيظ، ها هو يعود بخفَّي حنين، ها هو يعود بدون ياسمينته، ولكن هيهات أن تفلت منه، سيعيدها إليه مرةً أخرى، سيجعلها تتوسل إليه ليعفو عنها ويعيدها إلى جنته التي هربت منها.

***

ما إن خرج «خالد» حتى اندفعت «جيهان» للداخل، في حين التفت «آسر» لأخيه في غضب وهو يقول: ماذا ستفعل؟ هل ستتركه يؤذي «سيليا»؟ تُرى كيف علم بأمرها؟ هل تكون «ياسمين» قد أخبرته بشأنها تحت التعذيب.

قال «عاصم» في تفكير: كلا.. «ياسمين» لن تخبره بأمر ابنتي ولو مزقها إربًا، لو كان يعلم بأمرها لهددني بها وقت أن أخرجت «ياسمين» من تحت يده، كان وقتها كالثور الهائج، ولو كان لديه وسيلة واحدة لمنعي من أخذها لاستخدمها هذا الحقير.. يبدو أنه أخطر مما ظننت.

هتف «آسر»: سأتصل باللواء «مجدي» وأخبره بما حدث، لنجد مخرجًا يخلصنا من هذا الحقير.

قال «عاصم» في هدوء لا يتناسب مع الموقف: كلا اللواء «مجدي» ليس هو الشخص المناسب للتعامل مع ثعبان كـ «خالد» فهو رجل مستقيم.

التقط السماعة، طلب رقمًا مميزًا، انتظر حتى أتاه صوت «شوقي» مرحبًا فابتدره «عاصم» قائلًا: لقد نفذت الجزء الخاص بي في الاتفاق، بقى الجزء الخاص بك.. متى سيتم التنفيذ؟

أجابه «شوقي» في حذر: انتظر فما تطلبه ليس بالشيء الهيِّن.

قال «عاصم» في صرامة: أنا أحب أن يكون من أتعامل معهم عند كلمتهم، مثلما أنا أيضًا عند كلمتي.

أنهى «شوقي» المكالمة ببعض عبارات الاستعداد للتنفيذ، والتنويه عن قدرته الفائقة في تخطي الصعاب.

***

خيم الصمت على حجرة مكتب «عاصم» لدقائق، غرق الجميع فيها في تفكير عميق، قبل أن يقطعه «آسر» قائلًا: هل تثق بهذا الرجل؟

أجابه «عاصم»: كلا بالطبع، ولكنه النمس الذي يقضي على الثعبان.

نهض من مكانه وهو يتابع: يجب علينا الآن إخفاء «سيليا» في مكان لا يمكن لـ «خالد» كشفه أو العثور عليها فيه.

قال «آسر» في سرعة: دع هذا الأمر لي.

قالت «جيهان» مطَمْئنةً حين رأت نظرة الشك في عيني «عاصم»: سأكون أنا و«سارة» برفقتها فهي لن تحتمل البقاء وحدها في مكان غريب.

لانت قسماته وهو يطلب منهم سرعة الانصراف قبل أن يبلغ «خالد» السفارة الألمانية.

تحرك للخارج ليلقي أوامره للعاملين بالقصر بمحو آثار «سيليا»

تمامًا، وأن ينكروا وجودها أو معرفتهم بها في حال السؤال عنها، مضى ما يزيد على الثلاث ساعات دون أن يخرج «عاصم» من مكتبه، غرق في تفكير عميق، يقلب الأمر على وجوه عدة، تفحَّص بطاقة هويتها التي استخرجها لها بين يديه، ألقى نظرةً على ساعته، قبل أن ينهض من مكانه ويغادر القصر موصيًا «سليمان» بضرورة عدم السماح لأي شخص مهما كان بدخول القصر أو عبور البوابة حتى لو كان يحمل إذن نيابة.

***

طوال الطريق إلى فيلته وهو يسترجع شرطيها أولهما أن يُعلم زوجته ويترك لها حرية القرار بين البقاء في عصمته أو الطلاق، وثانيهما كان الأصعب عليه وهو الحصول على موافقة أولاده.

جلس يخبر زوجته بالأمر، تطلعت إليه «فريدة» في صمت، لم تصدق أنه يجلس أمامها ليخبرها برغبته في الزواج من أخرى، شعرت بشيء داخلها ينكسر، ولكنها تماسكت وهي تقول في كبرياء: أهي امرأة من عائلتك؟

- إنها امرأة من أهل الحي.

- لم تستطع أن تنسى أصلك، فعدتَ تبحث عمن تشبهك، حقًّا الأصل غلاب.

قال في هدوء: لا أريد أن ينتهي الأمر بيننا بإساءة أحدنا للآخر ففي النهاية لدينا أولاد يجب الحفاظ عليهم وعلى سلامتهم النفسية.

- هل يعنيك أطفالك حقًّا؟! ما الذي ينقصك لتتزوج؟

- ينقصني زوجةً، زوجةً تحب زوجها وتقدره، زوجةً تهتم بزوجها

وتعتني به، لقد فعلت كل شيء من أجلك ولكنك لم تحاولي فعل أي شيء من أجلي، لم أطلب منك الكثير، كل ما طلبته كان احترامي كزوج واحترام أهلي، ولكن حتى هذا لم تستطيعي فعله، سئمت من كبرك وتعاليك وأنانيتك وغرورك.

هزت كتفيها في لامبالاة وهي تقول في برود: كان زواجنا خطأً منذ البداية، أنت لا تنتمي لطبقتنا، ولم تحاول التأقلم معي، ظللت تمسك بأهداب أصلك، وتريد أن تجذبني أنا وأولادي معك، لذا فالطلاق هو الحل الأفضل.

- أتفق معكِ في هذا ولكن لا أريد أن يتأثر أولادي بهذا.. إن أردتِ أن يكونوا معي فلن أحرمكِ منهم، و إن أردتِ أن يبقوا معك فأنا أوافق ولكن بشرط ألا تقومي بتشويه صورتي لديهم.. لا أريد أي أذًى نفسي لأولادي، وحقوقك المالية وكل النفقات سألتزم بها كاملة، وهذه الفيلا سأتركها لكِ وكل احتياجاتك هي مسؤوليتي.

شعرت أنها تلقت طعنةً غادرة، شعرت بمعدتها تنقبض، ولكنها سيطرت على نفسها وهي تشد قامتها في اعتداد: أنا حفيدة باشوات، لذا لا أقوم بتلك الأشياء الحقيرة التي تعرفها.

تجاهل إهانتها وهو يدرك ما يعتمل في نفسها: عديني أنكِ لن تضعي أولادي في المنتصف.

رفعت رأسها في تعالٍ قائلةً في كِبر: لك كلمتي، أنا لن أؤذي أطفالي نفسيًّا، كما أن هذه رغبتي أنا أيضًا والأمر برمته لا يعنيني، ولكن أولادي سيبقون معي.

تنهد في ارتياح: لكِ هذا ولكنهم سيقضون الإجازات معي، سأنهي إجراءات الطلاق بسرعة وستصلك وثيقة الطلاق في أسرع وقت.

انصرف وهو يشعر بأنه ألقى حملًا ثقيلًا عن كتفيه.. تابعته ببصرها حتى غاب عن ناظريها ثم انهارت باكية.

***

علا رنين الهاتف في الشقة التي تجلس فيها، انتفضت حين سمعت صوت الهاتف، طمأنتها السيدة بابتسامة مشفقة وهي تربت على ظهرها قبل أن تنهض في تثاقل لتجيب على الهاتف، ارتاحت قسماتها حين سمعت السيدة ترحب بـ «عاصم»، تحركت من مكانها بعد أن أشارت لها لتحدثه، وقفت تنتظر الحصول على السماعة ليأتيها صوته العميق الواثق الذي يبث الأمان في جنبات نفسها يسأل عن أحوالها، طمأنته بكلمات مقتضبة وهي تبادله السؤال عن حاله، أجابها بعبارات سريعة قبل أن يصمت لحظة ثم يعود ليخبرها في سرعة أنه سيكون لديها بعد نصف الساعة.. أغلقت الهاتف وقلبها ينبئها أن قدومه هذه المرة يحمل خلفه الكثير.

***

انطلق «خالد» بسيارته في سرعة بالغة، يشعر بالراحة حين ينطلق بتلك السرعة فلا أحد يستطيع الوقوف أمامه، من يقف أمامه يسحقه سحقًا، وهذا ما عليه أن يفعله الآن.. عليه أن يزيح خصميه «شوقي» و«عاصم»، يجب أن يتخلص من كلاهما وبأسرع وقت، فإن صح خبر انتقال «شوقي» إلى أمن الدولة فسيصبح هو في خبر كان، فلن يكون له قدرة على مواجهته، ولن يرحمه «شوقي» وقتها، عليه أن يتحرك بسرعة، يحاول أن يجد طريقة تخلصه من خصميه بضربة واحدة، برقت عيناه ببريق شيطاني عندما لمعت خطة

ماكرة بذهنه وهو يهتف في جذل: نهاية الخط يا رفاق.

***

خطت «جيهان» إلى داخل شقة جدتها العريقة، تتأمل جدرانها في حنين، تتذكر جلسة جدتها بجوار مدفأتها، قهوتها التركية ذات الرائحة الجميلة تعبق المكان، ابتسامتها الحانية وحضنها الدافئ، بين جنبات هذه الشقة الفسيحة أزهر شبابها وتفتح قلبها لأول وآخر حب في حياتها، وقفت في شرفتها تتأمل الشرفة المجاورة المغلقة منذ سنوات توقفت عن عدها، لا أحد يعلم أنها تملكها وأنها حرصت على شرائها حتى تحفظ ذكرياتها فيها، هنا في تلك الشرفة كان يقف حبيبها حين التقته للمرة الأولى، هنا وقعت عيناه عليها للمرة الأولى، حين سقطت أشعة الشمس على ضفائرها الذهبية، وهي تتحدث إلى جدتها محدثةً جلبةً قطعتها جدتها لتلقى السلام على جارها الشاب، التفتت لترى شابًّا في أوائل العشرينيات من عمره، خمري البشرة، أسود الشعر، عيناه عسليتان دافئتان، تألقت فيهما نظرة إعجاب خطفت قلبها، لم تكن وسامته الشديدة هي ما خطف قلبها منذ اللحظة الأولى، ولا جاذبيته الساحرة التي سمرتها في أرض الشرفة، وإنما ذلك الدفء العجيب الذي يسيل من حدقتيه، دعته الجدة لتناول فنجان من القهوة معها فلبى النداء على الفور، جلس وعيناه تتفحصانها والجدة تقدم له حفيدتها الأثيرة عندها، وتعلن تذمرها من منع أبيها الدائم لها من القدوم إليها، ساخرةً من أسبابه غير المنطقية وخضوعه لعنجهية أخيه «رستم باشا»، كانت جدتها لأمها تكره «رستم باشا» وكانت تقول عنه دائماً إنه لا ينتمى إلى طبقة الباشوات، وأنه دخيل عليها، وأنه محدث نعمة يحاول أن يكون كالباشوات الحقيقيين

ولكن «الأصل عليه عامل»، وأنها أخطأت خطأً كبيرًا حين وافقت على تزويج ابنتها ذات الأصل العريق والنسب العالي من تلك العائلة، أفاقت من شرودها وغوصها في ماضيها على صوت ابنها يسألها ما إذا كانت بحاجة إلى شيء قبل مغادرته، هزت رأسها نفيًا وهي تحتضنه في قوة معربة عن شكرها له لوقوفه بجوار أخيه في محنته.

***

استقبلت السيدة «عاصمًا» في ترحاب كبير، أحست بذكائها أن هناك ما يريد قوله لـ «ياسمين» على انفراد، فأسرعت لتعد له طعامًا، في حين جلست «ياسمين» أمامه تمطره بأسئلتها عن «سيليا» وحالها وعن «جيهان» وكيف سار الأمر مع «آسر».. صمت حتى أفرغت ما بجعبتها دون أن يجيب على أي من أسئلتها مما زاد من قلقها فتوقفت عن الكلام وتعلقت عينيها به وهو يقول في بطء: هل تقبلين الزواج بي؟

حدقت في وجهه بذهول وارتدت للخلف كالمصعوقة، بينما كاد قلبها يخرج من صدرها من فرحته، وإن سيطر عليه عقلها بمجهود خرافي وهو لا يصدق ذلك الطلب الذي قدمته له أذناها.

تطلع إلى تعبيرات وجهها المتباينة في توتر، شعر بالضيق فقد كان يأمل أن يرى الفرحة في عينيها كدليل على أنها تُكن له نوعًا آخر من المشاعر سوى العرفان بالجميل، ولكن تلك الصدمة التي تجلت بوضوح في ملامحها، جعلته يقول في ضيق: لقد علم «خالد» بأمر «سيليا».

صاحت في انهيار: أنا السبب.. أنا السبب.. سأسلم نفسي له.

قال في حدة: هل جننتِ؟ هل تظنين أن هذا هو الحل؟

- نعم إنه الحل الوحيد، يكفيك ما لاقيته بسببي، لكن أن يصل الأمر إلى «سيليا» فهذا ما لن أسمح به.

- وهل تظنين أنه حتى بعد حصوله عليك، سيتركنا؟

- لست أدري ولكني سأبذل ما في وسعي لكي يبتعد عنك، ولن أتنازل عن شيء حتى تصل بابنتك إلى بر الأمان، ويصبح بقاؤها هنا قانونيًّا.

- لو قبلتِ الزواج بي فلن يمكنه أن يفعل شيئًا، فلو قدم بلاغًا بشأن «سيليا»، سأتهمه بأنه بلاغ كيدي لأنني تزوجت السيدة التي طلقها، والتي لا زال يريد العودة إليها، وأنه يفعل ذلك لأنها فضلتني عليه، وسأكيل له الاتهامات، وأجعل كيده يرتد في نحره، فما رأيك؟

- رأيي في ماذا؟

- سيأتي المأذون بعد قليل.

- ولكن ليس معي بطاقة تحقيق الشخصية.

- لقد استخرجت لكِ واحدةً.

صراع دار بين عقلها وقلبها الذي يغرد من فرحته يتمنى أن يعلن عن مشاعره بوضوح، يتمنى أن يهتف له بأنه الوحيد الذي سكن بداخله وتربع على عرشه، ولكن عقلها وقف كحائط صد أمام فيضان مشاعرها وهو يلجم قلبها بلجام من حرير، ويخبره أن الوقت لم يحن بعد للإعلان عما بداخله، وأن الخطر المحدق بهما كفيل بقتل أي مشاعر في مهدها، فقالت تنقل له خوفها: أخشى أن نكون بهذا قد فتحنا على أنفسنا أبواب الجحيم.

قال في هدوء: لا تقلقي من شيء، ولا تعطِه أكبر من حجمه، فهو في النهاية مجرد ضابط.

قالت في توتر: عندما يكون المجرم هو ممثل العدالة فيجب علينا جميعًا القلق.

فتح فمه ليجيبها، ولكن رنين جرس الباب أوقفه فقال في سرعة: هذا «حمدي».

دخل «حمدي» وهو يشير للمأذون بالدخول، تبعه أحد أقاربه، مضت اللحظات التالية كالحلم، لم تفق منها إلا على رحيل المأذون ومزاح «حمدي» الخافت وزجر «عاصم» له ومباركة السيدة «سعاد» واحتضانها لها، لا تصدق الآن أنها قد أصبحت زوجته، تكاد تطير من فرط فرحتها، هذا العملاق الذي ملأ قلبها قد صار زوجها، يمكنها الآن أن تملي عينيها منه، يمكنها أن تلقي بنفسها بين ذراعيه القويتين، يمكنها أن تختفي داخل ضلوعه ليحميها من العالم، عاد عقلها يستعيد سيطرته على مشاعرها المتدفقة نحوه والتي كادت تعبر عينيها لتخبره بمكنون صدرها، لولا أن أصدر عقلها أوامره لجفنيها فأسبلتهما على طوفان مشاعرها الذي تألق في جوهرتيها الساحرتين.

***

وقفت «جيهان» داخل غرفة جدتها التي تعشقها بكل تفاصيلها، لقد حافظت على كل شيء كما كان أيام جدتها، حتى الأثاث دفعت الكثير لتحافظ عليه كما هو، فتحت دولاب جدتها، التقطت صندوقًا خشبيًا مطعمًا بالأحجار الكريمة، فتحته لتطالع رزمة من الخطابات، تم ربطها بشريط

من الساتان الأحمر، تأملت الخطابات بشيء من الحنين، كل خطاب من هؤلاء يحمل جزءًا من روحها، من سعادتها وألمها، من فرحها وحزنها، في داخل هذه الخطابات قصة عمرها، تضم بين دفتيها أجمل أيام شبابها، كان الخطاب الأول بمثابة الإعلان عن أجمل مشاعر عاشتها، وما بين الخطاب الأول والأخير كانت قصة حياتها.

***

أُغلق الباب عقب انصراف «حمدي» برفقة المأذون، كاد يطير من السعادة، ها قد حصل أخيرًا على حب حياته، ها قد أصبحت زوجته، إنها جوهرته التي سيحميها بحياته، أنها هدية السماء له بعد طول عناء، تلقى مباركة السيدة «سعاد» بسعادة أشعرته بأنه عريس بحق، بينما وقفت هي وقد خفضت عيناها أرضًا في حياء، حياؤها هذا الذي أوقفه عند حده دائمًا، سيعبر اليوم كل الحدود ويصل إلى قلبها، سيخبرها بمكنون صدره، سيبوح بحبه الذي ظل حبيس صدره لأيامٍ طويلة، أسرعت السيدة «سعاد» تترك المكان بحجة واهية حتى تترك للعروسين الخصوصية الكافية.

التفت نحوها وهو يستمتع بطعم اسمها بين شفتيه، أجابته دون أن ترفع رأسها إليه قائلةً في خفوت: «عاصم بك» كنت..

قاطعها في حنان: هل هناك امرأة تقول لزوجها يا بك؟!!

أجابته في إحباط: أعلم أنه زواج مؤقت حتى تنتهي هذه المشكلة فلا داعي لرفع التكليف.

قال في حزن: أهذا ما ترينه؟

همست في لهفة حذرة: وهل هناك شيء آخر؟

هم بأن يخبرها أنها عمياء لا تبصر مشاعره المتجلية في عينيه والتي تموج تحت لسانه، تسافر موجاتها إلى روحها مع نبضات قلبه..ملأ الإحباط نفسه وهو يقول: سأرحل الآن.. ألا تريدين قول شيء؟

- لا اله الا الله.

نظر إليها لحظةً حملت فيها عينيه كل عذابات روحه وهو يقول قبل أن يغادر: محمد رسول الله.

***

مدت «جيهان» يدًا مرتجفة تفتح أول خطاب أرسله «حسام» جار جدتها، الشاب الذي امتلك قلبها من نظرة واحدة، كان رجلًا بكل ما تحويه الكلمة من معانٍ، يفيض رقةً وحنانًا، وينضح رجولةً وقوة، سقط كلاهما في الحب من النظرة الأولى، كما أدركت جدتها الأمر من بدايته وباركت مشاعرهما الطاهرة، فلم يكن هناك أي لقاء في الخفاء، كما لم يكن هناك ما يشين علاقتهما، كانت جدتها هي المفتاح وهي التي طالما مدحته أمامها وامتدحت أخلاقه ونبل أصله وشرف عائلته رغم أنهم ليسوا من ذوي المال والجاه إلا أنهم أولاد أصول كما كانت جدتها دائمًا تقول، تعددت زيارته لبيت جدتها حين تكون هناك، كانت عيناه ترسلان لها أجمل رسائل الحب الصامتة، بينما تكتفي عيناها بالتقاط الرسائل وستر الرد بأهدابها الطويلة التي تسبلها على جوهرتيها النابضتين بحبه، وكان أول خطاب له يرسله إليها عبر أصيص الورد الرابض بين شرفة جدتها وشرفتهم،

يخبرها فيه بمشاعره نحوها، ويستأذنها في التقدم رسميًّا لخطبتها، لم تجبه بل هرعت تخبر جدتها التي أرسلت إليه على الفور وضربته بعكازها وهي تخبره أنه كان يجب أن يستأذنها أولًا، وطلبت منه الوقت للتمهيد لزوج ابنتها والد «جيهان»، وبدأت مأساتها الحقيقية، حين علم والديها بالأمر، فرحت والدتها كثيرًا فهي خير من يعرف جيرانها، وتعرف كم أن «حسامًا» شاب رائع، رأت أن ابنتها محظوظة لأنها ستحظى بشاب مثله، بينما لم يعلق والدها بشيء وهو يقول: إنه لا يمكنه اتخاذ أي قرار حتى يراجع أخاه الأكبر «رستم باشا»، وذهب إلى أخيه الأكبر الذي رفض الأمر برمته وهو يطلق رصاصة النهاية على حبها معلنًا أنه سيجعلها زوجةً لابنه الوحيد، الذي كانت تعلم «جيهان» بزواجه السرِّى من امرأة أخرى، حاولت كثيرًا إقناع أبيها أنها لا تحب ابن عمها، وأنه كذلك لا يحبها، ولكن أباها أخبرها أنه لا يمكنه أن يقف أمام رغبة أخيه الأكبر، وأن عليها الالتزام بتقاليد العائلة وأن ابن عمها هو الأحق بها، واستسلمت لإرادة أهلها، وبقي هو يرسل لها الخطابات يستجديها ألا توافق، وذهب إلى أبيها الذي استقبله في جفاء ولكنه رفض طلبه بأدب على أية حال، ولم ييأس الشاب العاشق فذهب إلى عمها «رستم باشا» بعد أن أدرك أن مقاليد الأمور بيده وكانت تلك النهاية، حين طرده من قصره شر طرد، وجعل خدمه يلقون به للخارج، وهو ينعته بأقذع الصفات ويتهمه بالطمع في أموال العائلة واسمها، يومها ذهبت برفقة جدتها لزيارته خلسة، فقد صدرت أوامر بحبسها في المنزل، ولكنها توسلت لأمها لتذهب إلى جدتها لتطمئن

عليه وستعود سريعًا، كان يجلس في غرفته طريح الفراش، جريح الكرامة، التأمت جراحه حين رآها، وعادت إليه روحه حين خطت إلى غرفته برفقة جدتها تلك العجوز الحانية، أخبرته أمام جدتها أنها ستمتثل لأمر عائلتها، فلا يمكنها أن تجلب العار لأبيها إن هي تزوجت رغمًا عنه، وطلبت منه أن يعدها أن ينساها، ولكنه وعدها أنه لن ينساها قط، وأعطاها كلمته التي بر بها حقًّا أنه لن يحاول الوصول إليها طالما كانت زوجةً لغيره.

***

تعلقت «سيليا» بعنق أبيها في حب وهي تقول في براءة: افتقدتك كثيرًا أبي.. أين كنت؟ ألم تعلم بأني مريضة؟

احتواها في حب وشوق وهو يدور حاملًا إياها وضحكاتها البريئة تتناثر حوله لتملأ الجو حولهما بشحنات السعادة، جلس على أقرب مقعد وهو يجلسها على ساقيه، عيناها تشعان بالبهجة، احتضنها في حبٍ ليرتوي من نهر براءتها، يشبع إحساس الأبوة لديه، يشعر بأنه ملك الدنيا وهي بين ذراعيه، صغيرته قرة عينه، مستراح روحه، ومصدر بهجته، وضعت «جيهان» أمامه كوبًا من عصير البرتقال المفضل لديه وهي تسأله عن حال «ياسمين»؟

تدخلت «سيليا» حين سمعت باسم «ياسمين» هاتفةً: أين هي بابا؟ أبلغها أني غاضبة منها لأنها تركتني وأنا مريضة.

ربت على ظهرها في حب وهو يقول: كلا حبيبتي لم تتركك.. تعلمين

كم تحبك، لقد حدث لها حادث وما إن يمكنها الحركة بحرية، ستعود إليكِ.

اصطحبتها «سارة» في رفق لتأخذ دواءها في حين راح يخبر «جيهان» بأمر زواجه، تهللت أساريرها وهي تغدق عليه بالتهنئة، فقال في هدوء: الأمر ليس كما تظنين، إنها تظن أنني تزوجتها من أجل حماية ابنتي.

صاحت في استنكار: ولم لم تخبرها بالحقيقة؟

قال في إرهاق: لم يكن من المناسب وهي في حالتها تلك أن أعرض عليها زواجًا حقيقيًّا، لم تكن ستقبل على أية حال، كانت ستخشى أن تتسبب في مقتلي، كما أنني لست واثقًا من مشاعرها بعد فهي تظهر لي دائمًا أن كل ما تحمله لي هو العرفان بالجميل.

هزت رأسها نفيًا في قوة وهي تقول في اعتراض: ليس صحيحًا.. لا توجد امرأة تعرض نفسها للوقوع في براثن رجل هربت منه سابقًا لأجل أن تطمئن على رجل في المستشفى لو كان هذا الرجل لا يعدو كونه صاحب فضل عليها.. لا توجد امرأة ستفعل هذا إلا لو كانت تحب وغارقة في الحب.

- ربما أنتِ محقة، أنا أتمنى أن أصدق هذا ولكني أعرف نفسي، أعرف أنني لن أقتنع إلا حين أسمع ذلك منها وفي ظروف هي حرة فيها تمامًا.. أما الآن فأخشى أن توافق تحت ضغط امتنانها نحوي أو أنه ليس لديها سبيل آخر، لا يمكنني أن أقبل بالزواج من امرأةً ترى أنني الحل الوحيد لديها، أو توافق لأن حياءها يمنعها من رفضي.

تأملته فى إعجاب إنه رجل حقيقى يذكرها بصورة بعيدة لشابٍ ملأ قلبها يومًا.

***

جلس «آسر» في مكتبه عاقدًا حاجبيه في تفكير.. سيساعد «عاصم» في التخلص من «خالد»، ليس من أجل «عاصم» نفسه فهو لم يستسغ بعد فكرة تعامله معه كأخٍ له، يبدو أنه سيحتاج الكثير من الوقت لهدم ذلك الحاجز النفسي الذي تكون داخله عبر سنين، سيدمر «خالدًا» لأنه حاول المساس بـ «سيليا» تلك الصغيرة التي امتلكت قلبه بسهولة ويسر، لقد اعتاد أن يراها كل يوم ويقضي معها بعض الوقت عقب انتهائه من عمله، أصبح طقسًا يوميًّا له أن يذهب إليها في شقة جدة «جيهان» ويقضي معها يومه، يسعده كثيراً أن تخصه بأسرارها الصغيرة التي لا تطلع سواه عليها، لا يدري متى تعلق بها إلى هذا الحد، رغم أن أطفال «فريدة» نشأوا على يديه إلا أنه لم يتعلق بهم بهذا الشكل، ربما يعود تعلقه بها إلى إحساسه الكامل بمسؤوليته عنها ورغبته في حمايتها خاصةً بعد أن أطلعته على المعاملة القاسية التي كانت تلقاها في ألمانيا، وكيف كانت تتعرض للإيذاء النفسي والبدني من جدتها لأمها، التي كانت تصب عليها جام غضبها بمناسبة وبدون مناسبة، وكيف كان أهل والدتها يسيئون معاملتها، أخبرته أنها سعيدة للغاية بوجودها بين عائلة أبيها التي تحبها، وأنه بالنسبة لها ليس عمها فقط، بل وجدت فيه الصديق الذي طالما بحثت عنه ويمكنها الاعتماد عليه، ولعل ارتباطه الشديد بها لأنها الحفيدة الوحيدة التي تحمل اسم

«رستم باشا»، تعجب لسخرية القدر، فها هو «عاصم» الذي كرهه «رستم باشا» حد الموت يصبح نسله هو الامتداد الوحيد لاسم «رستم باشا»، قطع تفكيره رنين جرس مكتبه الداخلي، تخبره السكرتيرة أن هناك رجلًا يريد مقابلته.

أذن له بالدخول وهو يراجع بعض الأوراق أمامه قبل أن يدخل الرجل ويقف أمامه باحترام ويناوله مغلفًا أصفر اللون مغلقًا بختم، شكره «آسر» وهو يتناول الملف في لهفة، انتظر حتى خرج الرجل وراح يفض المظروف وابتسامة ظافرة ترتسم على شفتيه.

***

جلس «هاشم الشوباشي» في مواجهة «آسر» الذي أخرج بعض الأوراق من مغلف أصفر أمامه وهو يقول: ترى ما السبب الذي جعل «آسر رستم» يطلب مقابلتي؟

أجابه «آسر» وهو يختبر أثر كلماته على وجهه: ابنك «إياد».. لقد علمت بقصته كاملة، وأعرف من قتله.

توترت عضلات وجه «هاشم» وهو يسأل في حذر: من؟

- المقدم «خالد شداد»

- من أين عرفت؟ ولمَ تخبرني الآن وقد مر على الحادث أكثر من ستة أشهر؟

- لأنني لم أعلم بالأمر إلا الآن.. وأخبرك لأنني أريد أن نبني شراكتنا القادمة على أساس متين من الثقة المتبادلة، وأريد أن أرى شريكي

المستقبلي رجلًا قويًّا قادرًا على أخذ حق ابنه من ضابط صغير قضى عليه.

ناوله «آسر» المغلف الذي أمامه وهو يقول: هذه ورقة من البنك تفيد إيداع نصف مليون جنيه في حساب مسجل باسم أحد المسنين، يحمل «خالد» توكيلًا رسميًا بالتصرف في حساب الرجل، وبالبحث تبين أن الرجل ليس لديه أي مصدر دخل وأن الرجل لم يقم بفتح الحساب بنفسه، وأن الرجل لا يعلم عن الحساب شيئًا من الأساس، وأنه قد تم فتح الحساب باستخدام بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بالرجل دون حضوره، وقد تم إيداع النصف مليون قبل يومين من إلقاء القبض على ابنك، وهذه ورقة أخرى تفيد إيداع نصف مليون آخر في اليوم التالي لمصرع ابنك داخل محبسه، والمودع في المرتين نفس الشخص، وعندما بحثنا عن هوية المودع تبين أنه أحد رجال «فوزى المنياوي» غريمك اللدود والذي لم ينس ما فعله ابنك حين حصل على الفتاة التي أراد ابنه المدلل الزواج منها ولكنها فضلت ابنك عليه، والدليل الثاني هذه أسماء العساكر الذين كانوا في الخدمة وقت وفاة ابنك، توفى أحدهم عقب موت ابنك في نفس اليوم، وشهد أحد العساكر أنه وحده من كان بإمكانه الدخول إلى زنزانة ابنك الذي تم حبسه في زنزانة بمفرده بناءً على أوامر «خالد» الذي أعطى هذه الأوامر قبل سفره مباشرةً، ليلقى ابنك مصرعه بعد ساعات من سفره، ويلقى العسكري مصرعه في نفس الليلة بعد خروجه من القسم بدقائق في حادث سيارة.

قالها «آسر» وهو يضع بين يدي «هاشم» ما يثبت صحة كلامه، تابع

في هدوء: وسأرسل لك الدليل الأخير على مكتبك صباح الغد

تطلع «هاشم» إلي الأوراق في غضب وهو يقول: الكلب.. لو كان ما تقوله صحيحًا فسأجعله يندم على اليوم الذي وُلد فيه.

ابتسم «آسر» في ثقة وهو يتراجع في مقعده وقد أدرك أنه أصاب هدفه بدقة.

***

دخل «هاشم» إلى مكتبه كقطار خرج عن مساره وهو يصرخ في سكرتيرته لترسل له مدير مكتبه في الحال.. لم تمض ثوان حتى كان مدير مكتبه يقف أمامه في احترام.

قال «هاشم» في سرعة: أريد أن يكون لدي كل المعلومات عن ضابط اسمه «خالد شداد» وعلاقته بـ «فوزي المنياوي» في خلال ساعة.

طأطأ مدير مكتبه برأسه في طاعة و«هاشم» يناوله ورقة مطوية قائلًا: ستذهب إلى هذا العنوان وتحضر لي الرجل المكتوب اسمه لديك في هذه الورقة.

أسرع مدير مكتبه ينصرف في سرعة لينفذ أوامر سيده الذي جلس ينفث دخان سيجارته في مرارة، تلك المرارة التي ذاقها حين علم بخبر القبض على ابنه وبحوزته مخدرات، لم يمكنه تصديق الأمر فقد بذل كل جهده لتربية ابنه تربيةً حسنةً، فهو لم ينس جذوره الصعيدية ولم ينس أصله، وقد ربى ابنه ليكون رجلًا بحق وليكون سندًا له، وقد كبر ابنه ليصبح كما تمنى، واكتملت سعادته حين أبلغه برغبته بالزواج من تلك الطبيبة الشابة ابنة أحد

كبار المهندسين في شركات «فوزى المنياوي»، وعندما ذهب مع ابنه لخطبتها راقت له الفتاة بأدبها وأخلاقها وأصلها الطيب، كما راقه والدها بسمعته الطيبة وإخلاصه في عمله فهو كان أحد أعمدة نجاح «فوزى المنياوي» قبل أن يترك العمل بشركته، وقد رفض والدها تمامًا أن يتحدث عن سبب تركه للعمل لدى «المنياوي»، وأثناء تعرفه بوالد الفتاة تبين له أنه خالها وهو من قام بتربيتها منذ كانت في الثانية عشر من عمرها بعد وفاة والدتها التي كانت مهندسةً هي أيضًا، وقد ظن الجميع وقتها أنه ترك العمل لأنه شعر بالحرج بعد أن رفضت ابنة أخته الزواج بابن المنياوي الذي هام بها حبًّا، حتى أنه هدد ابنه مباشرةً بأنه لن يحصل عليها إلا على جثته، وقد اتصل هو بالمنياوي وقتها، ولكن الرجل اعتذر له معللًا تصرف ابنه بأنه طيش الشباب.. ولكن بعد ما وصله من معلومات تبين له أن ابنه كان ضحية مؤامرة حيكت بمعرفة «المنياوي» وسيجعل كل من تسبب في دمار ابنه وقتله عبرةً لكل من يعتبر.

***

وقف «خالد» يتطلع لصورة متوسطة الحجم لـ «ياسمين» معلقة علي الحائط في مواجهة أريكته المفضلة، أخذ يحدثها كأنها جالسة أمامه: أرأيتِ ياسمينتي.. الجميع يريد أن يأخذك مني، ولكني لن أسمح لهم.. ثم ضرب الحائط المجاور لصورتها بقبضته وهو يتابع: ولكن أكثر ما يثير جنوني هو أنك أنتِ أيضًا تقومين بمساعدتهم، ولكني لن أحاسبك الآن، فدورك قادم.. دار في الردهة لدقائق كالجريح قبل أن يزيح صورتها لتظهر الخزانة السرية خلفها، أدار أرقامها في سرعة قائلًا: أنتِ دائمًا كلمة السر ياسمينتي،

أنتِ دائمًا المفتاح.. تطلع إلي تلك الشرائط التسجيلية وشرائط الفيديو التي استقرت بداخلها، سارع بغلق الخزانة وهو يتطلع لصورتها قائلًا في شراسة: هذا الغبي «شوقي» يظنني سأبتلع الطعم بسهولة، لا يعلم الغبي أنني أعرفه أكثر مما يعرف نفسه.. يريد أن يوهمني أنه أيضًا يسعى للتخلص من «عاصم» حتى يتسنى له التخلص مني..

عاد يتحسس صورتها وهو يهمس بصوت كالفحيح: سأنهي «عاصمًا» و«شوقي» بضربة واحدة.

قالها وابتسامة ذئب ترتسم على شفتيه وتتسع لتملأ وجهه بأكمله.

الفصل التاسع عشر

تأمل «هاشم الشوباشي» خطيبة ابنه التي خطت إلى مكتبه في رقة، كم كان ابنه محقًا حين سلمها قلبه ورغب أن تحمل اسمه، يوم وفاة ابنه وقفت الفتاة كحائط صد تدافع عن خطيبها وتنفي تلك التهم الباطلة التي علقت به، ثقتها الكاملة في براءة ابنه أثلجت صدره، عنايتها به وبزوجته التي كسر ظهرها موت ابنها الوحيد بهذه الطريقة البشعة جعلته يدرك كم كان ابنه محقًّا في تمسكه بهذه الفتاة، إنها ذات أصل طيب، الأزمة التي مروا بها أظهرت أصالة معدنها، شموخها وثقتها الكبيرة بنفسها وقوة شخصيتها يثيرون إعجابه بشخصها، لا زال يذكر إصرارها على اتهام ذلك الضابط تحديدًا بأنه السبب في كل ما جرى، وقتها ظن أنها تهذي لأن خطيبها قد مات في سجنه، ولكنه مع المعلومات الجديدة يثق أن الفتاة تعلم الكثير، وقد جاء دوره الآن ليعلم.

***

تطلعت «ياسمين» إلى «عاصم» الذي وقف ينظر في حنين إلى صورة لوالدته معلقةً على الجدار المقابل، همست في خفوت: «سيليا» تشبهها كثيرًا مع اختلاف لون العينين.

التفت إليها قائلًا: أنتِ أيضًا تشبهينها في طباعها، كانت قويةً وحنونةً مثلك.

خفضت رأسها في حياء وهي تدير دفة الحديث قائلة: ماذا تنوي أن تفعل؟

- سأتخلص منه.

شهقت في وجل: هل ستقتله؟

قال في شك: هل تخشين على حياته؟

أجابته فى سرعة: لا أريدك أن تتلوث بدمه، لا أريد أن تصبح مثله، أنت لست مجرمًا، هو رجل باع نفسه للشيطان، هو رجل باع آخرته بدنياه، لا أريدك أن تسلك طريقه، ويكون القتل هو وسيلتك للتخلص من أعدائك.

هدأت نفسه قليلًا وشيء من الراحة يتسرب إلى أعماقه بعد أن عبرت شرارات الغيرة داخله مخلفة رمادًا فى قلبه فقال مطمئنًا: اطمئني أنا لن أتخلص منه بالقتل، بل سأجعله يتمنى الموت..

- كيف؟

اقتادها نحو أريكة قريبة وهو يقول في غموض: غدًا ستعلمين.

***

استقرت«جيهان» في المقعد الخلفي لتلك السيارة التي أرسلها لها ابنها تقلها إلى بيت «فريدة»، لم تستطع تصديق الأمر حين أخبرها «آسر» بأن ابنتها قد تم طلاقها، ظلت طوال الطريق تلوم نفسها لأنها لم تقسو عليها حتى تنتبه لبيتها، لم تكف عن معاملة زوجها بعجرفة حتى بعدما نصحها «آسر» وأخبرها أن زوجها يفكر في الزواج من سواها، لم تعد لرشدها بل

تمادت في غيها، واعتبرت مجرد تفكيره في الزواج من غيرها إهانة لكبريائها وأصرت على الطلاق، نصحتها هي وقتها ألا تتسرع وتجعله يعرف أنها علمت بما دار بينه وبين أخيها حتى تتمكن من إصلاح الأمور، فالتزمت الصمت أيامًا، ولكن عنجهية «رستم باشا» وكبره وغروره التي ورثتها عنه دفعتها للطلاق، مسحت دموعها خفية، تأسف لما آل إليه حال ابنتها، ولكنها تعلم أنها النهاية الحتمية لعلاقة كهذه، علاقة تقوم على الندية والتعالي والكبر، تعفي زوج ابنتها من المسئولية تمامًا، ترى أنها وحدها المسئولة عما حدث، كان عليها أن تبعد أبنائها عن تأثير «رستم باشا»، لقد أخطأت، وها هي تدفع ثمن أخطائها.

***

غاص «خالد» في أريكته الوثيرة وقد احتضن صورتها يتأمل ملامحها في شوق، يتذكر أيامه معها، كانت مصدر الأمان في حياته، كانت أثمن شيء حصل عليه، كجوهرة نقيةً للغاية، تحمل النقاء بين جنبيها ويشع النور من قسماتها، كان يثق أنه لن يمسه سوء طالما هي بجواره، لا يدرى ما سر هذا الإحساس الذي وصل لديه إلى درجة اليقين، ولكن إحساسه لم يخطئ فهو لم تهاجمه تلك الكوابيس إلا بعد أن فارقته، لم تقتحم تلك الكوابيس ليله إلا بعد أن هجرته، أكثر ما يؤرقه أن الأمر يزداد صعوبة، فالمرأة في الحلم تقترب منه في كل مرة أكثر، ويشتد ضغطها على عنقه أكثر وأكثر، يشعر بأنه سيلفظ أنفاسه تحت وطأة ضغطها على عنقه، عاد ينظر إلى صورتها وهو يتمتم ساخرًا: تصوري ياسمينتي أنني قد أموت في حلم، هل تظنين أن رجلًا مثلي قد ينتهى بهذا الشكل؟

قهقه فجأةً وهو يتابع حديثه قائلًا: اطمئني حبيبتي لن يحدث لي مكروه حتى أعيدك إلى عشنا الجميل.

***

أطرقت الفتاة برأسها أرضًا في حيرة عقب سؤال «هاشم» المباشر عن علاقتها بـ«خالد شداد»، شردت بذهنها إلى ثلاث عشرة عامًا مضت، كانت وقتها في الثانية عشر من عمرها، كانت طفلة بضفائر ذهبية، تلهو بين يدى أمها تلك المرأة الصالحة التي تحملت الكثير في سبيل تربية ابنتها الوحيدة بعد أن توفى زوجها وترك ابنته ذات السبعة أعوام يتيمةً في حجرها، كانت والدتها مهندسةً بإحدى شركات القطاع العام، وقد رفضت هي وأحد زملائها التوقيع على أحد الكباري لغش الشركة في المواد الخرسانية مما يسبب خطورةً على المواطنين، فوجئ زميلها ذلك المهندس المحترم بتزييف توقيعه على إنشاء هذا الكوبرى الذي انهار جزء منه بعد إنشائه بعدة أشهر وكاد يتسبب في كارثة لولا أن الله سَلَّم، وتم تقديمه للمحاكمة وتكاثر شهود الزور عليه كما يتكاثر الذباب على العسل، لولا أن استطاعت أمها الحصول على الأوراق الحقيقية لإنشاء الكوبرى وقامت بتسليمها للمحكمة في مفاجأة للجميع، وكانت على أتم الاستعداد للإدلاء بشهادتها التي تدين كبار المسؤولين بالشركة، وقد أجلت هيئة المحكمة وقتها -بدون سبب مفهوم- الاستماع إلى شهادة والدتها إلى جلسة لاحقة، لا زالت تذكر والدتها وهي تقدم تلك المستندات بنفسها وتفاجئ الجميع، والدتها التي وقفت كالجبل تنصر الحق وتدافع عن المظلوم وتقف في وجه الفساد، تنوعت نظرات الموجودين لوالدتها بين الإعجاب والتهديد والوعيد لتلك المرأة التي هدمت

المعبد على رؤوس الكبار كما توهموا جميعًا لحظتها، ولم تمض عدة أيام إلا وتلقت والدتها ما يكفيها من تهديدات لتتراجع عن موقفها ولكنها لم تزدها إلا ثباتًا، لا تزال كلمات والدتها لها في ذلك اليوم تتردد في أذنيها وكأنها كانت تعلم أنه اليوم الأخير الذي ستراها فيه، لا زالت تذكر الساعات الأخيرة معها بكافة تفاصيلها، أنهت والدتها مكالمة مع أحد أقاربها أوصته فيها بالعناية بابنتها في حال حدث لها مكروه، ثم احتضنتها وأجلستها في حجرها وهي تقول لها: اسمعي مني حبيبتي هذه الكلمات واعقليها جيدًا فقد لا يتسنى لي الوقت لأعلمك غيرها.. كلمة الحق تستحق أن يموت المرء من أجلها، وكلمة الحق لا تنقص أجلًا ولا تقطع رزقًا، بل تزيد الرزق وتعظم الأجر حتى وإن نالنا أذًى بسببها، قد ينالنا الأذى بسببها في الدنيا ولكنها النجاة يوم القيامة، وأوصتها ألا تتردد أبدًا في قول الحق مهما كلفها ولو كان الثمن حياتها، وأخبرتها أن الموت في سبيل الحق أكرم آلاف المرات من الحياة بذل الباطل، وأنهت قولها بأن استودعتها الله الذي لا تضيع ودائعه..

لم تمض ساعات غفت فيها في حضن والدتها حتى شعرت بوالدتها تتسلل من جوارها لتغيب لحظات ثم تعود لتقيم الليل كعادتها، راقبت والدتها للحظات والنعاس يكلل عينيها، غلبها النعاس لدقائق قبل أن يطير مع صوت كسر باب شقتها، بحثت بعينيها عن والدتها لتجدها جالسة للتشهد في الصلاة وعلى وجهها سكينة عجيبة كأنما هي في عالم آخر، ولكنها سرعان ما عادت منه وهي تسلم من صلاتها لتتطلع إلى تلك الأحذية السوداء الثقيلة، التي حملت رؤوسًا أكثر سوادًا وأحدهم يقترب من الفراش الذي ترقد عليه ويدس شيئًا تحت الوسادة، قبل أن يخرجه عسكري آخر

ويتجه به نحو الضابط الذي وقف منتظرًا استخراج ذلك الشيء، أمسكه بين يديه وقلبه للحظات قبل أن يقول لوالدتها في تشف: مخدرات؟!!

صاحت والدتها في استنكار تنفي وجود شيء كهذا في بيتها الطاهر، ولكن كلماتها المستنكرة ذهبت أدراج الرياح، عبثًا حاولت استجداء ذلك الضابط ولكنه بدا كأنما قُدَّ من صخر فلم يلن لتوسلاتها بتركها تجرى مكالمةً هاتفيةً لكى يأتي قريبها ويأخذ ابنتها معه، كفت والدتها عن التوسل لرجل قُدَّ قلبه من حجر صوان، وهي ترفع رأسها إلى السماء هاتفةً من أعمق أعماق قلبها: يا رب استودعتك ابنتي يا من لا تضيع ودائعه.. يا من لا تضيع ودائعه استودعتك ابنتي..ظلت والدتها تردد تلك الكلمات حتى غابت عن عينيها، حاولت اللحاق بأمها، هرولت خلفها تتعلق بثيابها، هتفت الصغيرة تخبر الضابط بما رأت ولكنه هوى على وجهها بصفعة ألقتها للخلف مترين، عادت تعدو خلف أمها تتشبث بثيابها ولكن ذلك العسكري الذي دس المخدرات أسفل الوسادة دفعها للداخل في غلظة لتسقط على ظهرها قبل أن يغلق عليها الباب، ذلك الباب الذي ظلت قابعة خلفه ثلاثة أيام تكاد تموت من الخوف والرعب، تنتظر عودة والدتها ليل نهار بلا طائل، تمكنت بالكاد بالاتصال بذلك القريب، الذي سمعت بنفسها رفض زوجته استقبال ابنة امرأة تتاجر بالمخدرات في بيتها فأغلقت هي الهاتف ولم تنتظر سماع اعتذاره بنفسها، قررت أن تخبر الجيران بما حدث ليساعدوا والدتها، ولكنها فوجئت بأناس لا تعرفهم، تنكروا لوالدتها التي كانت صاحبة فضل عليهم، والدتها التي لم تكن تترك مناسبةً إلا وكانت بجوارهم دائمًا، والدتها التي وقفت بجوارهم جميعًا في أزماتهم، الجميع

صدقوا عليها تلك التهمة الباطلة، وتنصلوا من معرفتهم بها، رأت وجوهًا غير الوجوه التي كانت تراها مع والدتها، رأت جحودًا وخسةً لم ترهم من قبل، وحدها تلك السيدة العجوز التي كانت تنعم ببر والدتها وعطفها هي من وقفت بجوارها واحتضنتها ورفضت هذا الهراء، وقامت بتوكيل عدة محامين للدفاع عن أمها وانضم إليها ذلك المهندس الذي تمت تبرئته بفضل والدتها، ولكنهم فوجئوا بانتحار والدتها بعد احتجازها لبضعة أيام داخل محبسها، أظلمت الدنيا أمام عينيها وقد أصبحت وحيدةً فجأةً في هذا العالم، لولا عناية الله بها فقد سخر لها هذا المهندس وألقى محبتها في قلبه فكفلها وأخذها إلى بيته واتخذها ابنةً له وأختًا كبرى لابنته الرضيعة وقتها، استقبلها أفضل استقبال هو وزوجته تلك السيدة التي تشبه والدتها كثيراً، والتي أولتها كل عناية ورعاية، ولم يبخلا عليها بشيء وأنفقا جهدهما في تربيتها تربيةً صالحة، واجتهد هذا المهندس في جمع المعلومات عن والدتها وظروف وفاتها، حتى وقف على أجزاء من الحقيقة، اكتملت الصورة تمامًا في عقلها عقب تعرض خطيبها ذلك الشاب الخلوق لنفس ما تعرضت له والدتها على يد نفس الضابط، لتتيقن من أن ما حدث لوالدتها كان مدبَّرًا من قبل ذلك الضابط المجرم الذي حظى بنصيب الأسد من دعواتها طيلة ثلاثة عشر عامًا.

***

فركت «ياسمين» كفيها في توتر، ربتت السيدة «سعاد» على كتفها وهي تقول في حنان: اطمئني سيكون بخير.. صنائع المعروف تقي مصارع السوء يا ابنتي، ليحفظه الله من كل شر، الآن أشعر بالسعادة لأجله فقد

حصل على زوجة تحبه بصدق.

انتفضت مكانها فربتت السيدة على كتفها وهي تقول: اطمئني أنتِ وحدك صاحبة الحق في إخباره متى تشائين.

زفرت في توتر، قلبها يكاد يتصدع من خوفها عليه، تتمنى أن تخبره بحقيقة مشاعرها، ولكنها تخشى أن تكون مشاعره نحوها هي مشاعر الإحساس بالمسؤولية عنها والشفقة على وضعها، قلبها يخبرها بأنه يكن لها الكثير من المشاعر، ولكن عقلها يأبى أن يصدق ذلك حتى تصله الحقيقة عبر أذنيها لا عن طريق قلبها.

***

انتهت الفتاة من روايتها، تأملها «هاشم» لحظات قبل أن يقول: سأحقق لكِ أمنيتك، سأجعل نهايته على يديك.

هتفت الفتاة في لهفة: حقًّا.. أريد أن أقتص لأمي ولكل المظلومين الذين دمرهم بظلمه، ولكل الأبرياء الذين قبعوا في السجون بتهم ظالمة ملفقة لأنهم تجرؤوا ووقفوا في طريق الكبار، لقد تابعته عن كثب وتابعت جرائمه، ولكنه وغد حقير لا يترك دليلاً خلفه، ينفذ جرائمه بمهارة.

ابتسم «هاشم» في مرارة هامسًا: كيف تريدين أن تكون نهايته؟

برقت عينا الفتاة وهي تجيب: علمت من أحد العساكر الذين كانوا في الخدمة وقت قتل أمي أنها وقفت في وجهه بكل صلابة وهي تقول: أسأل الله تعالى أن يجعلك تتمنى الموت فلا تجده.. صمتت لحظة وهي تتابع: أريد أن أحقق دعوة والدتي، لقد دخلت كلية الطب تحديدًا لأجل يومٍ كهذا.

قال «هاشم » في حسم: انتظري مني مكالمة لإنهاء هذا المجرم.

***

توقفت سيارة «هاشم» أمام فيلا «عاصم»، ألقى نظرةً سريعةً على سيارة «آسر» التي استقرت على يسار البوابة الحديدية، عاد يلقى نظرة تقييمية على الحديقة الواسعة نسبيًا التي حوت الكثير من أشجار الزينة والنباتات العطرية، فحمل الهواء داخلها أريجًا يبعث الراحة في النفس، ذكرته بالأرض التي نشأ فيها في قريته الصغيرة حيث النقاء والصفاء اللذان أورثهما لابنه الوحيد، تلك الصفات التي لم تمكنه من الحياة على الأرض وسط الوحوش، فانتقل إلى السماء حيث تشبه روحه ألوانها الصافية، عَبَرَ السلالم الرخامية المؤدية إلى البهو الداخلي للفيلا،استقبله «عاصم» بترحاب بالغ وهو يقوده إلى حيث جلس «آسر» يحتسي قهوته، تحلقوا حول مائدة مستديرة تراصت فوقها بعض الصور الفوتوغرافية وبعض الأوراق تحوى إحداها رسمًا كروكيًّا ومغلفًا أزرق اللون، وضعه «عاصم» بعناية على مائدة صغيرة مجاورة وهو يقول في غموض: سيكون هذا هو النهاية.

***

النهاية هي الأهم لديه في كل شيء، فهو اعتاد أن تكون نهاية الأشياء والأشخاص بيده، لقد وضع كلمة النهاية على حياة الكثيرين، وحان الوقت ليضعها على حياة غريميه، بعدها سيصحب ياسمينته معه إلى نهاية العالم، سواء شاءت ذلك أم أبت، سيكف عن ديمقراطيته ولن يمنحها هذه المرة فرصة الاختيار، ياسمينته التي أحبها لأنها كانت على النقيض من والدته

التي كره ضعفها دومًا، أحب فيها قوتها المستترة خلف براءتها، هو نفسه اختبر قوتها الحقيقية حين حبسها في بيته وحين حبسها في سجنه، إنها امرأة قوية للغاية، الآن هو يكره قوتها تلك، لقد ساعدها على اكتشاف قوتها بغبائه، فأحيانًا القهر يفجر القوة التي لا يظن المرء أنه امتلكها يومًا.

***

صفق «هاشم» بيديه في إعجاب وهو يوجه كلامه إلى «عاصم» قائلًا: أنت عبقري.. بهذه الخطة سنتخلص من الجميع بضربة واحدة، ستجعل الذئاب تفترس بعضها أولًا.. صمت لحظةً وهو يتابع في حقد: ولكنَّ «خالدًا» هذا لي أنا فقط.

علق «آسر» في رجولة: بالطبع فهذا ثأرك وستأخذه بالطريقة التي تناسبك، كل دورنا في الأمر أننا سنعمل على أن يصل إليك سالـمًا.

قال «عاصم» في مكر: سيصلك قطعة واحدة، سأكون حاضرًا وقت التسليم، ولكن يجب أن لا يكون هناك سوانا.

رفع «هاشم» رأسه قائلًا: لن يكون هناك سوى خطيبة ابنى، فهى أحق الناس به.

ضاقت حدقتا «آسر» في شك وهو يهتف في استنكار: ستصحب فتاةً معك في شيء كهذا؟

أجابه «هاشم»: إنه حقها وقد أعطيتها كلمتي ستكون نهايته على يديها، وهي أيضًا تريد أن ينتهى الأمر كما يريد «عاصم» بالضبط.. دون إراقة دماء.

***

تطلع «عاصم» إلى ذلك المغلف الأنيق الذي استقر فوق مكتبه، فضه

في سرعة و«حمدي» يقف بجواره، ألقى نظرةً على محتويات المظروف الذي حوى ورقةً صغيرةً مطويةً بعناية، كانت رسالة من «شوقي» مختصرة للغاية سأنتظرك في المقطم في تمام التاسعة مساءً لتحصل على ما تريد وأحصل أنا على ما أريد.

ملاحظة: لا تتصل تليفونيًا فالهواتف مراقبة فقد لعب الثعلب لعبته الأخيرة.

قال «حمدي» في دهشة: هل سيتخلص منه بهذه السرعة؟ حقًا لا يفل الحديد إلا الحديد.

قال «عاصم» في تفكير: لقد اختصر «خالد» علينا الكثير من الوقت، اذهب بهذا الخطاب إلى مكتب «شوقي»، وابق مراقبًا لـ«شوقي» طيلة اليوم ولا تفارقه، واصحب «رجب» معك.

ردد «حمدي» الاسم في دهشة، فقال «عاصم» في غموض: سأخبرك.

***

تطلع «شوقي» في دهشة إلى تلك الرسالة التي أطلعه عليها «حمدي» وهو يقول: لم أرسل شيئًا.. يبدو أن «خالدًا» يسعى للتخلص من كلينا.

قال «حمدي» وهو ينصرف في سرعه: هذا ما يظنه «عاصم» أيضًا.. لا اتصالات تليفونية ولا رسائل ولا أي وسيلة للقاء بينكما حتى ينتهي أمره.

أومأ «شوقي» برأسه موافقًا.. تابعه ببصره لحظةً، تمتم في غل: لقد عجل بنهايته، يبدو أنك قد قررت أن يكون اليوم هو نهايتي، ولكني سأجعله آخر أيامك.

قالها وهو يرفع سماعة هاتفه، انتظر لحظات حتى أتاه صوت محدثه

فقال في سرعة: أرسل الملف الذي أرسلته إليك إلى مكتب وزير الداخلية.

ثم حمل ملفًا صغيرًا وهو يتجه به إلى مكتب مدير الأمن.

***

خطا «عاصم» إلى مكتب «آسر» في تردد، إنها المرة الأولى التي يزور فيها مكتبه، صحيح أن «آسر» يساعده بكل طاقته ولكنه يشعر بالصراع الدائر داخله، لا يمكنه أن يتعامل معه بشكل طبيعي، أحيانًا يرى في عينيه كم هو بحاجة إليه، وأحيانًا أخرى يرى نبتة «رستم باشا» تثمر فيهما، وتفوح رائحتها من لسانه، وعليه أن يساعده في اجتثاث تلك النبتة من داخله، فهذا دوره وواجبه نحو أخيه، خاصةً بعد أن علم من «جيهان» بالسبب الحقيقي لانفصاله عن زوجته، شعر نحوه بالعطف والود، كم تغيرت نظرته لأخيه الذي كان دائمًا يراه الفتى المدلل لجده، ها هو يكتشف الرجل الحقيقي بداخله، ها هو يرى أخاه الصغير الذي صار رجلًا بحق، رجلًا تغلب حبه على أنانيته وتغلبت رجولته على رغباته، ليمنح زوجته حريتها دون أن تطلبها، يشعر كم يتألم وسيسعى بكل طاقته لمساعدته دون أن يجرحه، ولكن عليه الآن أن يتخلص من أعدائه أولًا.

***

جلس شوقي أمام مدير الأمن وهو يقول في سرعة: المقدم «خالد» كما يعلم الجميع هو بمثابة ابن لي وقد كنت أتنبأ له بمستقبل باهر، ولكنني كضابط ولاؤه الأول لعمله، لا يمكنني أن أتستر على فاسد ولو كان فى منزلة ابنى، ولقد وصلني هذا الملف الذي يثبت تورط المقدم «خالد» في إحدى قضايا الفساد.

قالها وهو يضع ملفًا لا يحوى سوى عدة وريقات أمام مدير الأمن الذي تفحص الملف بعينيه في دهشة قبل أن يقول في احترام: أقدر لك إخلاصك وإعلاءك لمصلحة العمل فوق كل شيء.

رسم «شوقي» الأسى على ملامحه وهو يقول في حزن مصطنع: أتمنى أن يكون المقدم «خالد» بريئًا من هذا الاتهام.

نهض من مكانه بينما راحت عينا مدير الأمن تلتهمان سطور الملف في سرعة.

***

انتهى «عاصم» من شرح خطته بالكامل فقال «آسر» في ضيق: أرى أنك وضعتني في مقاعد المتفرجين.

قال «عاصم» في حنان: بل أبقيتك سندًا لي.. فإذا سارت الأمور بشكل معاكس أريدك أن تعتنى بابنتي وزوجتي.

شعور عارم بالقلق اجتاح داخله، وجزء منه يرفض ما يقوله «عاصم»، هتف في استنكار: ما هذا الهراء؟ لن يحدث لك شيء، ولن يرعى «سيليا» سواك.. صمت لحظةً وهو يتراجع أمام عيني «عاصم» المتفحصة، لمح تلك الابتسامة التي لمعت بعينيه، فقال ليهرب من الفخ الذي وقع فيه: هل تزوجت؟

- نعم تزوجت «ياسمين».

- مبارك.. أتمنى لك السعادة.

- أشكرك كثيرًا على ما فعلته معي، أنت أخي الوحيد ولن أأتمن أحدًا غيرك على ابنتي وزوجتي، عدني أن تجعلهما في رعايتك.

- هل تثق بي إلى هذا الحد؟

- بل أبعد من هذا الحد أنا أأتمنك على روحي نفسها، فأنت أخي الوحيد.. وكلانا عانى بذنب لم يقترفه.

تطلع إليه «آسر» لحظات وصراع داخلي يمزقه قبل أن تنتصر فطرته السوية على أحقاد بلا جذور وهو يقول كمن ينهى صراعًا: سأكون سندًا وعونًا لك، وأمانتك في عنقي ما حييت.. فأنت أخي الوحيد.

علت شفتي «عاصم» ابتسامة راحة، فقد حصل الآن على سنده وعضده، يمكنه الآن أن يدير ظهره، فقد أصبح هناك من يحميه.

***

انطلق «شوقي» إلى منزله الآمن منتشيًا بنصره فما هي إلا ساعات ويتم القبض على «خالد»، ولكنه لن يمنحه الفرصة فسيتم قتله لحظة إلقاء القبض عليه، حتى لا يجد الوقت ليفتح فمه بكلمة، وبينما يلفظ أنفاسه الأخيرة يكون هو على متن الطائرة المتجهة به إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليهنأ بتقاعد مريح بكل ما جمعه من أموال حيث يمكنه البقاء برفقة ابنه الذي يخضع للعلاج من الإدمان بالخارج، والذي أشاع بين الجميع أنه يدرس بإحدى الجامعات الأمريكية.. أكثر ما يؤلمه أنه قد حُرِم من الفرصة التي انتظرها كثيراً وهي الانتقال لجهاز أمن الدولة، حيث السلطة المطلقة، ومعلومات عن الكبار بلا حدود، ولكنه الآن لم يعد لديه خيار فإما أن يفر بجلده ويهرب بغنائمه، أو يفقد كل شيء.. دقائق ويصل إلى ذلك المكان الذي لا يعرفه سواه، ذلك المكان الذي يحمل داخله كل عمره، يضع فيه كل ما جمعه طوال سنين عمله، لم يكن يسمح لأحد أن يضع مالاً في حسابه حتى لا يكون هذا دليلاً ضده

فيما بعد، فاشترى تلك الشقة وصنع فيها تلك الخزانة الحديدية التي بنى الجدار حولها فأصبح من المستحيل سرقتها، حرص طيلة عمره ألا يعلم أحد بمكانها، حتى ابنه الوحيد لم يعلم عنها شيئًا، منذ أسبوع وهو يقوم بتحويل المال منها لحساب ابنه في البنك على دفعات وبقي الجزء الأكبر سيقوم بإيداعه اليوم دفعةً واحدةً قبل سفره مباشرة، وسيقوم بتحويلها جميعًا لذلك الحساب البنكي بالخارج، يلوم نفسه الآن على إنشائه تلك الخزانة، كان من الأجدر به فتح حساب سرِّي في أحد بنوك سويسرا، ولكن لا مشكلة فالمال الآن بين يديه وهو كفيل بإصلاح كل شيء.

***

راقب «حمدي» تلك البناية التي دخلها شوقي منذ دقائق، تبعه «خالد» حاملًا كعكة عيد ميلاد كبيرة أخفت نصف وجهه وتكفلت تلك القُبَّعة بإخفاء النصف الثاني، أشار «حمدي» إشارةً مبهمة لرجل يرتدي زي أحد المطاعم الشهيرة ويخفي نصف وجهه بقبعة تحمل علامة ذلك المطعم، ترجل الرجل من دراجته النارية وهو يحمل علبة وجبات سريعة تحمل علامة ذلك المطعم ليتبع «خالدًا» إلى داخل البناية.

***

انتهى «شوقي» من جمع أمواله ووضعها في تلك الحقيبة، فتح الباب ليخرج، ولكنه ارتد للخلف وهو يحدق في وجه «خالد» الذي وقف ممسكًا بكعكة عيد ميلاد كبيرة قائلًا في لهجة مسرحية: «Happy birth day».

هم «شوقي» بإغلاق الباب ولكن «خالدًا» كان أسبق وهو يدفعه للداخل ويغلق الباب خلفه، قائلًا في برود: إلى أين؟

قبض «شوقي» على الحقيبة بقوة كأنما يقبض على حياته وهو يقول في حذر: كيف وصلت إلى هنا؟

تجاهل «خالد» سؤاله قائلًا في برود: اليوم هو عيد ميلاد أبى الروحي، وقد وجب على الاحتفال به..لذا أحضرت له كعكة عيد الميلاد بيضاء اللون ككفن الموتى الذي سأضعه به.صمت لحظةً وهو يلقي نظرة استخفاف على الحقيبة في يده قبل أن يتابع: الجرذان أول من يغادر السفينة الغارقة.

سحب «شوقي» مسدسه في سرعة وهو يصوبه إلى «خالد» قائلًا: لم أكن أود قتلك ولكنك مصمم.

قالها وهو يطلق عدة طلقات متتالية من مسدسه الكاتم للصوت، أصابت صدر «خالد» الذي حدق فيه لحظات بذهول قبل أن يسقط على وجهه.

***

فتح «فكري» عينيه يبحث عن زوجته، لم يجدها بجواره، هم بالنهوض ليبحث عنها ولكنه فوجئ بدخولها الغرفة في أبهى صورة هامسةً بابتسامةٍ ساحرةٍ: انتظرني دقائق، سأعود سريعًا.

استرخى في فراشه، يحمد الله أن رزقه بزوجة صالحة مثلها، راح يقارن بين زفافه الأول وزفافه البارحة، كان الأول باذخًا مبهرًا ولكنه يفتقد الصدق، أما بالأمس فقد أصرت «إيمان» على إقامة حفل الزفاف بأقل التكاليف وتوفير النقود للتصدق بها على الفقراء والمساكين وتجهيز عرائس أيتام وقضاء ديون بعض الغارمات، وعللت ذلك بأن يكون زفافهما بركةً على من حولهم فيعود ذلك بالبركة عليهما في حياتهما، ولكنها مع

ذلك لم تحرمه من بهجة الزفاف فأقامت حفلاً رائعًا في أحد الحدائق وقامت بدعوة أهل الحي كلهم، كان اليوم جميلاً ورائعًا، مضى كحلم جميل، أفاق من شروده على صوتها وهي تناديه في دلال فطري وتضع أمامه على الفراش مائدةً صغيرةً حوت إفطارًا شهيًّا، فقال في مرح: ما هذا هل سأتناول الإفطار في الفراش، لم أعتد على هذا الدلال!

مسدت كتفيه برفق وهي تحيطه بحنانها قائلة في حب: حان الوقت لتعتاده.

استسلم ليديها الناعمتين وهو يستدير ليحتويها بين ذراعيه، وفى داخله يحمد الله أن رزقه بها.

***

ألقى «شوقي» نظرةً محتقرةً على «خالد» الذي سقط على وجهه أرضًا وهو يتخطاه قائلاً في غضب: أنا من صنعتك أيها الحقير، ولذا كان عليَّ أن أنهيك.

تخطاه فى سرعة، انحنى يلتقط حقيبته، استقام ليجد يدًا تحيط بعنقه وصاحبها يشدد من ضغطه على عنقه وهو يقول: وأنا التلميذ الذي تفوق على أستاذه حتى استطاع أن ينهيه.

جحظت عينا «شوقي» في ذهول وهو يهتف بصوت متحشرج: كيف؟ لقد أطلقت عليك النار.

أطلق «خالد» ضحكةً عاليةً: خادمك المخلص يعمل تحت إمرتي، وبما أنني أحفظك جيدًا، فقد أمرته بحشو مسدسك بطلقات فارغة.. وأنا لن أكون بنفس حقارتك وأطلق عليك النار، بل سأذبحك بيدي هاتين، سأمنحك شرف

أن تكون أول شخص أقتله بيدي.

همس شوقي بصوت مختنق وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة: لن تنجو بفعلتك وسيتم إعدامك.

دس «خالد» بعض الأوراق في جيبه قائلًا في سخرية: لقد رتبت كل شيء جيدًا، هذه الأوراق تحوى معلومات عن ابنة «عاصم» التي تم اختطافها من ألمانيا، وستشير أصابع الاتهام إليه خاصةً حين أتولى أنا التحقيق بنفسي لأثبت أنك كنت تبتزه، وأنه قتلك ليخفي أمر ابنته، وبذلك سأكون قد ضربت عصفورين بحجر واحد.

قالها وانطلقت ضحكاته عالية مصحوبة بصرخة «شوقي» الأخيرة.

***

صرخت «فريدة» في قهر وهي تطيح بكل ما أمامها، عادت تتأمل تلك الصور الفوتوغرافية التي التقطت في زفاف زوجها الذي بدا سعيدًا للغاية، لم تتصور أنه قد يبدو سعيدًا برفقة امرأة غيرها، لم تتخيل يومًا أنه قادر على الابتعاد عنها، كان بالنسبة لها أمر مُسَلَّم به، عاملته كجزء من ممتلكاتها، تدرك الآن خسارتها الفادحة، تدرك الآن كم أحبته، آلمها كثيراً أن تراه سعيدًا مع امرأة لا تقارن بها، لا تدري ما الذي أعجبه في تلك المرأة القصيرة المائلة للبدانة، ينظر إليها في الصورة كأنما ملك الدنيا بأسرها، لم تتصور أنه قد ينسى حبه الكبير لها ويغلق قلبه دونها ويلقي بمفاتيح قلبه في بحر النسيان، كفكفت دمعها وهي تلملم جراح كرامتها فكبرياؤها أهم كثيراً من قلبها الجريح حتى لو سالت دماؤه لتغطى الكون بأسره، فهي لن تلتفت لقلبها، فلن ينفعها أن تنادي حبيبًا لا يسمعها، ولا أن تحن لرجل ألقى بها خلف ظهره، إنها حفيدة «رستم باشا» وستظل كذلك إلى الأبد، لن يكسرها

قلبها ولن تحني رأسها لرجل فرَّط فيها، ولن تقبله ثانيةً حتى لو عاد إليها متذللًا متوسلًا، فهي لا تلتقط قط ما سبق وألقته، وهي لا تسمح لأحد خرج من حياتها بالعودة مرةً أخرى.

***

انطلق «خالد» عائدًا إلى ذلك الفندق الشهير الذي رتب فيه لقاء مجموعة من رفاقه في العمل ليكون دليل غياب مناسب في حال تم الزج باسمه في الجريمة، ألقى نظرةً على الحقيبة التي تحوي كل أموال شوقي، لقد نجح نجاحًا باهرًا، تخلص من غريميه بضربة واحدة وحصل على المال مكافأةً له على ذكائه، انطلق بسرعة كبيرة، تملكته النشوة وهو يشعر أنه قد ملك الدنيا بأسرها، فجأةً اعترضت طريقه سيارة نقل كبيرة قادمة من الاتجاه المعاكس، مالت السيارة نحوه بغتة كأنما فقد سائقها سيطرته عليها، حاول أن يتفاداها فاصطدم بجانب الطريق، وكان آخر ما رآه هو تلك السيدة ذات الثياب البيضاء وهي تتجه نحوه وإن بدت ابتسامتها هذه المرة أكثر اتساعًا، اقتربت منه أكثر مخترقةً حجب الضباب الذي راح يحيط بعقله فبدت ملامحها هذه المرة واضحة، أصبحت واضحةً لدرجة أنه ميزها على الفور، وقفز اسمها يضيء عقله، فهي من أول قضاياه التي نفذها وقتها بنجاح، إنها «خديجة رفعت»، كان اسمها هو آخر ما عبر عقله قبل أن يسقط في تلك الدوامة الضبابية.

***

دس عامل توصيل الطلبات أداة صغيرة في ثقب باب الشقة التي خرج منها «خالد» منذ ثوانٍ معدودة، فتحها في سهولة ويسر، فقد كانت تلك مهنته

لسنواتٍ عدة قبل أن ينقذه «حمدي» قريب أبيه من السجن لخمسة عشر عامًا خلف القضبان ويلحقه بالعمل في إحدى شركات «عاصم أكرم»، ويساعده على أن يحيا حياةً كريمة، وقد جاء اليوم الذي يرد فيه الدين لـ «حمدي» الذي أخبره أن أحد المنافسين له يرغب في قتل شخص ما وإلصاق التهمة به عن طريق وضع مجموعة من الأوراق تحوي تفاصيل صفقة خاصة بعمله، كل ما عليه هو العثور على تلك الأوراق ووضع ذلك المغلف الأزرق بدلًا منها، وقف لحظةً يتطلع إلى جثة «شوقي» الذي ذُبح من الوريد إلى الوريد، ارتدى قفازًا بلاستيكيًا وأكياسًا في قدميه أشبه بما يرتديه الأطباء داخل غرف العمليات، امتدت يده في سرعة وخبرة تسحب الأوراق الخاصة بـ «عاصم» من جيب القتيل الذي جحظت عيناه، وضع بدلًا منها مظروفًا أزرق اللون، أسرع يفتش الشقة في سرعة وخبرة دون أن يترك أى أثر، لم يعثر على شئ يُذكر فاتجه نحو الباب، وقف خلفه لثوانٍ يتأكد من عدم وجود أحد بالخارج، قبل أن يخرج في سرعة ويخلع قفازاته التي دسها في جيبه ويستقل المصعد في سرعة، تاركًا «شوقي» مضرجًا في دمائه.

***

حدقت «ياسمين» في «عاصم» الذي أولاها ظهره وهو يقف أمام النافذة صامتًا بعد أن أخبرها بقتل «خالد» لشوقي ودسه الأوراق الخاصة بـ «سيليا» في جيبه، وأنه خطط ليتم اتهامه بقتله

انهمرت الدموع من عينيها وهي تهتف: أنا السبب.. ليتني مت قبل أن أتسبب لك بهذا، ليتني ما ذهبت إلى قصرك قط.

استدار نحوها وهو يهمس في إشفاق: اعتني بـ «سيليا» جيدًا.

رفعت رأسها نحوه قائلةً في عزم: لن يعتني بها سواك، سأذهب إلى النيابة وأعترف بأنني أنا من قتله، وأنني قد وضعت هذه الأوراق بناءً على أوامر من «خالد».

تطلع إليها لحظةً فى صمت، شعور جارف يغمره وهو يسمع بنفسه حبها المستتر خلف كلماتها، كاد يخبرها أن الأمر قد انتهى ولكنه سيدفعها دفعًا للاعتراف، لن يهدأ باله حتى يسمعها منها، قال في هدوء: لقد انتهى أمر «خالد» لقد أصبحت الآن حرة، يمكنك الآن أن تفعلي ما تشائين.

لم يعنها أمر «خالد»، لم تسأل حتى كيف انتهى، كل ما يعنيها هو ذلك الواقف أمامها يطلب منها أن تتركه يواجه السجن وحده، هتفت في حدة: لا يمكنني أن أتركك في محنة كهذه بمفردك.

قال في مكر: لا تخشي عليّ، سأتخطى هذه المحنة، «لميس» ستكون بجواري.

تصاعدت أبخرة الغيرة أمام عينيها فأعمتها، شعور عارم بالسخط يملأ نفسها، مخالب من نار تمزق أحشاءها، احترقت أعصابها فاندفعت تقول في غضب: ولمَ ستقف هي بجوارك؟ ما الذي تمثله لك؟ هل هي زوجتك أم أنا؟

أجابها بنفس اللهجة الماكرة: انتِ ستقفين بجواري بدافع المسؤولية، أما هي فستقف بجواري بدافع الحب، وأنا الآن بحاجة للحب.

أعمتها غيرتها وتعاظم غضبها حتى صار كبركان انفجرت حممه فجأة وهى تهتف فى غضبٍ مجنون: هل تحتاج إلى حب تلك الشمطاء؟ هل ستحبك بقدر ما أحببتك؟ هل تلك المرأة قد تضحي بنفسها من أجلك

مثلما أنا مستعدة لأفعل؟ أنت حقًّا أعمى.. أنت تستحق أن تدخل السجن بتهمة الغباء. أنت...

أطلق ضحكةً عاليةً وهو يحيط وجهها بكفيه، تطلع إلى عينيها في حب: أخيرًا نطقتِ.. أتحبينني حقًا؟!

رفعت إليه عينين دامعتين تألق حبها فيهما خلف سحابة الدموع التي أغشتهما، احتواها في حب وهو يهمس: لو تعلمين حبيبتي كم انتظرت هذه اللحظة؟ لو تعلمين كم عانيت وأنا أرى حبك في عينيك، ولكنك تخفينه خلف جدار صلب، اصطدم به فأعود خائبًا أخشى أن أكون ما رأيته في عينيك هو انعكاس لحبي لكِ.

حدقت في وجهه بذهول تطلعت إلى عينيه اللتين امتلأتا بالحب وهو يتابع: أنا أحبك أنتِ فقط، لم أحب في حياتي سواكِ، لم أحب قبلك ولن أحب بعدك.

لم تصدق أنها سمعت بأذنيها اعتراف الرجل الوحيد الذي ملك قلبها، استكانت على صدره الذي شعرت أنه وطنها، بين ضلوعه وجدت مكانها الذي خلقت منه، ضمها إليه في قوة كأنما يخشى أن يفقدها، بينما احتوته هي بذراعيها في حب، انتقل الصمت بينهما حاملاً أجمل رسائل الحب الصادق.

الفصل العشرون

اقتربت منه تلك المرأة في بطء قذف الرعب في قلبه، إنه يتذكرها الآن بوضوح، إنها «خديجة رفعت»، تلك المهندسة التي لفق لها قضية مخدرات كانت كفيلة بإلقائها خلف القضبان لخمسة وعشرين عامًا على الأقل، كان سيتركها تواجه مصيرها، ولكنها كانت تمتلك قوةً عجيبةً وثباتًا يفوق الخيال، وعقلًا يخترق الحجب، استشعر خطورتها حين ألقى القبض عليها، لم يكن يفهم لم أصر الكبار على التخلص منها وليس سجنها فقط، لم يفهم ما الذي يثير رعبهم من امرأة إلى هذا الحد، كان يراها مجرد أرملة مهيضة الجناح تربي ابنتها بمفردها، لا عائلة خلفها ولا سند لها ولا ظهر، فما الذي يرهبهم منها إلى هذا الحد؟ لم يفهم حتى جلس يكتب المحضر أمامها، لم تهتز فيها شعرة، بل وقفت أمامه بثبات، فقط تتمتم ببعض الكلمات الخافتة، وتنظر إليه بسخرية أثارت سخطه عليها فصرخ فيها، ولكنها لم تهتز أو تكف عن تلك النظرة، لم تفعل شيئًا سوى أن وقفت أمام مكتبه بتحدٍ قائلة: قد لا يمكنني أن أثبت حقًا أنك من وضعت لي المخدرات في بيتي، ولكن ثق أن نهايتك ستكون بسببي.. ثم رفعت رأسها إلى السماء قائلة: اللهم إنه حرمني من ابنتي فاحرمه من أحب الناس إليه.. اللهم اجعله يتمنى الموت فلا يجده.

لم يدر لمَ أثارت دعواتها الخوف في نفسه، ربما للطريقة التي نطقتها بها، أو ربما لليقين الذي أخرجتها به من قلبها، لا يدرى لمَ شعر وقتها أنها اخترقت السماء، رسم على شفتيه ابتسامة استهزاء ليخفى بها خوفه، وهو يقول في سخرية: هل تعتقدين أننا سنصدق أنكِ مظلومة، أمامك خمسة وعشرون عامًا خلف القضبان لتثبتي براءتك.

قالت في سخرية أشد: خمسة وعشرون عامًا سأقضيها في الدعاء عليك، وثق بأنها لن تنقضي حتى يتحقق فيك دعائي.

أثارت كلماتها خوفه هذه المرة إلى أبعد حد، فصاح في غضب آمرًا بإخراجها.. وقد أيقن بخطورة امرأة مثلها عليه هو شخصيًا، فقرر تنفيذ أوامر الكبار بإعدامها قبل الانتقال إلى النيابة، فأصدر أوامره بانتحارها.

***

لم يشعرا كم مر من الوقت قبل أن يرسلها بين يديه وهو يربت على وجنتها في حب قائلًا بصوت يفيض حنانًا: عندما ينتهي هذا الأمر سأقيم حفل زفاف يليق بعروسي الجميلة.. سأذهب الآن وستذهبين إلى قصر المزرعة، لقد طلبت من «جيهان» أن تصحب «سيليا» وتسبقنا إلى هناك.

همست في قلق: وأنت؟

قبل جبينها في حب وهو ينهض قائلًا: سأنهي بعض الأمور وألحق بكم.

رافقته حتى الباب، تصحبه دعواتها، لا تصدق أنها حصلت على قلبه وأنها ستصير زوجةً حقيقيةً له، إنه فارسها الذي انتظرته طويلًا، إنه حب حياتها الذى عثرت عليه أخيراً، شعرت بنفسها كطير حر طليق يُحلق فى

سماء صافية، فجأة وجدت نفسها تهوي من سماء الحب العالية إلى أرض الحقيقة المفزعة، فدائمًا ما تهاجمنا المخاوف حين ترى السعادة تقترب.

***

فتح «خالد» عينيه وهو يتطلع إلى تلك الغرفة الرمادية اللون التي رقد على السرير الوحيد بها، تطلع في ذعر إلى الوجوه التي أحاطت به، ميز وجه «هاشم الشوباشي » على الفور بينما وقفت بجواره فتاة شابة تشبه إلى حد بعيد تلك المرأة التي تزوره في حلمه، اقترب منه «هاشم» قائلًا في تشف: ابني يرسل إليك تحياته من العالم الآخر.

قال في خوف: ابنك كان مذنبًا، وأنا كنت أؤدي واجبي ولا يوجد أي دليل أنى ارتكبت مخالفةً واحدة.

هوى «هاشم» على وجهه بصفعة قوية أسالت الدماء من وجهه وهو يقول في لهجة مخيفة: ومن قال أنني بحاجة إلى دليل.

تراجع إلى الخلف خطوة وهو يفسح المجال للفتاة الشابة التي وقفت بجواره، تأملته لحظات قبل أن تقول فى لهجة عملية: دعني أعرفك بنفسي أولًا.. أنا ابنة السيدة «خديجة رفعت».. أنا ابنة تلك المرأة الطاهرة التي ألقيت القبض عليها أمام عيني ابنتها الصغيرة، لا لذنب جنته، سوى أنها أصرت على قول الحق وشهدت ضد أحد الكبار، وقد دفعت ثمن كلمة الحق غاليًا، فقد قمت أنت باقتحام منزلنا كالثور الهائج، وقام أحد رجالك بدس المخدرات تحت وسادة أمي التي كانت تصلى وقتها، وتظاهرت أنت ورجالك بالتفتيش وقمتم باستخراجها، وقفت تلوح وقتها بما دسه رجُلك كأنما حصلت على كنز ثمين، وعندما لحقت بك وأخبرتك أن العسكري هو من وضعها تحت

وسادة أمي، نهرتني وصفعتني صفعةً أدمت شفتي وأراقت كرامتي، والعسكري يغلق الباب خلفه تاركًا طفلةً صغيرةً وحدها في ظلام الليل وظلام الظلم، بقيت ثلاثة أيام وحدي، أكاد أموت من الخوف والرعب وأنا أنتظر عودة والدتي، احتضن صورتها كل ليلة وأظل أبكى وأنا أتذكر وجهها لحظة أخذك لها، ظللت ثلاثة أيام أسأل الله عز وجل أن يجعل نهايتك على يدي، وها قد استجاب الله دعائي.

تطلع إليها في رعب وهي تقترب منه ليرى في وجهها صورة تلك السيدة، تحسست عنقه لحظة، همست فى لهجة مخيفة: أنا لن أقتلك، فنحن لسنا مثلك، ولقد أقنعت عمى «هاشم» بأن قتلك رحمة بك، وأنه لا يجب أن يلوث يديه بدم فاسد مثلك.. ولكنى سأجعلك تحيا كالأموات، سأجعلك تتمنى الموت كل لحظة، وأتمنى من الله ألا تجده.

هتف في رعب: ماذا ستفعلين؟

أجابته في هدوء: لقد دخلت كلية الطب و تخصصت في جراحة المخ والأعصاب لأجل هذه اللحظة، لقد حرمتني من أمي ومن خطيبي «إياد» ذلك الذي ألقيت به في سجنك وقتلته وادعيت انتحاره، تخيل ما الذي يمكنني فعله بك وقد فقدت أغلى اثنين في حياتي بسببك.

صاح في ذعر: لن يمكنك الإفلات بفعلتك، ستحاسبين، اتركيني أرحل وأنا لن أتسبب لكِ بأي أذًى

أطلقت الفتاة ضحكة عالية وهي تقول في سخرية مريرة: هل هناك أذًى أكثر مما سببته لي؟.. هل تظن أنك لا زلت تملك سلطتك، سيتم فصلك من عملك يا هذا، صدقني لقد جاء وقت الحساب لتدفع ثمن جرائمك، وأثق

في عدل الله أنك ستسدد باقي الحساب كاملاً في الآخرة.

صاح في رعب: سامحيني لم أكن أقصد إيذاءك.. امنحيني الفرصة لأكفر عن ذنبي، سأفعل كل ما تريدون.

قال «هاشم» في لهجة مخيفة: أعد الموتى للحياة وسنسامحك، أعد لي ابنى وأعد لها والدتها.

***

ألقت «ياسمين» بنفسها على الفراش، سالت دموعها غزيرة كمطر منهمر، هاجمتها مخاوفها مرةً أخرى، ماذا لو علم بحقيقتها، ماذا لو علم أنها عاقر، لا يمكنها أن تخفي عنه أمرًا كهذا، هو لا يستحق أن يقضي بقية عمره مع امرأة مثلها، ولكن هل تستطيع هي فراقه؟ هل تستطيع الابتعاد عنه؟ إنها تحبه بعمق، ستخبره وسيجدان حلاً معًا، لا يمكنها التنازل عنه بسهولة، كما لا يمكنها أن تفرض عليه أن يحيا حياةً جافَّةً بلا إنبات، ستترك له الخيار، وسترضى بقراره مهما كان، وعليها أن تتقبل النتيجة فهو يستحق أن تضحي من أجله.

***

«توقفوا» نطق «عاصم» بذلك الأمر وهو يخطو داخل تلك الغرفة الرمادية، توقفت يد الفتاة قبل أن تمتد إلى عنقه، تطلع «خالد» إلى «عاصم» الذي جلس أمامه في هدوء، أغلق «خالد» عينيه في ألم وهو يقول: ماذا تريد أنت أيضًا؟

سأله «عاصم» في هدوء لا يتناسب مع الموقف: ما الذي فعلته في منزل «شوقي»؟ هل قتلته؟

أجابه في شماتة: نعم وسيتم اتهامك بذلك؟

قال في برود: وكيف سيتم إثبات ذلك؟

أجابه في تشفٍ: لقد وضعت الأوراق التي تحوي كل المعلومات عن ابنتك في جيب القتيل، وعند تفتيشه ستجد النيابة أن الدافع للجريمة موجود وأنك قد قمت بقتل «شوقي» للتخلص من ابتزازه لك.

قال «عاصم» في غموض: لقد أصبت في حادث سيارة قد يتركك قعيدًا، فلقد تضرر عمودك الفقري بشدة وقد أنقذناك، فهل هذا جزاؤنا؟ هل نستحق في النهاية أن تورط بريئًا في جريمة قتل أنت مرتكبها؟ يجب أن يتم تقديمك للعدالة.

حدق في وجهه لحظات بدهشة، قبل أن يفهم ما يحدث فجأةً حين أطفأت الفتاة الكاميرا التي سجلت اعترافه بها، و«عاصم» يقول في هدوء: لدينا اعتراف كامل منك بقتل «شوقي» ومحاولة توريطي، ستخبرنا بتفاصيل الجريمة كلها وإلا ستجد الشريط الذي يحوى اعترافك أمام النيابة غدًا.

انهار «خالد» وهو يروي تفاصيل جريمته الكاملة.

***

تعلقت «سيليا» بعنق «ياسمين» في سعادة وهي تغمر وجهها بالقبلات، تأملت «ياسمين» القصر في شوق، تلفتت الصغيرة تبحث عن أبيها، طمأنتها أنه قادم في الطريق، ألقت نظرةً متسائلةً على السيدة «سعاد» فأجابتها «ياسمين» في سرعة: إنها خالة والدك، يمكنك مناداتها جدتي.

هرعت الطفلة نحوها، تعلقت بعنقها فى براءة فانهمرت الدموع من

عينيها وهي تضم الصغيرة إلى صدرها في حنان، مسحت الطفلة دموعها وهي تقتادها إلى أريكة قريبة وتجلس برفقتها تربت على كفها

انطلقت الصغيرة تجرى في أرجاء القصر الذي افتقدته كثيرًا، جذبت «أحمد» الذي وقف يتطلع إليها في لهفة، وانطلقا يعدوان في الحديقة الواسعة يعيدان البهجة إليها بطفولتهما البريئة.

***

أنهى «خالد» اعترافه وهو يتوسل طالبًا الرحمة، نهض «عاصم» من مكانه قائلًا: حسنًا دعني أخبرك بما حدث، لقد دخل أحد رجالى الشقة عقب مغادرتك لها، ووضع مغلفًا أزرق اللون بجيب القتيل بدلًا من الأوراق التي تركتها أنت في جيبه، وإليك المفاجأة هذه الأوراق تحوى دليل إدانتك في جريمة لم ترتكبها، أي أنك ستدخل السجن في تهمة ملفقة.. صمت لحظةً وهو يهز كتفيه متابعًا في لامبالاة: الجزاء من جنس العمل.. والأموال التي حصلت عليها من «شوقي» سيتم توزيعها على ضحاياكم، وإليك المفاجأة الأكبر، لقد قام الرجل المسن الذي تحمل توكيلًا منه للتصرف في حسابه بسحب أمواله من البنك كاملة، ولقد قرر الرجل الكريم التبرع بها كلها لأعمال الخير.

حدق «خالد» في وجهه بذهول قبل أن يهتف في انهيار: أنت تكذب.. لا يمكنكم أن تأخذوا كل أموالي، سأدمركم جميعًا.

هوى «عاصم» على وجهه بصفعة قوية أدمت شفتيه وهو يقول: هذه لأجل «ياسمين» زوجتي.. كنت أريد أن أقطع يدك ولكن وجودها الآن سيؤلمك أكثر.

أنهى عبارته وهو يتحرك من مكانه ليفسح المجال للطبيبة الشابة قائلًا: إنه لكِ.

اقتربت منه الفتاة وهي تحمل مبضع الجراحين، أخذت تردد كأنما تذاكر درسًا من دروسها: تعتمد قدرتك على التحكم في أطرافك بعد إصابة الحبل الشوكي على العاملين الآتيين: مكان الإصابة على طول الحبل الشوكي وشدتها، وتكون الإصابة كاملةً في حالة فقدان الشعور والقدرة على التحكم في الحركة بالكامل في أسفل منطقة إصابة الحبل الشوكي، أي في تلك المنطقة.. قالتها والمبضع يقطع الحبل الشوكي لديه في المكان الذي أشارت إليه بينما هو مقيد إلى مائدة طبية أشبه بمائدة العمليات الجراحية.

تابعت الفتاة وهي تنظر إلى مبضعها الجراحي في ظفر وتكمل كلامها بنفس الطريقة كأنما تقوم بتسميع أحد دروسها قبل دخول الامتحان: وهذا يؤدى إلى شلل رباعي، ويعني هذا تضرر ذراعيك ويديك وجذعك وساقيك وأعضاء الحوض كلها بإصابة الحبل الشوكي لديك.. صمتت لحظةً وهي تمسك بإبرة رفيعة وتتابع بنفس الطريقة: Amyotrophic lateral sclerosis «التصلب الجانبي الضموري» وهو مرض غير قابل للعلاج يصيب العصب الحركي في الدماغ أو النخاع الشوكي، وتتزايد تأثيراته مع مرور الوقت، حيث تظهر أولى أعراضه كضعف وتغيرات في القدرة على تحريك عضلات الجسم، ثم يتطور المرض ليؤثر على العضلات المسؤولة عن التنفس، وهنا تشكل الحالة خطرًا على الحياة، ومن أعراض الإصابة بالمرض: ثقل اللسان، وضعف الأطراف، وصعوبة القيام بالأنشطة الطبيعية.. وهو ما ستعاني منه

طيلة عمرك، أي أنه لن يمكنك الكلام ولا الحركة.. ستتمنى الموت ولن تجده إن شاء الله.

سالت الدموع من عينيه وهو يكتشف أنه قد أصبح عاجزًا مدى الحياة والفتاة تتابع في تشفٍ: وهذه دعوة أمي.

انطلقت صرخته الأخيرة عالية، والفتاة تمد إبرتها نحوه، صرخته التي أدرك تمامًا أنها ستكون الأخيرة.

***

وقفت «ياسمين» في شرفة المكتب تتطلع إلى بوابة القصر في قلق، فقد وعدها أن يلحق بها سريعًا.. كاد القلق يفتك بها بعد مرور عدة ساعات قضتها واقفةً في شرفة مكتبه وعيناها مسمرتان على بوابة القصر الخارجية، حتى عبرت سيارته البوابة، وأطل منها وجهه الحبيب.

هرولت إلى الخارج تستقبله مصطحبةً «سيليا» معها، توقفت في منتصف السلم، كاد قلبها يتوقف وهي تتطلع إلى الرجال الذين ترجلوا من سيارته وأحاطوا به قبل أن تنطلق صيحتها مدوية في سماء الحديقة.

***

استقلت تلك الطبيبة الشابة السيارة بجوار «هاشم» الذي تنهد في راحة، همست في اهتمام: كيف تشعر الآن عمي؟

أجابها في هدوء: كما تشعرين الآن بالضبط.

تمتمت في شرود: قال أحد الأطباء إنه بعد ربع قرن من ممارسة مهنة الطب أستطاع أن يضيف أحد الأسباب الطبية لموت الإنسان ألا وهو الظلم.

- ألم تأخذك الشفقة به ولو للحظة.

- نعم للحظات فلم يكن من السهل عليَّ أن أتسبب بالأذى لأحد، ولكنى أعلم أن رحمة الظالم خيانة للمظلوم.

هز رأسه مؤكدًا على كلامها وهو يقول: ما الذي كان يريده «عاصم» منك؟

أجابته في غموض: أمر شخصي.

***

صرخت في فرح وهي تنطلق كالسهم لتتعلق بعنق أحد الرجال المرافقين لـ«عاصم» هاتفةً: «يحيى».

تحسست وجه أخيها الذي ترجل من سيارة زوجها، تعلقت بعنقه في سعادة وهي تضمه إليها في حب، عادت تتأمل وجهه في شوق إنه يشبه أبيها إلى حد بعيد بقسماته الوسيمة وطوله الفارع وجسده الممشوق وعينيه الدافئتين، انهمرت الدموع من عينيها، لا تكاد تصدق أنه يقف أمامها، حتى تنحنح الرجل الواقف بجواره الذي لم تنتبه له وهو يقول في مرح: هل نعود أدراجنا نحن؟

التفتت تحدق في الرجلين الواقفين بجوارهما وهي تتعلق بهما سويًا، لا تصدق أن أخوالها وأخيها قد حضروا، وأنهم بجوارها الآن!

احتضنت الأقرب إليها وهي تقبل يده هاتفةً: كيف حالك خالي.. نسيت كيف حالك «حسام»، لطالما زجرنا أبي لأننا نناديك هكذا، وكلما كانت أمي تخبره أنه طلبك أنت، كان يصر على أن هذا تجاوز لحدود الأدب.

قال «حسام» في تأثر: رحمه الله كان نعم الأخ ونعم الصديق.

وقفت «سيليا» تنقل بصرها بين الواقفين وقد بدت على وجهها أمارات

الدهشة، قدمتهم «ياسمين» لها حتى جاءت أمام أخيها فقالت في مرح: وهذا خالك المشاغب «يحيى».

حملها «يحيى» إلى الأعلى قائلًا: أنتِ من الآن صديقتي الجميلة ولستِ ابنة أختي فحسب، ولكني سأنهج نهج خالي «حسام» ستناديني من الآن «يحيى».

طبعت على وجنته قبلةً صغيرةً وهي تقول بلغة عربية متكسرة: حسنًا «يحيى» ماذا جلبت لي معك؟

ضحك «يحيى» قائلًا: نادني خالي أفضل.

اقتادهم «عاصم» إلى الداخل مُرحبًا وهو يقدمهم إلى أفراد أسرته، بينما أغلقت «جيهان» سماعة الهاتف وهي تنهى مكالمتها وتتحرك للترحيب بالضيوف، توقفت في منتصف البهو حين سمعت صوته الدافئ، تلك النبرة الحنونة التي تختلط بالقوة أعادتها عمرًا إلى الخلف، لا يمكن لأذنيها أن تخطئ صوته، تجمدت مكانها، توقف بها الزمن وهي ترفع عينيها لتصطدم بعينيه التي استقرت على وجهها، وكأنما دخلا في ثقب زمنى وعشرات الذكريات تتدافع إلى رأسيهما في آن واحد، شاركهما قلبيهما اللذين راحا ينبضان في قوة كأنما تحررت المشاعر المخزونة فيهما لسنين وانطلقت من عقالها، عشرات الرسائل التي تحمل مشاعر مختلفة تبادلاها بأعينهما، تطلع الواقفين إليهما في دهشة وقد تسمر كل منهما في مواجهة الآخر قبل أن ينهى «عاصم» الموقف في سرعة وقد أدرك أن «حسام» هو الرجل الذي حدثته عنه «جيهان» في إحدى المرات النادرة التي تحدثت عن نفسها فيها.

***

راقدًا على فراشه كجثة لا روح فيها، لا يمكنه أن يتحرك من مكانه حيث تركوه، لا يرافقه إلا شبح تلك المرأة التي كفت عن الضغط على عنقه ومحاولة إزهاق روحه، تأتى بثيابها البيضاء ترثي لحاله، أصبح يتمنى بقاءها، لا يدري هل انقضى اليوم الثالث أم لا، لا يدري كم مر عليه من وقت، ولكنه يثق بكلام تلك الطبيبة الشابة، فقد أخبرته أنه سيبقى ثلاثة أيام وحده كما بقيت هي، قبل أن يأتي أحدهم إليه، ما عاد قادرًا على متابعة الساعة بعينيه، الوقت يمر ثقيلًا، بطيئًا، يحاول أن يحرك لسانه ليصرخ عله يجذب انتباه أحدهم، ولكنه يشعر بثقل في لسانه كأنما يحمل جبلًا فوقه، يراقب زهرة الياسمين الساكنة في مزهرية زجاجية أسفل الساعة وهي تذوي كما يذوي جسده، تتدلى أوراقها كما يتدلى عنقه، تحتضر في صمت كما يتمنى أن يحتضر هو، ولكن هيهات يبدو له الموت أمنيةً بعيدة المنال.. ها هو حقًّا يتمنى الموت فلا يجده.

***

طرق «عاصم» باب الغرفة المجاورة لغرفته حيث تقيم حبيبته، أذنت له بالدخول، دخل كعاشق يلتقى حبيبته سرًا دون علم أسرتها، هرعت نحوه تلقى بنفسها بين ذراعيه، ضمها إليه في حب قائلًا: سنقيم حفل زفافنا غدًا، فلن أحتمل أن ابتعد عنك أكثر من هذا.

انهمرت دموعها من عينيها وهي تلتصق بصدره في قوة وكأنما تريد أن تختفى عن العالم بين ضلوعه، رفعت إليه عينين دامعتين، قالت كمن يلقى عبئًا ثقيلًا عن كاهله: أنت في حل من الارتباط بي، فأنا عاقر.. هكذا كشفت التحاليل التي أجريتها من قبل، يمكنك أن تتركني وأن تتزوج بأخرى تنجب لك الأطفال.

تطلع إليها لحظاتٍ في صدمة قبل أن يصيح في استنكار: هل تتخيلين أنني قد أرتبط بسواكِ.. صمت لحظةً وهو يضمها إليه في قوة قائلًا في حب: ألم أخبرك من قبل أنني لم أحب قبلك ولن أحب بعدك؟!

رفعت إليه رأسها في أمل وهي تقول في لهفة: أنت لن تتركني؟!

همس وهو يربت على ظهرها: وإذا تركت روحي فكيف أعيش؟

احتضنته في حب ودموعها تسيل من عينيها في سخاء، أرسلها وهو يمسح دموعها بيديه، قَبَّلَ جبينها فى رقة ثم قال فى حنان: لقد رزقني الله بزوجة رائعة وأمًّا صالحة لابنتي الجميلة، لا يعنيني إن أنجبتِ أم لا.. وما يدريك لعل هذا الوغد كان عقيمًا وقد زيف أمر التحاليل ليجعلك أسيرةً لديه..كما أن هناك علاجًا حديثًا أخبرتني عنه طبيبة شابة، يحل تلك المشكلة بالكامل.

أشرق وجهها في أمل قبل أن تسأل في شك: هل كنت تعلم بشأني وتسأل من أجلي؟

أجابها في غموض: لا؛ بل من أجل شخص عزيز عليّ.. صمت لحظةً قبل أن يتابع في حب: ألا ترين أن الغد هو يوم بعيد للزفاف..

أطرقت برأسها في خجل وهي تستكين على صدره وقلبها يخفق فى حب، ها هي ترى السعادة تقترب منها تكاد تمسكها بيديها حتى لا تفلت منها مرةً أخرى، تبدو لها السعادة الآن كالشمس، كلما تَقَدَمَت منها كلما ألقت بظل متاعبها خلفها.

***

اقترب «حسام» من «جيهان» التي جلست تحت تكعيبة «عاصم» المفضلة،

تذكر جلسته قبل قليل مع «عاصم» الذي نصحه أن لا يدع الفرصة تفلت من يده مرةً أخرى ووعده أن يسانده وأن يقنع إخوته بالموافقة على زواجه من والدتهم.

تنحنح في حرج وهو يستأذنها بالجلوس معها، توترت لحظات قبل أن تومئ برأسها موافقةً كمراهقة صغيرة تخشى أن يراها أحد معه، ابتدرها قائلًا: كيف حالك؟

أجابته بسؤال مماثل، ابتسم في حنين وهو يقول: كما أنتِ لم تتغيري.

قالت في سعادة وكأنما عادت زهرةً تتفتح على يديه من جديد: معك فقط أعود كما كنت، لكني في الواقع تغيرت كثيرًا.

همس في حب: ما رأيك أن نستكمل ما بدأناه منذ زمن؟

صاحت في حرج: لقد أصبحت جدةً، لا يمكن للزمن أن يعود.

تجاهل كلماتها التي تذكره بما فقده، وهو يقول: لقد حافظت على وعدي ولم أنسكِ، فلم أتزوج طيلة عمري، لم أستطع الارتباط بسواكِ، عشت كالميت على قيد الحياة، أعتقد أنه قد حان الوقت لأعود للحياة.

أطرقت برأسها وهي تغرق في بحار الحيرة.

***

تطلع «آسر» في دهشة إلى تلك الطبيبة الشابة التي خطت إلى داخل مكتبه في ثقة، رحب بها ترحيبًا كبيرًا وهو يشير لها بالجلوس، جلست على المقعد المواجه له، طمأنته على «هاشم» حين سألها عنه وهي تقول في راحة: ولكم في القصاص حياة.. صمتت لحظةً قبل أن تقول في لهجة مباغتة: هل تؤمن بالفرصة الثانية سيد «آسر».

قال في دهشة: ماذا تعنين؟

تراجعت في مقعدها وهي تقول في هدوء: أنا أؤمن أن الله تعالى يجازى العبد على عمله سواءً في الدنيا أو الآخرة.. كما أؤمن أيضًا أن الله يكافئ العبد الذي يقف في صف الحق ولا يرضى بالظلم خاصةً إذا لم يكن ممن مسهم الظلم بشكلٍ مباشر.

- ما الذي تسعين إلى قوله؟

- أنا أعشق مجال الطب، ويتنبأ لي أساتذتي بمستقبلٍ باهر، وأنا أبحث عن الجديد في كل التخصصات وليس تخصصي فقط.

- هل تريدين فتح مستشفى وتبغين دعمي فيها؟

- فكرة جيدة، أعدك أن أفكر فيها لاحقًا، ولكني أتيت لأدعوك إلى زيارة لمستشفى بالولايات المتحدة الأمريكية، تلك المستشفى تقوم بعملية جديدة، كشف علمي حديث يحل مشكلة الإنجاب خاصةً العقم لدى أحد الزوجين، تلك العملية تسمى «الحقن المجهري».

توترت عضلات وجهه وهو يقول في غضب: عم تتحدثين بالضبط؟

أجابته في إشفاق: أرى أن الطيبين يجب أن يحصلوا على فرصتهم كاملةً في هذه الحياة، وأرى أنهم سيكونوا آباء جيدين، فقط إذا تمسكوا بالفرصة الثانية.

قالتها وهي تضع أمامه مغلفًا قبل أن تنصرف.

تابعها ببصره لحظةً قبل أن يفض المغلف في شرود ليرى محتوياته التي لم تتعدى معلومات عن إحدى المستشفيات الأمريكية وسبل التواصل معها.

مع ورقة صغيرة كُتِبَ عليها بخط أنيق «جرب ولن تندم».

***

التفوا جميعًا في قصر «عاصم» حول حوض السباحة الذي عكس ألوان الإضاءة الجذابة، تعلقت أعين الجميع بـ «ياسمين»، رافقتها «جيهان» التي تألقت في فستان من الساتان الأسود ذو أكمام، زاد من ألقه عقد من الماس على جيدها الذي أخفاه جزء من الفستان، أمسكت «سيليا» بيدها وهي تحمل باقةً من الزهور، بدت الصغيرة رائعةً بفستان من الشيفون مماثل لفستان «ياسمين» التي أطلت بفستان عاجي اللون، مغطى بقماش الشيفون من اللون ذاته تناثرت عليه زهور أرجوانية صغيرة للغاية، ناسب تمامًا حجابها الأرجواني، أطلق «عاصم» صفيرًا منغومًا وهو يتأملها في إعجاب، خطا نحوها وفى عينيه نظرة عشق أربكتها وجعلتها تخفض عينيها في حياء، اقترب منها ليلتقط كفها ويقبلها في حب، ولكنها ابتعدت عنه في سرعة وهي تقول في حرج: دعنا حتى نسلم العروس لعريسها.. ألقى نظرةً سريعةً على أخته الجميلة التي بدت كالملائكة في فستان الزفاف الأبيض وهي تقترب وقد تعلقت بذراع «آسر» الذي سلمها إلى «عاصم»، سار «عاصم» بجوارها تجاه «مروان» الذي وقف ينتظر على الجانب الآخر من حوض السباحة، وقد استقرت خلفه تكعيبة مغطاة بالشيفون الأبيض حوت أريكة فضية فاخرة، أحاطت بها الزهور الملونة من ثلاثة جوانب فمنحتها مظهرًا رائعًا، همس «عاصم» لأخته الجميلة بكلمات قليلة، جعلتها تغرق في الضحك، اقترب من «مروان» الذي وقف منتظرًا على أحر

من الجمر، قَبَّلَ «عاصم» جبينها قبل أن يسلمها إليه وهو يوصيه بها، التقط «مروان» كفها منه قائلًا في مرح: لقد تلقيت كل الوصايا من كل من سولت له نفسه مصافحتي حتى العاملين في قصرك.

ضحك «عاصم»: إذًا سأعفو أنا عنك.. ولكن انتبه لها جيدًا لقد حصلت على جوهرة عائلة «أكرم».

قبض «مروان» على كفها وهو يقول في حب: لا يمكنك أن توصى رجلًا على روحه.

ابتسم «عاصم» في حنان وهو يغادرهما ليعود ويقف برفقة زوجته، زهرة الياسمين التي أزهرت في حديقة قلبه، والتي تكتنفها السعادة بحملها الجديد، لا زال يذكر وقت أن علمت بحملها كيف سجدت لله شكرًا على نعمته، وظلت تبكى من الفرحة حين تبين لها أن «خالدًا» قد خدعها، لازال يذكر كيف راحت تقفز بابتهاج حتى أوقفها وهو يحتويها في حب ليذكرها بأنها تحمل طفله في داخلها وعليها حمايته.

وقف «حسام» بجوار «جيهان» يهنئها بزواج ابنتها، أمسك بكفها فسحبتها من يده في حرج وهي ترميه بنظرة عتاب، فقال في غضب مصطنع: أنت زوجتي منذ أسبوع بالكامل، ولقد أجلت السفر لقضاء شهر العسل من أجل عرس عزيزتي «سارة» وهذا اعتراف مني بفضلها في إقناعك بالموافقة على الزواج..

قاطعه «عاصم» صائحًا في استنكار: «سارة» فقط هي صاحبة الفضل في هذا الزواج؟ وماذا عن دوري والخطة المحكمة التي وضعتها؟

هتفت «ياسمين» وهي تقلد زوجها: وماذا عن دوري أنا أيضًا؟

صاحت «سيليا» مقلدةً أباها هي الأخرى: وماذا عن دوري أنا أيضًا؟

ضحك «حسام» وهو يحملها قائلًا: وماذا كان دورك أيتها الجميلة؟

أجابت بابتسامة بريئة: ألم أقم بتهنئتكما؟!!

ضحك الجميع و«حسام» يقول: من شابه أباه فما ظلم.. ثم التفت لـ «ياسمين» وهو يتابع: لا تنظري إليه كثيرًا فلا نريد لطفلك أن يشبهه، يكفينا «عاصم» واحد.

تطلعت إلى زوجها في هيام هامسةً: أتمنى أن أنجب كتيبةً من الأطفال تشبهه.

أحاط «عاصم » كتفيها بذراعه في حب وهو يقول في فخر: هذه هي زوجتي.

هتف «حسام» في مرح: لقد أحرجتني ابنة أختي، الأمل معقود على «منى».

اقتربت «منى» ببطء يرافقها «آسر» الذي أحاط بها في حرص وهي تقول في هدوء: ماذا تقول عمي؟

ضحك «حسام » وهو ينظر للطريقة التي يحيط بها «آسر» زوجته قبل أن يقول: المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

أقبلت العروس في سرعة،توسطت زوجتي أخويها لتلتقط بعض الصور التذكارية معهما وهي تمزح قائلةً: سأحصل على صورة بينكما لأبدو الرشيقة الوحيدة بين امرأتين منتفختين.. من ستنجب منكما فتاةً ستسميها «سارة».

قال «عاصم» في مرح: ومن ستنجب فيهما ولدًا ستسميه «سارة» أيضًا.

قال «آسر» وهو يحيط كتفي «منى» بيده في سعادة: كفوا عن السطو على اسم طفلي القادم، لن أمنحكم الفرصة.

ضحكت «منى» وهي تتأمل زوجها في حب، منذ عادت إليه وسافرا سويًا إلى تلك المستشفى الأمريكية التي تلقت فيها أسعد خبر في حياتها، كاد زوجها يمس السماء حين علم بنجاح العملية وأن زوجته تحمل طفله داخلها، تحمد الله دائمًا أنه قد استجاب لدعائها وأعاد زوجها إليها، تحرص على الصدقة يوميًّا كما نصحتها «ياسمين» فقد صارتا صديقتين مقربتين.

اقتربت «سارة» من أمها وهي تقبلها في سعادة قائلة في مرح: الحمد لله أن مد في عمرى حتى اطمأننت عليكِ ورأيتك عروسًا.

لكزتها «جيهان» بمرفقها، فاحتضنتها «سارة» فى حب، تأملت «جيهان» ابنتها «فريدة» التي دخلت للتو برفقة زوجها الجديد «رأفت»، كانت تتأبط ذراعه وتسير على مهل وهي ترسم ابتسامةً زائفة على وجهها، وحدها يمكنها تمييز تعاسة ابنتها، تعلم كم يحبها «رأفت»، ولكنها أيضًا تعلم أن قلب ابنتها لم يمتلكه سوى «فكري». تشعر بالحزن لأجلها ولكن هي الجانية على نفسها بكبرها وغرورها وها هي تدفع ثمنه وحدها.

تعلقت عينا «فريدة» بـ«فكري» الذي دخل إلى الحفل تتأبط ذراعه زوجته الجديدة، بدا في غاية السعادة، هرع أولاده نحوه، حملهم في حب وهو يتجه نحو العروسين ويهنئهما في مودة قبل أن يأخذ مكانه بجوار إخوتها كأنه أحد أفراد العائلة، أشاحت بوجهها وهي تخفي غصةً في حلقها

قبل أن ترسم على شفتيها ابتسامةً زائفةً تخفي بها خسارتها الكبرى.

اقترب «يحيى» من العروسين مهنئًا ثم عاد أدراجه ليقف بجوار «حمدي» الذي تآلف معه في سرعة وأصبحا صديقين، تأمل «حمدي» الحاضرين وهو يقول في مرح: نحن العاقلين الوحيدين هنا.. الجميع سذج وقعوا في فخ الزواج.

ضحك «يحيى» قائلًا: هذا فخ لا بد منه يا صديقي.

تطلع «حمدي» إلى تلك الفتاة الغربية الملامح، ذات العينين الزرقاوين الصافيتين كسماء الصيف، والبشرة الصافية كالحليب، يكلل رأسها حجابٌ أنيقٌ يخفي أي أثر لشعرها، ترتدي ثيابًا فضفاضةً لم تستطع إخفاء رشاقتها، وقفت تهنئ العروسين برفقة خال «يحيى» وهو يقول في اهتمام: من هذه؟

تتبع «يحيى» عينيه لحظات قبل أن يجيبه في مكر: إنها «زينب» ابنة خالي «حسين»، أمها إيطالية مسلمة ولقد أحسن خالي تنشئتها فهى تحفظ القرآن الكريم كاملًا وأنهت دراسة الفنون منذ عام، وأعتقد أنها الفخ القادم.

ألقى عليه «حمدي» نظرةً ساخطةً، قبل أن ينفجر ضاحكًا وهو يقول: أهم مميزاتها أنها لا تشبه «عاصم».

أغرق كلاهما في الضحك قبل أن تلتقط «سيليا» يد«يحيى» وتطلب منه أن يرقص معها، راح يمازح الصغيرة ويعدو خلفها حتى اصطدم بتلك الطبيبة الشابة التي دخلت برفقة «هاشم الشوباشي»، تسمرت عيناه عليها،

راح يتمتم بكلمات اعتذار مبهمة وهو يبحث عن قلبه الذي قفز من صدره واستقر بين يديها.

وقف أمامها مقدمًا نفسه لها وهو يقول في فضول: ما اسمك؟

أجابته في ثبات: أمل.

***

تمت بحمد الله

مُحتويات الكِتاب

الفصل الأول.................................... ٥

الفصل الثاني.................................... ٢٣

الفصل الثالث.................................... ٣٨

الفصل الرابع ٥٢

الفصل الخامس.................................... ٨٠

الفصل السادس.................................... ١٠٨

الفصل السابع ١٣٠

الفصل الثامن ١٥٠

الفصل التاسع ١٦٥

الفصل العاشر ١٨٤

الفصل الحادي عشر.................................... ١٩٨

الفصل الثاني عشر.................................... ٢١٢

الفصل الثالث عشر ٢٣٠

الفصل الرابع عشر.................................... ٢٤٩

الفصل الخامس عشر ٢٦٢
الفصل السادس عشر ٢٨٣
الفصل السابع عشر ٢٩٩
الفصل الثامن عشر ٣١٨
الفصل التاسع عشر ٣٤٣
الفصل العشرون.. ٣٦٥
محتويات الكتاب.. ٣٨٧

إخراج فني
معاذ علي الجراحي
تصميم غلاف
أميرة الصفتي